مكتبة نوبل

١٩٦٩

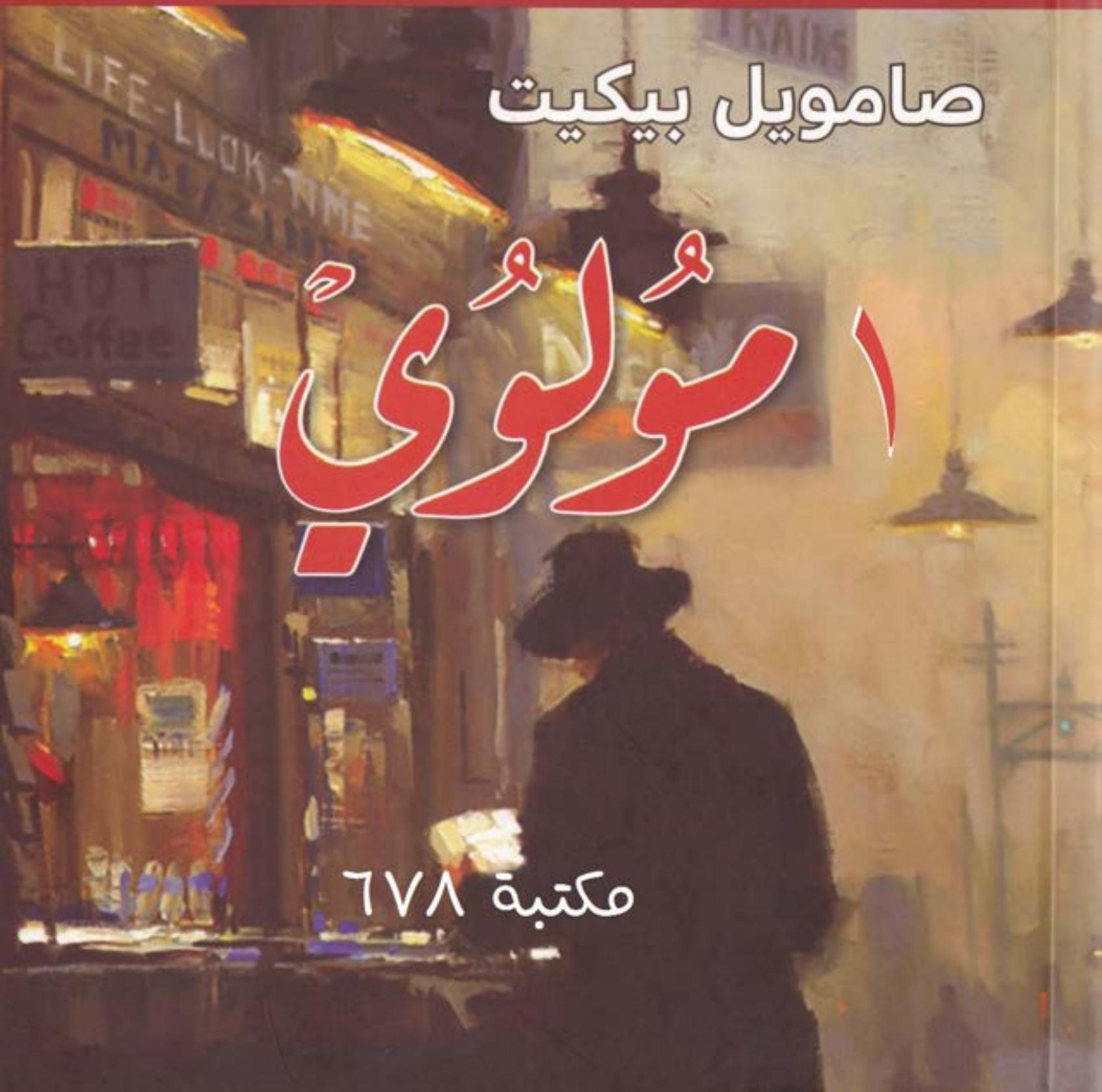


صامويل بيكيت

# مُولُوي

مكتبة ٦٧٨

مكتبة | 678
سُر مَن قرأ

# مولوي

روايـــة


اسم المؤلف: صامويل بيكيت

Author: **Samuel Beckett**

عنوان الكتاب: مولوي

Title: **Molloy**

ترجمة: محمد فطومي

Translated by: **Muhammad Fatumi**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al-Mada**

الطبعة الأولى: **2018**

First Edition: **2018**



**جميع الحقوق محفوظة: دار المدى**

**Copyright © 1951 By Les Editions de Minuit**



للإعلام والثقافة والفنون

*Al-mada for media, culture and arts*



بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289



لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

*All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.*

صامويل بيكيت

مكتبة | 678
سُر مَن قرأ

# مولوي

ترجمة : محمد فطومي

# مقدّمة المترجم

أشكّ في أنّ القارئ في حاجة إلى تعريف لصامويل بيكيت من قبل المُترجم. طبعاً قبل أن أكون مترجماً أنا قارئ وصاحب وجهة نظر في ما أقرأ. والحقيقة أنّ مقدّمات المترجمين كانت دائماً تمثّل بالنّسبة إليَّ نصّاً رتيباً مُكرّراً كطقس لا بدّ منه. تعريف بالكاتب فتلخيص لمضمون الرّواية فتعريج على أنّ الترجمة لم تكن هيّنة. عموماً هذا ما يحدث عادة. أو في أفضل الأحوال هي نصّ مدحيّ للرواية في شكل قصيدة نثر مُطوّلة. على كلّ هذا رأيي الذي يلزمني وحدي. في ما يتعلّق بي لن أعرّف بالكاتب لا لأنّه غنيّ عن كلّ تعريف، بل لاستحالة تطويق رجل كهذا في أسطر يُذكر فيها تاريخ ميلاده ومكانه وأعماله التي اشتهر بها والجوائز التي نالها. صاحبنا حائز على جائزة نوبل للآداب لسنة 1969 وهو صاحب مقولة: «أنت حيّ، لا دواء لذلك»، صُنّف في تيّار العبث، بل ثمّة من نعته برائد حركة الأدب العبثي على الإطلاق، لكن لنفتح قوساً ولنُصغِ إلى صوت الفنّ الذي يسكننا، أليس العبث في نهاية الأمر هو إنكار جدّية الحياة والوجود برمّته بوصفه حياة تسير نحو نهايتها بوعي؟ كيف إذن لا يخطر للمُتأمّل أنّ أدباء العبث هم الأكثر جدّية في عملهم. وصامويل بيكيت هنا في هذه الرّواية المُحيّرة استطاع الجمع بين الذّات الإنسانيّة المتألّمة غير المحايدة وبين الكاتب الذي يتبرّأ من شخصيّاته المُعذّبة، بين الشّعريّ المتوحّش وبين الفكاهة السّوداء، بين المُصاب بالحياة وبين الحكيم الذي يلقّن كيفيّة الوقوف قويّاً أمام إكراهات البقاء وعدم جدواه. ستقرؤون رواية مختلفة على جميع المستويات؛ لأنّها

ببساطة بُنيت بالهدم والتّقويض، فقد عصف الكاتب الذي أعار قلمه لشخصيّتي مولوي وموران بالمتداول والمألوف غير عابئ في الواقع بما قد ينجرّ عن ذلك من سوء فهم أو أحكام نقديّة مُتسرّعة، أو حتّى رغبة مُلحّة للقارئ في تصحيح الكثير من العبارات والجمل، ذاك أنّ الكاتب متخفّياً خلف شخصيّات غريبة الأطوار لم يجدّد في اللّغة فحسب، بل نقد جمودها وازدحامها بالصّور الجاهزة إلى حدّ بدا معه واضحاً أنّه يرتقي بالتعبير إلى منزلة المُنجز الوحيد للإنسان. في انسجام مع فلسفته تلك يلوح مولوي الذي لا همّ له سوى سرد القصص ووصف انطباعه ونفسه والعالم الضيّق المُحيط به يخوض رحلة بحث عن أمّه وعن ذاته الضّائعة، يصبح معها بمرور الوقت الاستمرار في التقدّم هو الغاية والمنشود. مولوي يروي، أو هو مُطالب بذلك كما سيكتشف القارئ، إنّه يتكلّم لغته الخاصّة، يصبغ ما شاء من المعنى على ما شاء من الكلمات والعكس صحيح، إلى درجة أنّي وجدت نفسي أمام ضرورة تبرئة ساحتي من حرّيته المُطلقة وأريحيّته الفائقة في استعمال اللّغة. إنّ ما يعني مولوي حقّاً هي راحته وقدرته على التقدّم. لا شيء مهمّ غير ذلك، ليس لديه ما هو مُقدّس، لا التزام تجاه أحد أو واجب. ما يعنيه فقط هو الاستمرار في السّرد وقطع المسافات. لقد استطاع الماكر بيكيت تصميم شخصيّة مولوي لتكون فترة في حياة القارئ. شخصيّة تنذر الواقعة أو الحدث قرباناً للنصّ. بل في كثير من الأحيان تشكّل الجملة لديه برهاناً على حقيقة الأشياء ليصبح بذلك للجملة مشيئة وسلطة وأسبقيّة على متنها نفسه. لا أدري إن كان من يتابعني يفهمني، إنّما صراحة لا يمكن الحديث عن مولوي الرّواية أو مولوي الشخصيّة بغير لعنته، فقد كان عليَّ الحذر وأنا أنقل إهماله، وحريصاً وأنا أنقل لامبالاته وواثقاً في نقل السّخط الكامن في تردّده وخوفه، وأميناً في نقل فحشه، وجادّاً في نقل سخريته القادرة على رسم الابتسامة بل وحتّى الضّحك. وجريئاً وأنا أنقل خَوَره الذي أعلم جيّداً بأنّه قد يجعلني كمترجم عرضة لتهمة السّقوط في الرّكاكة. وليعلم القارئ دون دخول في التّفاصيل وليطمئنّ فقط إلى أنّ

ما ذُكر مقصود. أمّا موران سيّد القسم الثاني من الرّواية فلن أعبّر أفضل منه وهو يروي جزأه الخاصّ به لو قلتُ إنّه أراحني من مولوي وإنّ رحلة بحثه عن مولوي هي في الواقع رحلة تحوّل إلى مولوي.

أخيراً ومهما كنت وفيّاً لرؤيتي بأنّ الترجمة هي أن تجعل الكاتب كما لو أنّه يكتب نصّه بيده بالعربيّة وحريصاً كلّ الحرص على أن أظهر براعة في تشييد هذا الجسر، فإنّه من الجدير الاعتراف بأنّ مولوي بغرابتها وإحالاتها وكوابيسها الفلسفيّة أمكنها في غفلة منّي أن تثبت بأنّ الإنسان رحلة. رحلة تلف مُعجزته فيها أن يصير حالته في كلّ مرّة.

**محمد فطومي**

مكتبة
t.me/t_pdf

أنا في غرفة أمّي. أنا من يعيش فيها الآن. لا أعلم كيف وصلتُ إلى هنا. في سيّارة إسعاف ربّما. أنا على يقين بأنّي وصلتُ بواسطة عربة ما. مؤكّد أنّي تلقّيت مساعدة. لم يكن في استطاعتي القيام بذلك وحدي. الرّجل الذي يأتي لزيارتي كلّ أسبوع. لا بدّ أنّه هو الذي أقلّني. يقول لم أفعل. يُسلّمني القليل من المال ويرفع الأوراق. الكثير من الأوراق. الكثير حقّاً. نعم هذا ما يحدث. ما زلتُ أعمل كذي قبل تقريباً. المُشكلة الوحيدة هي أنّي لم أعد أجيد العمل. لكن يبدو أن لا أهمّية لذلك. أريد فقط التحدّث عن الأشياء التي بقيت لي. أن أودّع العالم وأن أنتهي كلّيّاً من مسألة الموت. لا يريدون. بلىَ إنّ عددهم كبير على ما يبدو. لكنّ الذي يأتي هو نفسه لا يتغيّر. يقول لي: يمكنك القيام بذلك لاحقاً. حسناً. أترون لم تعد لديَّ الرّغبة الكافية. حين يأتي لِجَنْيِ الأوراق الجديدة يكون مُحمّلاً بأوراق الأسبوع الماضي. مكتوب عليها رموز لا أفهمها. أصلاً أنا لا أعيد قراءتها. عندما لا أكون قد أنجزت شيئاً فإنّه لا يُقدّم لي شيئاً. يعاتبني مع أنّي لا أشتغل طمعاً في المال. لماذا إذن؟ لا أدري. لا أعلم الكثير صراحة. موت أمّي مثلاً. هل ماتت قبل مجيئي أم إنّها لم تمت إلّا فيما بعد. أعني هل ماتت ميتة تستوجب دفنها؟ لا أدري. ربّما لم يتمّ دفنها بعد. مهما يكن من أمر فإنّ غرفتها قد آلت إليَّ. أنام في فراشها وأتحرّك داخل قالبها. لقد أخذتُ مكانها. يُفترض بي أنّي أزداد شبهاً بها. لا ينقصني سوى ابن. ربّما يكون لديَّ ابن في مكان ما. لا أظنّ. لا بدّ أنّه مُسنّ مثلي تقريباً. أغلب الظنّ أنّها الخادمة. لم يكن حبّاً حقيقيّاً.

الحبّ الحقيقيّ منحته إلى أخرى. سترون. هأنذا أنسى اسمها. يُهيّأ إليّ أحياناً أنّي عرفتُ ابني واعتنيت به. ثمّ أستدرك فأقول، مُستحيل أن أكون قد اهتممتُ بأحد. نسيتُ أيضاً رسم الكلمات ونصف المفردات. يبدو أنّ كلّ هذا بلا أهمّية. كان بودّي لو أنّ الأشياء عكس ذلك. إنّه إنسان طريف هذا الذي يأتي لزيارتي. يبدو أنّه يزورني كلّ يوم أحد. بقيّة الأيّام هو مشغول تماماً. ظمؤه لا ينطفئ أبداً. هو الذي أخبرني بأنّ بدايتي لم تكن موفّقة وأنّ علَيَّ البحث عن بداية أخرى. أتمنّى حقّاً. لقد بدأتُ من حيث يتعيّن علَيَّ أن أبدأ. تفهمون عنّي. كأيّ أحمق مُسنّ. إليكم بدايتي الخاصّة. سيحفظونها رغم كلّ شيء لو أنّي فهمتُ جيّداً. لقد آذيتُ نفسي. ها هو ذا. لا بل هو. إنّه هو من تسبّب لي في ألم كبير. كانت تلك هي البداية. أتفهمون عنّي. فيما هي تقريباً النّهاية في الوقت الحاضر. هل أنا بصدد القيام بالأنسب في الوقت الحاضر؟ لا أدري. ليس هذا هو السّؤال. إليكم بدايتي الخاصّة. يجب أن تكون لها دلالة ما داموا يحفظونها. ها هي ذي. هذه المرة وأخرى أعتقد ثمّ ينتهي كلّ شيء. وأنتهي من هذا العالم أيضاً. إنّه حدس المرّة قبل الأخيرة. سيُمحى كلّ شيء. لم أعد أمشي. الخرس سيطر والأصوات خفّت. هكذا يحدث دائماً. حين يقترب المرء من بلوغ الذّروة. الرّأس هو الذي لا يعود يتحمّل كما يُقال. سأقاوم هذه المرّة وأخرى ربّما ثمّ لا شيء بعد ذلك. بكثير من المشقّة نصوغ فكرة مماثلة. لأنّها بشكل أو بآخر فكرة. لذلك وجب إيفاء الحذر والانتباه إلى كلّ هذه الزّوايا المُعتمة. قائلين بعسر شديد إنّ الخطأ يكمن فينا. خطأ! إنّه اللّفظ الذي استخدموه. لكن أيّ خطأ كان؟ ليس الوداع على كلّ حال. وما السّحر الذي في الأشياء الغامضة التي تحين مع أوّل مرور لها موعد الوداع. التّوديع ضروريّ. إنّه الغباء بعينه أن لا تقول وداعاً في الآونة التي حدّدوها. إذا فكّرنا في المحيط وفي النّور الذي كان يُشرق في وقت مضى لا حرج، لكن أبداً لم يعد ذلك ممكناً. كيف تريدون أن يحدث ذلك. بماذا؟ لا أدري. أناس يمرّون أيضاً. أناس يصعب تمييزهم على وجه الدقّة. إنّها أشياء محبطة.

هكذا ألفيتُني أرى «أ» و«ب» يمضي كلّ منهما صوب الآخر ببطء وبلامبالاة واضحة. حصل ذلك على طريق تتّسم بعراء مفجع. أقصد دون سياج أو أسوار أو حواشٍ من أيّ نوع. في واحد من الأرياف حيث الحقول الشّاسعة التي تُلاحَظ فيها أبقار تجترّ وأخرى واقفة أو مفترشة قوائمها عند سكون المساء. لعلّي أبالغ قليلاً أو أجمّل المشهد، لكن عموماً هي كذلك. تلوك وتبلع ثمّ إثر راحة وجيزة تستعدّ لاستقبال دفعة أخرى. وتر في الرّقبة يتحرّك فيُستأنف المضغ من جديد. لكن لعلّها مجرّد ذكريات. الدّرب القاسي الأبيض تبلّل بندى المراعي الغضّة التي تصعد وتنخفض على هوى التموّج. المدينة لم تكن بعيدة. كانا رجلين. يستحيل أن يخطئ المرء في شأنهما. أحدهما قصير والآخر طويل. في البداية خرجا من المدينة. خرج أحدهما ثمّ لحق به الآخر. بسبب الإنهاك أو لأنّهما تذكّرا أمراً ملحّاً عادا أدراجهما. الهواء بارد فقد كانا يرتديان معطفيهما. يتشابهان لكن ليس أكثر من شبههما بالآخرين. لم يكن في مقدور أحدهما أن يرى الآخر حتّى لو رفع رأسه وجاس بعينيه بسبب رحابة المكان وبسبب الهضاب التي جعلت الطّريق مُموّجاً. قليلة العمق لكنّها كافية. نعم كافية. وجاءت اللّحظة التي التقيا فيها عند الخندق نفسه. وفي هذا الخندق حدث بينهما اللّقاء أخيراً. أن يكونا على معرفة سابقة ببعض. لا شيء يمكنه أن يتيح لي تأكيد ذلك. على وقع الضجّة التي أحدثتها خطواتهما أو بتحذير من بعض الحدس الغامض رفعا رأسيهما وراح كلاهما يرمق الآخر مدّة كافية لقطع مسافة خمس عشرة خطوة قبل أن يتوقّفا. أحدهما في مواجهة الآخر. أجل. لم يتمّ لقاء مباشر بينهما لكنّهما تبادلا التحيّة بالإشارة من مسافة قريبة كما يفعل شخصان يتنزّهان في البادية لا يعرفان بعضهما. دون ما قد يجعل من الأمر حادثة استثنائيّة. لكن من يدري ربّما كانا يعرفان بعضهما. مهما يكن من أمر، كلاهما الآن يعرف الآخر وسوف يتذكّره. أخمّن. وسيُسلّم عليه في أقصى نقطة من أعماق المدينة. سيحوّلان أبصارهما ناحية البحر. ذاك الذي، بعيداً، من جهة الشّرق خلف الحقول ارتفع في السّماء الممتقعة.

سيتخاطبان ببعض العبارات. بعد ذلك كلّ منهما سيعود من حيث أتى. «أ» في اتّجاه المدينة و«ب» نحو المناطق التي لا يعرف عنها الكثير، أو أنّه لا يعرف عنها شيئاً مُطلقاً. لأنّه يسير بخطى مرتبكة متردّدة ويتوقّف بين الحين والحين لينظر حوله كمثل من يسعى إلى تحديد علامات مرجعيّة في ذهنه. فربّما كان عليه العودة على أعقابه يوماً ما. من يدري. الأجمات المخادعة أين ألقى بنفسه مرعوباً والتي لا شكّ في أنّه عرفها من خلال إلقاء نظرة من بعيد عبر نافذة حجرته ربّما. أو من أعلى قمّة بناية يوماً فاض معه منسوب الحنين لديه حيث لا شيء مميّز ليفعله فراح يبحث عن المواساة في العلوّ الشّاهق. ودفع فعلاً ثلاث أو ستّ بنسات ليصعد سلّماً لولبيّاً لعمارة ينشد السّطح. من ذلك المكان لا بدّ أنّه أشرف على كلّ شيء. السّهل. البحر وبالذّات تلك الأجمات التي لا أحد يسمّيها جبالاً. والتي تصبح نيليّة اللّون في بعض المواضع متأثّرة بنور المساء ملتصقة الواحدة بجوار الأخرى حتّى غيابها عن الأنظار، تشقّها الضّيعات التي لا نراها بل نتنبّأ بوجودها بسبب تدنّي النّغمات ثمّ بسبب علامات أخرى تستحيل ترجمتها إلى كلمات أو حتّى التّفكير فيها. لكنّنا لا نتنبّأ بها كلّها حتّى من ارتفاع شاهق، وغالباً هناك حيث لا نرى سوى جانب واحد وقمّة واحدة يكون في الواقع هناك اثنتان. جناحان وقمّتان تفصل بينهما ضيعة. لكنّه يعرف هذه التّلال الآن. أي يعرفها بشكل أفضل. وفي حال تأمّلها مجدّداً من بعيد فبعيون أخرى أعتقد. ليس هذا فحسب، بل ما في داخلها أيضاً. تلك المساحة الدّاخليّة التي لا يمكن مشاهدتها أبداً. العقل والقلب والمغاور الأخرى أو الأفكار والأحاسيس يتّخذن سَبتهم[1]. كلّ ذلك مُرّتب على نحو مُختلف. يبدو هرماً ويا له من أمر مثير للشّفقة أن تراه يمضي وحيداً بعد سنوات عديدة. أيّام وليالٍ لا تُحصى بل إنّها تُسَلّم دون عدٍّ فريسة لإشاعة تُذاع منذ ولادتها وحتّى قبل ذلك بكثير حائمة حول السّؤال الأكثر نهماً، كيف؟ كيف؟ تارة بصوت

1 – سبت بني إسرائيل.

منخفض كالهمس ومثل: «ماذا عن الشّراب» التي ينطق بها نادل النّزل تارة أخرى... ثمّ يأخذ بالانفتاح إلى درجة الاحمرار. كي يرحل وحده في نهاية المطاف متنقّلًا بين دروب مجهولة في قلب اللّيل ليس معه سوى عصا. عصا غليظة يتوكّأ عليها كي يدفع بنفسه إلى الأمام. أو ليدفع بها الكلاب واللّصوص عن طريقه كلّما أمكن. نعم لقد حطّ اللّيل. لكنّ الرّجل بريء. براءته عظيمة. لا يخشى شيئاً. بلى هو يخشى. إنّما لم يكن في حاجة إلى أن يخاف شيئاً بعينه. لا أحد في وسعه إلحاق الأذى به أو على الأقلّ بمقدار ضعيف. لكنّه يجهل ذلك دون شكّ. أنا نفسي كنتُ سأجهله لولا التّفكير. كان يرى نفسه مُهدّداً في جسمه وصوابه. ربّما كان ذلك صحيحاً رغم براءته. تبّاً ما دخل البراءة هنا؟ وما علاقته بجنود المكر الذين لا يُحصى عددهم؟ الأمر ليس بهذا الوضوح. يعتمر مظلّة مستَدقّة حسب ما يُخيّل إليّ. صُعقت. لقد ذكّرني بكلّ ذلك رغم أنّي لم أكن قادراً على أن أشبّهه لو حملتُ قبّعة أو بطّيخاً. رأيتُه يبتعد مهموماً يغمره الإحساس بالقلق. قلق لم يكن بالضّرورة نابعاً منه. بل لعلّه يشكّل جزءاً منه. من يدري لعلّه قلقي أنا يلفّه هو. لم يُلاحظ وجودي. كنتُ جاثماً فوق المستوى الأكثر علوّاً في الطّريق مستنداً على حجر بلوني. رماديّ. أن يكون قد شاهد الحجر فهو احتمال أستبعده. راح ينظر حوله. كنتُ قد لفتُّ انتباهه إليه. كأنّي أنقش في ذاكرته طبيعة الطّريق. كان في استطاعته رؤية الحجر السّابح في الظّلال التي تخفّيتُ بها على طريقة «بِلَكا»[2] أو «سورديلو»[3] لا أذكر تماماً. لكنّ رجلًا يغلب الظنّ أنّه أنا لا يمكن أن يُمثّل علامة طريق. لأنّه... حسناً سأشرح. إذا توجّب عليه أن يعود من هنا تحت ظرف قاهر بعد أن يكون قد قضّى فترة طويلة مهزوماً أو لأنّه تذكّر شيئاً نسيه أو ليحرق شيئاً، فإنّه سيبحث عن الحجر بعينيه لا عن الصّدفة التي جعلت ظلّ الحجر يخفي جسماً متحركاً فارّاً من لحم

2- بلكا: بطلة خياليّة في الثلاثيّة الرّوائيّة (عند مفترق العالم) لكاتبها فيليب بولمان.

3- سرديلو: راعٍ إيطالي وبطل قومي عاش في القرن الثالث عشر ميلادي، خصّه الشّاعر الفكتوري روبرت برونينج بقصيدة شهيرة.

ينبض بالحياة. لا. مؤكّد أنّه لم يرني للأسباب التي ذكرتها ولأنّه في ذلك المساء كان خاليَ الذّهن من تلك النّاحية. لم يكن اهتمامه منصبّاً على الأحياء، بل على كلّ ما لا يُغيّر من مكانه أو الذي حتّى إذا غيّر مكانه فبطء يجعل طفلاً يسخر منه ناهيك عن رجل كبير في السنّ. مهما يكن من أمر أقصد أن يكون قد رآني أم لا، سأظلّ أعيد بأنّي رأيته يبتعد. كان في إمكاني آنذاك أن أمسك به. نعم أنا. لكن نيّتي كانت النّهوض وتعقّبه والانضمام إليه يوماً ربّما كي أتعرّف عليه وحتّى تكون وحدتي أقلّ وطأة. لكن رغم اندفاعي نحوه بكلّ روحي كنت بالكاد أراه عند أقصى نقطة يسمح بها حبله المطّاطي كما يُقال. ربّما بسبب العتمة دون أن أنسى الأرض طبعاً، تلك التي تنبسط على طيات يختفي خلفها من حين إلى آخر ليعاود الظّهور مرّة أخرى لكن خصوصاً أعتقد بسبب أشياء أخرى تناديني فتتوق إليها روحي وتظل مشتّتة بينها ذاهلة ومُلبّية بالتّناوب من غير أدنى فكرة عمّا يجدر بها أن تفعل. أتحدّث عن الحقول الآخذة في البياض تحت الظلّ وعن الحيوانات التي كفّت عن التّجوال كي تتقمّص حياة اللّيل وعن البحر الذي لن أقول عنه شيئاً. عن خطّ القمم الذي يزداد حدّة. عن السّماء. تلك التي دون أن أنظر إليها أشعر بارتعاش نجماتها الأولى. عن يدي التي فوق ركبتي وخصوصاً عن المُتجوّل «أ» و«ب». لم أعد أذكر ذاك الذي عاد بهدوء إلى بيته. أجل نحو يدي التي في إمكان ركبتي أن تشعر بارتعاشها والتي لا ترى منها عيناي سوى المعصم وبياضها وظهرها نافر العروق. لكن لستُ هنا كي أتحدّث عن يدي هذه. كلّ شيء في أوانه. لكن أودّ التكلّم عن «أ» أو «ب» الذي يتّجه صوب المدينة التي غادرها للتوّ. لكن في العمق هيئته لا توحي بميزة مدنيّة لافتة. يتنقّل بنوع من الخمول مُختالاً بصورة معيبة أو صائبة تبدو لي مُعبّرة. لكن كلّ هذا لا يثبت شيئاً. لا يعكس شيئاً. ربّما كان صحيحاً أنّه أتى من بعيد، من الجهة الأخرى للجزيرة وأنّه ربّما يقصد المدينة الأولى في حياته أو أنّه يعود إليها بعد غياب طويل. كلب صغير يرافقه،

«بوميرانيّ»[4] على ما أظنّ. لا أعتقد. آنذاك لم أكن متأكّداً. حتّى اليوم لا يمكنني أن أجزم بذلك رغم أنّي أجهدتُ عقلي قليلاً. ربّما لأنّي لم أعد أتبعه. الكلب الصّغير يتبعه بشكل سيّئ كما هو شأن الكلاب البوميرانيّة عادة. يتوقّف. يحوم حول نفسه طويلاً. يصرف النّظر أعني يُعرض تماماً. ثمّ يستأنف السّير من بعيد. انقباض المعدة لدى الكلاب البوميرانيّة علامة صحّة جيّدة. في لحظة مُعيّنة، مُضمرة، لو رغبتم. أنا من جهتي أرغب. يعود السيّد على أعقابه. يأخذ الكلب بين ذراعيه. يُحرّر السّيجار من بين شفتيه ويدفن وجهه في الفرو البرتقاليّ. كان سيّداً، هذا جليّ. بلى كان بوميرانيّاً برتقاليّاً كلّما تعجّبتُ منه ازداد يقيني بالأمر. وحتّى لو سلّمنا بذلك. هل قَدم هذا السيّد من بعيد مكشوف الرّأس بصندل وسيجارة في الفم متبوعاً بكلب بوميرانيّ؟ ألم يكن يوحي بأنّه آتٍ من المتاريس بعد عشاء جيّد ليتنزّه ويأخذ كلبه في جولة سابحاً في الحلم والفساء كما يفعل الكثير من الحضريّين حين يكون الطّقس جميلاً. لكن ذلك السّيجار ألم يكن في الواقع محرقة أفواه ربّما. وذلك الصّندل المُرَصّع بالمسامير. المُبيَضّ من كثرة الغبار، وهذا الكلب، ما الذي يمنعه من أن يكون كلباً سائباً نلتقطه ونأخذه في الأحضان بدافع الشّفقة أو لأنّنا تسكّعنا طويلاً بمفردنا دون رفيق في هذه الطريق اللّانهائيّة وهذا الرّمل والحصى والمُستنقعات والخلنج، وهذه الطّبيعة التي تكشف عن عدالة أخرى. عدالة تقتضي بأن يتّضح زميل سجنٍ كلّما أوغلنا في خوض الحوارات معه. نُقبّله. نحلبه. نرضعه. نتقاطع معه فنقرأ في نظراته الباعثة على الازدراء خشيةً من أن يُحرم حميميّة العائلة. إلى أن يأتي اليوم الذي لن نتمكّن فيه مُجدّداً في هذا العالم الذي يبدو لك بلا أذرع من الإمساك بكلاب جربٍ بين ذراعيك، تحملها معك المُدّة الكافية لتُحبّها قبل أن ترمي بها. ربّما وصل إلى المُستوى رغم الظّاهر الذي

4- بوميراني: سلالة كلاب اشتهرت بها منطقة بوميرانيا وهي إحدى مقاطعات بروسيا سابقاً في شمال ألمانيا. له وجه حادّ الأنف يشبه الثّعلب، أذناه مدبّبتان وينحصر لونه تقريباً بين الأبيض والأسود والبرتقالي أحياناً.

يقول العكس. لقد اختفى. الشّيء المُدخّن في يده. الرّأس فوق الصّدر. سأفسّر. لقد حوّلت ناظريَّ مُبكّراً عن تلك الأغراض الآخذة في الزّوال. أن أقبض عليها في آخر لحظة. لا أبدأ. لم يكن في وسعي. تحديداً من هذا الزّاوية قلتُ إنّه اختفى. كنتُ أفكّر فيه بعينين هائمتين وهو يصغر ويصغر. قلت إنّي أفهم نفسي. أعرف أنّ في استطاعتي اللّحاق به بما أوتيتُ من تسَمُّر. لم أكن في حاجة إلى أكثر من الإرادة. إلّا أنّي لم أفعل. ببساطة لأنّه الأمر الذي أرغب فيه أكثر من غيره. أن أنهض وأتوغّل في الطّريق وأنطلق مُتعثّراً في إثره. وأدوّخه. ليس ثمّة ما هو أسهل. حين سيسمع صراخي سيلتفت وسينتظرني. أنا الآن في مواجهته تماماً. في مواجهة الكلب اللّاهث بين عكّازيَّ. خائف قليلاً ولديه شعور بالشّفقة ناحيتي. أبعث فيه إحساساً بالقرف نوعاً ما. منظري لا يُعجب ورائحتي كريهة. ماذا أريد؟ آه ما هذه النّغمة التي أعرفها. المشحونة بالخوف والشّفقة والزّعاف. أردتُ رؤية الرّجل من قريب. أردتُ معرفة من الذي يدخّن. وتأمُّل الحذاء. أن أرفع المزيد من العلامات. إنّه طيّب. يقول لي كذا وكذا ويُخبرني بالكثير من الأشياء. من أين جاء. أين يذهب. أصدّقه. أعرف أنّها فرصتي الوحيدة لـ... فرصتي الوحيدة. أصدّق دائماً كلَّ ما يُقال لي. لم أرفض سوى مرّات قليلة خلال حياتي الطّويلة. أمّا الآن فقد صرتُ أزدرد كلّ شيء بنهم. كلّ ما أحتاج إليه حكايات. قضيتُ فترة طويلة لأعرف ذلك عن نفسي. على أيّ حال ما زلتُ غير متأكّد. وهكذا قرّرتُ التركيز على بعض الأشياء. أشياء أجهلها وتقلقني في الآن نفسه. حتّى إنّ بينها أشياء لم أعانِ منها. يا لها من لغة. كان في وسعي أيضاً أن أعرف منه مهنته التي يُزاولها. أنا الذي طالما اهتممتُ بالمهن. في الواقع لستُ ممّن يفعلون المُستحيل ليتحدّثوا عن أنفسهم. لاحقاً في لحظة مُعيّنة سأتكلّم عن الأبقار وعن السّماء. سترون. إذن أخيراً تركني ورحل. كان مُتعجّلاً. لم يكن مظهره يدلّ على أنّه مُتعجّل. كان يتنزّه وكنتُ قد لفتُّ انتباهه إلى ذلك. لكن بعد ثلاث دقائق من محاورتي إيّاه صار متعجّلاً. وعليه الإسراع. أصدّقه. ثمّ بعد ذلك صرتُ لا أقول وحيداً. لا

أبداً. لأنّي لستُ من ذاك النّوع. لكن كيف سأعبّر. لا أدري. عدتُ إلى نفسي. لا ليس هذا فأنا لم أغادر نفسي. حُرّ. هو ذا. لا أفهم بالضّبط ماذا تعني هذه العبارة لكنّي أسمعهم يستخدمونها. حُرّ من ماذا؟ من عدم القيام بأيّ شيء؟ حرٌّ في المعرفة؟ معرفة ماذا؟ قوانين الوعي ربّما. وعيي بالذّات. أو كيف يصعد الماء مثلاً كلّما غصنا في داخله. وأنّنا حسناً نفعل عندما نمحو النّصوص بدل تحبير الهوامش. أن نصقلها إلى درجة تصبح معها ناعمة وناصعة البياض ويظهر الوجه الحقيقيّ للحماقة. فائقة الغباء وبلا معنى أو هدف. حسناً أفعل إذن – حسناً نسبيّاً على الأقلّ إذا توقّفتُ عن الانزعاج من مرصد مراقبتي. لكن عوض المراقبة انتابني شعور بالضّعف إزاء الالتفات بوجداني نحو الآخر. نحو الرّجل ذي العصا. الهمسات مرّة أخرى. جلب الصّمت هو دور الأجسام. أقول في نفسي من يدري لعلّه أراد ببساطة أن يستنشق الهواء. أن يبدّد ضيقه. ويتمدّد ويُخلي عقله بجعل الدّم يتدفّق في القدمين. ليضمن لنفسه ليلة رائقة واستفاقة سعيدة ويوم غدٍ ساحر. هل كان فقط يحمل حقيبة. لكن هذا النّسق وتلك النّظرات القلقة وهذا الصّولجان. هل حقّاً كانت في انسجام مع الفكرة القائلة بأنّه يقوم بجولة صغيرة. وهذه القبّعة إنّها قبّعة مدينة. صحيح أنّها عتيقة لكنّها قبّعة مدينة من النّوع الذي في وسع ريح ضعيفة أن تحملها بعيداً. إلّا إذا كانت مشدودة إلى الذّقن جيّداً بواسطة طوق أو خيط مطّاطي. أنزع قبّعتي لأتأمّلها. رباط حذاء طويل كان دائماً يشدّها إلى عروتي. هو نفسه دائماً مهما تغيّرت الفصول. هذا يعني أنّي ما زلتُ على قيد الحياة. كم هو رائع أن أحيط علماً بذلك. اليد التي امتدّت إلى القبّعة ما زالت تمسك بها. أبعدها عنّي قدر الإمكان وأجعلها ترسم في الفضاء خطوطاً متعرّجة. وأنا أراقبها تدور أرى من خلال شريط الأزرار بطان معطفي يُفتَح ويُغلق. أفهم الآن لِمَ لا أضع أبداً زهرة في شريط الأزرار رغم أنّه فسيح كفاية ليستقبل باقة. أدّخر الأزرار لقبّعتي. قبّعتي هي التي أوشّحها بالزّهور. لكن لا عن قبّعتي ولا عن معطفي أودّ التحدّث في الوقت الحاضر. سيكون سابقاً لأوانه. بلا شكّ سأتحدّث

عنهما لاحقاً حين سيتعلّق الأمر بإنجاز جرد لأموالي وممتلكاتي. هذا إذا لم أفقدهما من هنا حتّى ذلك الحين. لكن حتّى لو فقدتهما فسيكون لهما مكان مخصّص في جرد الممتلكات. إلاّ أنّي لن أفقدهما ما دمتُ في سلام. عكّازيَّ أيضاً لن أفقدهما. لكن حتماً سأتخلّص منهما يوماً. مؤكّد أنّي في قمّة أو على جانب ربوة خارجة عن المألوف. وإلّا كيف أمكنني أن ألقي ببصري على العديد من الأشياء القريبة والبعيدة. السّاكنة والمتحرّكة. لكن ما الذي جاء بربوة إلى هذا المشهد المموّج بالكاد. وأنا. ما الذي جاء بي إليها. هذا ما سنحاول اكتشافه. في النّهاية ليس علينا أخذ ذلك مأخذ الجدّ. إذ يبدو أنّها واحدة من النّزوات التي تعجّ بها الطّبيعة. لعلّي في القاع أخلط بين المناسبات المختلفة والسّاعات. نعم في القاع. والقاع أليس هو مسكني. ليس تحديداً نهاية القاع. بل في مكان بين الزّبد وبين الطّين. «أ» ذات يوم في منطقة ما ثمّ «ب» ذات يوم في منطقة أخرى ثمّ ثالثاً، أنا والصّخرة، وهكذا بالنّسبة إلى بقيّة العناصر. الأبقار. السّماء. البحر. الجبال. يتعذّر علَيَّ التّصديق. لا لن أكذب. أنا أصمّم الكذب بسهولة. لِم عليه أن لا ينطلي. لنتابع. لنتصرّف كما لو أنّه ينمو من الملل ذاته. لنؤنّث. لنؤنّث حتّى نبلغ السّواد الأعظم. الأكيد هو أنّ الرّجل ذا العصا لم يمرّ من هناك في تلك اللّيلة وإلّا لكنتُ سمعتُه. قليلاً ما أنام والقليل الذي أنامه أنامُه في النّهار. أوه ليس بصورة آليّة مضبوطة. خلال حياتي الهائلة جرّبتُ كلّ أصناف النّوم. لكن الفترة الحاليّة التي أحاول اكتشافها أنعس خلال النّهار. غالباً في الصّباح. لا أحد يحدّثني عن القمر لأنّ ليلي يخلو من قمر. وإذا صادف وتكلّمتُ عن النّجوم فهو بالتّأكيد من غير قصد. في تلك اللّيلة لم يكن لوقع خطواته الثّقيلة المتشكّكة مكان بين جميع الأصوات. ولا لصولجانه الذي يضرب به الأرض بين الحين والحين فيزلزلها. كم هو مذهل أن يكون المرء قد اتّخذ قراره بعد فترة من التردّد لا طويلة ولا قصيرة. لا بدّ أنّه الأمر الذي يجعل عذاب الموت يتفاقم. لأنّي لم أحسم. أي إنّي لم أتّخذ قراراً حاسماً بناء على انطباعي الأوّل في شأن – مهلاً – في شأن

«ب». فالعربات والشّاحنات التي تعبر قبل الفجر محدثة ضجيجاً كالرّعد في اتّجاه السّوق مُحمّلة بالفواكه والبيض والزّبدة والجبن، ربّما هي التي كانت تُقلّه منهكاً جدّاً أو محبطاً أو حتّى ميّتاً. أو لعلّه وصل إلى المدينة متّخذاً طريقاً آخر. بعيداً لا يتسنّى لي سماع ما يجري وسط الطّريق، أو عبر مسالك تشقّ الحقول واطئاً العشب بحذر وهو يقصف التّراب الأصمّ تحت قدميه. هكذا أستحضر تلك اللّيلة البعيدة مُمزّقاً بين همسات كياني الحائرة بصورة مُهذّبة وبين الأخريات كثيرة الاختلاف (أكثر من هذا؟) عن كلّ ما يمكث ويرحل بين شمسين. لا صوت آدميّ ولا مرّة واحدة. لكنّ الأبقار كانت تنادي دون جدوى مُتوسّلة أن تُحلَب كلّما مرّ نزر من المزارعين. لم أر «أ» أو «ب» مُجدّداً أبداً. لكنّي سأراهما بالتّأكيد. لكن هل سأتعرّف إليها؟ وهل أنا واثق من أنّي لن أشاهدهما في المرّة المُقبلة؟ ثمّ ماذا أعني بأراهما وأراهما مُجدّداً؟

لحظة صمت كالتي يدعو إليها قائد الفرقة وهو يضرب على لوحه. يرفع ذراعيه ثمّ يُسمع صوت تحطّم الأقفال. دخان. هراوات. لحم. شعر. المساء. من بعيد. حول شهوة أحد الإخوة. كلّ هذه الخِرَق أجيد حياكتها لأغطّي عاري. أتساءل عمّا يعنيه كلّ هذا. لستُ عند ضرورة القيام بذلك. لكن فيما يتعلّق بشهوة أحد الإخوة سأقول بما أنّي أستيقظ بين الحادية عشرة ومنتصف النّهار (أسمع صلوات التبشير الملائكيّة. بعد قليل سيشرعون في التّذكير بالتجسّد) خَلُصتُ إلى الذّهاب لرؤية أمّي. حتّى أخلُص إلى الذّهاب لرؤية هذه المرأة كان لا بدّ من أسباب ذات طبيعة استعجاليّة وهذه الأسباب، بما أنّي لا أعرف ماذا يتوجّب علَيَّ فعله ولا إلى أين يجب أن أذهب، تعتبر بالنّسبة إليّ لعبة أطفال. منفردين – لو أردت أن أملأ بها روحي إلى أن تصير كلّ مشاغلي الأخرى مرفوضة من تلقاء نفسها وتأخذني القشعريرة لمجرّد التّفكير بأنّي سأمنع من الوصول إليها. أقصد إلى أمّي. أنهض بالتّالي. أسوّي عكّازيَّ. وأنزل إلى الطّريق أين أجد درّاجتي الهوائيّة(عجباً لم أكن أتوقّع هذا) في المكان

الذي يفترض أنّي تركتها فيه. هذا يجعلني أستنتج أنّي رغم الشّلل الذي يكبّلني كنتُ أركب الدرّاجة بسعادة تامّة في تلك الفترة. إليكم كيف كنتُ أتدبّر أمري. أربط عكّازيّ إلى القضيب العلوي للهيكل. واحدة من كلّ جانب. أشدّ ساقي المتصلّبة (نسيتُ أيّهما فكلاهما متصلّبتان في الوقت الحاضر) إلى الأمام بينما أدوّس بالأخرى. هي درّاجة بلا سلسلة بعجلة حرّة إن جاز التّعبير. درّاجتي الحبيبة لن أدعوك بغير درّاجتي. لا أدري لماذا. أعيد النّظر إليها عن طواعية. سأجد متعة في ذكر تفاصيلها. لديها قرن صغير أو لعلّه خرطوم يعوّض طابع الموضة في أيّامكم. تشغيل القرن كان دائماً عملاً ممتعاً. ما يُشبه الإثارة. أذهب أبعد من ذلك فأقول إنّه لو كان علَيَّ صياغة قائمة متوَّجين للأشياء التي لم تدلق الكثير من الخراء على رأسي طيلة حياتي اللّانهائيّة فإنّ استخدام القرن ستكون له مرتبة مُشرّفة. وفي المرّات التي كان علينا فيها أن نفترق أنا ودرّاجتي كنتُ أعمد إلى اقتلاع القرن وحفظه قبالتي. كان معي دائماً في مكان ما. وما عدم استخدامي له إلّا لأنّه أصبح أخرس. حتّى سيّارات هذه الأيّام ليست مزوّدة بقرون حسب ما أسمع أو على الأقلّ هي نادرة. عندما أصادف واحداً في الشّارع من خلال نافذة مفتوحة لإحدى السيّارات في حالة توقّف، عادة أشغّل قرني. حريّ بي أن أعيد كتابة كلّ هذا مُصرّفاً الأفعال في الزّمن ما قبل الماضي. مُريح هو الحديث عن درّاجات هوائيّة وعن قرون. يا لها من راحة. لسوء الحظّ لست هنا للحديث عن هذا، بل عن تلك التي وهبتني الحياة من ثقب دبرها إن لم تخنّي الذّاكرة. بدأ الإزعاج. أضيف إذن فقط بأنّي أُضطرّ كلّ مئة متر تقريباً إلى أن أريح ساقيَّ. السّليمة والمُعطّبة. ليست السّاقان فقط. لم أكن أدفع بالبراز. لا ليس تماماً. أظلّ ممتطياً. القدمان تلامسان الأرض. اليدان على المقود والرّأس مرخيّ على الذّراع. أنتظر حتّى أشعر بالتحسّن يدبّ في أوصالي. لكن قبل مغادرة تلك المواقع السّاحرة. مُعلّقاً بين الجبال والبحر. محميّاً جيّداً ببعض الرّياح ومُشرعاً على كلّ ما يمكن أن يمنحه منتصف النّهار في هذا البلد الملعون. بلد العطور والفتور، ألوم

نفسي كيف كتمت الصّرخة المفزعة للخرير الذي يجري في اللّيل وسط القمح وفي البراري خلال الفصل الجيّد بخلخلة مَهْدِها. فوق كلّ ذلك ليس مسموحاً لي أن أعرف متى تبدأ الرّحلة العجائبيّة قبل الأخيرة تلك، ذات الشّكل الذّابل المُقيم بين الأشكال الذّائبة، والتي أعلنت بغير شكل المحاكمة أنّي بدأتها في الأسبوع الثّاني أو الثّالث لشهر جوان. يعني في الفترة الأكثر حرجاً على ما يُسمّى بنصفَي الكرة الأرضيّة والتي بسبب الشّمس المُستعرة والصّفاء القُطبيّ الذي يأتي ليتبوّل فوقنا عند منتصف كلّ ليل. عندها فقط أسمع الخرير. أمّي تراني بسرور. يعني تستقبلني عن طواعية لأنّ زمناً طويلاً مرّ عليها وهي لا ترى شيئاً. سأبذل مجهوداً كبيراً لأحافظ على هدوئي وأنا أتكلّم عنها. كنّا طاعنين في السنّ. هي وأنا. لقد أنجبتني في سنّ صغيرة ما جعل منّا زوجاً من مسنّين متواطئين بلا جنس أو صلة قرابة. ذوي ذكريات واحدة وأحقاد واحدة وتوقّع واحد. لم تكن أبداً تناديني يا ابني. أصلاً لم أكن لأقبل منها ذلك. بل كانت تناديني«دان»، لا أدري لماذا رغم أنّي لا أدعى «دان». «دان» كان اسم والدي. لعلّها كانت تعتقد أنّي والدي. أنا أتّخذها أمّاً لي وهي تتّخذني أباً لها. أتذكر يا «دان» يوم أنقذنا ذلك الخطّاف. أتذكر يا «دان» يوم دفنتَ الخاتم. هذه عيّنة من حديثها معي. أذكر، أذكر. أعني أنّي بصورة ما على علم بما ترويه لي. وحتّى لو لم أكن قد شاركت شخصيّاً في تلك الوقائع التي تذكرها. فلا مشكلة. أنا أناديها «ماچ» إنّها وليدة فكرة تخامرني بأنّ الحرف«چ» سيتكفّل بإبطال المقطع «ما». في الواقع هو لا يبطله فقط بل يبصق عليه أفضل من أيّ حرف آخر. وفي الوقت نفسه يُتاح لي أن أحقّق حاجة عميقة، وبلا شكّ غير معلنة وهو أن يكون لي «ما» أي «ماما» والجهر به في العلن. إذ قبل أن ننطق «ماچ» نحن بالضّرورة ننطق بـ «ما». و«دان» في منطقتي تعني أنّي... المسألة لم تكن مطروحة خلال الفترة التي كنت أعبث فيها بشرجي، أعي مسألة مناداتها «ماچ» أو الكونتيسة «كاكا» فقد مضى وقت طويل وهي مُصابة بالطّرش كأصيص. أعتقد أنّها تقضي حاجتها الكبيرة والصّغيرة تحتها. لكنّ نوعاً من التّواضع يجعلنا

نتجنّب الخوض في هذا الموضوع خلال حواراتنا. وكنتيجة لذلك لا يمكنني الجزم بشيء. فيما عدا ذلك يمكن القول إنّها مقادير قليلة لا قيمة لها. فقط ما اجتمع لدى عجوز من روث مبلّل بشحّ شديد مدّة يومين أو ثلاثة.

تنبعث من الحجرة رائحة الأمونياك. أوه لا ليس الأمونياك بل الأمونياك. الأمونياك. تعرفني من رائحتي. وجهها المُجعّد المشعَّرُ يضيء لأنّها سعيدة بكونها اشتمّت رائحتي. تستدير بصعوبة. مفاصلها تصدر صوتاً كصرير الرّفوف. ولا تعي ما تقول أغلب الوقت. أحد غيري كان سيُسحب من الإدراك وهو يتابع تلك المناغاة والنّقر الذي لا يتوقّف خلال فترات غيابها عن الوعي. لم آتِ لسماعها على أيّ حال. أدخل معها في اتّصال بواسطة طرقات على الجمجمة. طرقة تعني نعم. اثنتان تعني لا. ثلاثة لا أدري ماذا تعني. أربعة نقود. وخمسة الوداع.

تعبتُ كثيراً كي أدرّب هذيانها وسمعها الخرب على هذه الشّفرة. لكنّي نجحت. أن تخلط بين نعم ولا والوداع مثلاً لم يكن يعنيني كثيراً. أنا نفسي أخلط بينها. لكن أن تخلط بين الطّرقات الأربع وبين أمر آخر فهذا ما يجب تحاشيه بأيّ ثمن. أثناء فترة التّدريب، إذن، كنتُ أغرز تحت أنفها أو أحشو ورقة بنكيّة في فمها. كم كنتُ ساذجاً. إذ يبدو أنّها فقدت حسّ المقاسات مُطلقاً منذ زمن. كما فقدت أيضاً القدرة على العدّ أكثر من اثنين. تصوّروا أنّ العدّ من واحد إلى أربعة كان بالنّسبة إليها أمراً بعيداً جدّاً. وعندما نصل إلى النّقرة الرّابعة كانت تظنّ أنّها الثّانية. تلاشت الأولى والثّانية من ذاكرتها كأنّهما لم يكونا. لم تشعر بهما. لا أفهم جيّداً كيف يمكن لشيء لم نشعر به أن يُمحى من الذّاكرة. الغريب أنّ هذا يحدث بصورة مُتكرّرة. لا بُدَّ أنّها تظنّني أقول لها لا طيلة الوقت. في حين إنّه أبعد ما يمكن أن يخطر لي. أوحى لي هذا التّحليل بتكثيف البحث. أخيراً توصّلتُ إلى طريقة أفضل لأقحم في ذهنها فكرة النّقود. الطّريقة تتمثّل في استبدال النّقرات الأربع من إبهامي بلكمة أو

أكثر(حسب الحاجة) على جمجمتها. هذا تفهمه. على أيّ حال لم آتِ لطلب المال. آخذ منها طبعاً. هذا يحدث دائماً. لكنّي لستُ عاتباً على أمّي كثيراً. أعرف أنّها كانت على استعداد لفعل أيّ شيء كي لا أتشكّل في بطنها ما عدا الأمور العظيمة بالتّأكيد فهي لم تقم بها. وما فشلها الذريع في مقاطعتي سوى دليل على أنّ القدر يخبّئ لي خندقاً لا صلة له أبداً بالرّفاهيّة. لكن النيّة سليمة وهذا هو الأهمّ. كلّا هذا لا يكفي. من جهة أخرى أعترف لأمّي بالجهود التي قامت بها لأجلي. وأغفر لها المرّات التي رجّتني فيها خلال الأشهر الأولى وكونها لم تدلّلني سوى في الفترة الوحيدة الصّالحة في كامل تاريخي الهائل. وأعترف لها بالجميل أيضاً لأنّها لم تُكرّر التّجربة، مُتّعِظة ممّا حصل لها معي. أو لمجرّد أنّها وُفّقت في اختيار الآونة التي يجدر التوقّف عندها. وإن خطر لي يوماً أن أبحث لحياتي عن معنى(من يدري) فمن هذه الزّاوية سأبدأ النّبش. من جانب هذه العاهرة الوحيدة ومن جانب هذا التّداعي الذي يقرضني يوماً بعد يوم. من منهما أختار؟ قبل العودة إلى الأحداث سأضيف ما يتعلّق بمنتصف النّهار البعيد ذاك الذي جمعني بهذه المرأة العجوز الطرشاء العمياء القاصرة المجنونة التي تناديني «دان» والتي أناديها «ماج» والتي معها قمتُ بـــــــــ لا يمكنني التلفّظ بشيء. أقصد يمكنني قوله لكنّي لن أقول. نعم لا شيء أسهل من قوله لأنّ ذلك لن يكون صحيحاً. ماذا يبدو منها؟ دائماً رأس. أحياناً يدان ونادراً ذراعان. دائماً رأس. مغطّى بالشّعر والتّجاعيد والقذارة واللّعاب. رأس يُظلِم الهواء. طبعاً ليس هذا ما يعنيني، أمّا كبداية صغيرة فأعتقد أنّها تنفع. إنّه أنا من يستلّ المفتاح من تحت المخدّة ويأخذ الأموال ويعيد المفتاح تحت المخدّة. لكنّي لا آتي للمال. أعتقد أنّ هناك امرأة تأتي كلّ أسبوع. فأضع شفتَيَّ على تلك الإجّاصة الرّماديّة المُتقلّصة إخخ! هل كانت تجد متعة في ذلك؟ لا أدري. هذيانها يتوقّف لحظة. ثمّ يُستأنف. لا بُدَّ أنّها تتساءل عمّا يحدث لها. ربّما هي تقول أيضاً إخخ. أشتمّ رائحة مريعة لا بدّ أنّها الأمعاء وعطور الأزمنة الغابرة التي علقت بها. لستُ أنقدها.

أنا نفسي لا تضوع منّي روائح البخور العربي. هل أصف الغرفة؟ لا لن أفعل. سيكون هناك دائماً مُتّسع لأقوم بذلك لاحقاً. من يدري لعلّي أفعل عندما أُعدَم كلَّ الحيل ويتراجع ذيلي داخل دُبري وأثمل من شدّة الخجل ولا يعود لي من ملجأ سواها. أمّا الآن ما دمنا نعرف وجهتنا فلنذهب إليها. في البداية عادة يكون رائعاً شعورك بأنّك تعرف وجهتك حتّى إنّ سعادتك قد تنتزع منك الرّغبة في الذّهاب. كنتُ أشعر بالحبور أنا الذي نادراً ما أشعر به. إذ ما الذي قد يجلبه لي، خصوصاً مع حركاتي التي أصبح اضطرابها في تزايد مُطّرد.

أعياني اللّيل. أقصد جعلني أضعَف. والشّمس التي ما انفكّت تميل نحو الشّرق سمّمتني أثناء نومي. كان علَيَّ أن أضع صخرة بيني وبينها قبل أن أغمض عينيّ. أخلط بين الشّرق والغرب وبين القطبين أيضاً. أقلبها متعمّداً. لم أكن في صحني. صحني عميق. إنّه آنية حساء. ومن النّادر أن لا أكون فيه. لهذا أُعَرِّج على الأمر. قطعتُ بعض الأميال دون عقبات إلى أن بلغتُ أسفل السّور. هناك نزلت من الرّبوة حسب التّعليمات. نعم لدخول المدينة والخروج منها تفرض الشّرطة على الدرّاجين النّزول من الرّبوة وعلى السيّارات أن تسير في السّرعة الأولى وعلى العربات الثّقيلة أن تسير بالخطوة. الغرض من هذه الوصفة أعتقد أنّه الآتي، معابر الدّخول إلى المدينة والخروج منها بطبيعة الحال دون استثناء ضيّقة والرّؤية فيها محجوبة بسبب القباب العملاقة هنا وهناك. قانون جيّد. أنا أنصاع إليه كما ينبغي رغم عناء استخدام العكّازين لأتقدّم وأدفع الدرّاجة في آنٍ. يجب التّفكير في حلّ لذلك. حتّى يتسنّى لي أن أتخطّى هذه المعضلة العويصة، أنا ودرّاجتي في آنٍ واحد. لكن من بعيد نسبيّاً سمعتُ أحدهم يناديني. رفعتُ رأسي فوقعت عينيّ على ضابط بوليس. إنّها طريقة الكلام الإهليليجيّة[5]. إذ لن يطول الوقت حتّى يتّضح عبر الاستقراء والاستنتاج، لا أدري. أعرف ما كانت تلك الهيئة تحديداً.

5 – الإهليليجيّة: معادلة رياضيّة شكّلت أساساً في مجال العلوم الحاليّة.

ماذا تفعل هنا؟ قال. تعوّدت على هذا السّؤال. صرت أفهمه بسرعة. أرتاح قليلاً، قلت. ترتاح، قال. أرتاح، قلتُ. ثمّ صرخ، هلّا أجبت عن سؤالي.

هذا ما يحدث لي عندما تحاصرني الرّجفة. عندما أعتقد أنّي أجبت عن الأسئلة التي تطرح عليَّ فيما يتّضح أنّي واهم. لا يمكنني إعادة تركيب الحوار بتفاصيله. انتهى بي المطاف إلى فهم القضيّة، إنّها طريقتي في الرّاحة. سلوكي أثناء الرّاحة منفرج السّاقين فوق درّاجتي. اليدان على المقود والرّأس على الذّراعين في انتظار لا أدري ماذا. دون حياء أو تقدير النّظام. أشرت إلى عكّازيّ بتواضع وشرعت في إحداث ضجّة عشوائيّة حول عاهتي التي تجبرني على الرّاحة كما يمكنني لا كما يجب عليَّ. أظنّ أيضاً أنّي فهمت أمراً آخر هو أنّه لا وجود لقانونين. واحد للعاديّين وآخر للعاجزين. ثمّة فقط قانون واحد يمتثل له الجميع. الغنيّ والفقير. الشابّ والمُسنّ. السّعيد والحزين هذا القانون هو الفصاحة. أوحيتُ بأنّي لستُ حزيناً. تبّاً ماذا أقول. أوراقك! قال. فهمتُ عبارته بعد لحظة. لا، قلت، لا. أوراقك! صرخ الضّابط. آه أوراقي. لكنّ الأوراق الوحيدة التي في حوزتي هي القليل من أوراق الصّحف لأعتني بنفسي. تفهمون. حين أذهب إلى الحمّام. أعشق القيام بذلك كلّما أمكن. إنّه أمر طبيعي. أليس كذلك؟ مذعوراً أخرجتُ الأوراق ودسستها تحت أنفه. كان الطّقس جميلاً. اتّخذنا الطّرق الصّغيرة المُشمسة حيث يقلّ وجود المارّة. أنا أقفز بواسطة العكّازين وهو - بيديه المُخبّأتين داخل قفّازين أبيضين - يدفع درّاجتي برفق. لم... لم أكن أشعر بالحزن. توقّفتُ لحظة. أمررتُ إصبعي على قبّة القبّعة. كانت حارقة. نعم كنتُ أحمل ذلك الشّيء فوق رأسي. وجوه مشرقة وهادئة لرجال ونساء وأطفال كنتُ أراها تنظر ناحيتنا. ظننتُ لوهلة أنّي أستمع إلى موسيقى تأتي من بعيد. توقّفتُ لأنصت إليها جيّداً. تقدّم! قال. أسمع، قلت. تقدّم! قال. لا يُسمَح لي بالاستماع إلى الموسيقى. يُخشى أن يتسبّب ذلك في تجمّع.

صفعني على قفاي. أحدهم لمسني. أوه لا. ليس على الجلد. المُشكلة أنّ جلدي أحسّ اللّكمة القاسية للرّجل من خلال القفّازين.

في تلك الآونة الذهبيّة كنتُ أتقدّم محاولاً تقديم أفضل أداء كما لو أنّي إنسان آخر.

كانت حصّة راحة بين حصّة الصّباح وحصّة المساء. العقلاء بينهم كانوا ممدّدين في السّاحات أو جالسين أمام أبواب مكاتبهم مستمتعين بأنفاس الكسل الأخيرة. ناسين همومهم القريبة، غير مكترثين البتّة بأقاربهم. آخرون على عكسهم ينتهزون الفرصة لرسم الخطط ممسكين برؤوسهم بكلتا اليدين. هل ثمّة بينهم من وضع نفسه مكاني، ليشعر كم كنتُ ضئيلاً آنذاك كما أبدو، فيعرف مقدار القوّة الباعثة على الضّراط التي كانت عليها حبال تلك الضّآلة. نعم جائز. بما أنّي كنت أسحب نحو عمق مزيّف، نحو ظاهر اتّزان وسكينة مُزيّفين. ثمّ انطلقت مندفعاً بكلّ شروري وسمومي مطمئناً إلى أنّي لن أخسر شيئاً. تحت السّماء الزّرقاء وتحت عين الحارس ناسياً تماماً أمر أمّي، متحرّراً من تصرّفاتي ذائباً في ساعة غيري. كنت أقول في نفسي مهلاً . مهلاً. وحين وصلت إلى المركز اقتادوني إلى أحد الموظّفين المدهشين. كان يرتدي زيّاً مدنيّاً. قميصاً بذراعين كاملتين وكان غائصاً في كنبة مريحاً ساقيه على المكتب. كان يحمل قبعة قشّ وفي فمه شيء رقيق وليّن لم أتبيّن ما هو تحديداً. استطعتُ تسجيل تلك التّفاصيل قبل أن يصرفني. استمع إلى تقرير مرؤوسه ثمّ شرع في التّحقيق معي بنبرة تأديبيّة تبعث في المرء الرّغبة في الامتثال لها حسب رأيي. بين أسئلته وأجوبتي. أتحدّث هنا عن تلك التي تستحقّ الذّكر . كانت هناك فترات طويلة نسبيّاً وصاخبة. لستُ معتاداً على السّؤال عن أمر ما حتّى أنّي أحتاج بعض الوقت لأفهم الكلام الموجّه إليَّ. الخطأ الفادح الذي أرتكبه على الدّوام هو أنّي بدل التّفكير برويّة فيما أسمعه للتوّ والذي سمعته جيّداً بفضل حاسّة سمعي القويّة، رغم قِدمها، فإنّي أسارع بالإجابة متفوّها بأيّ شيء يخطر لي خشية أن يجلب لي

صمتي غضباً محتملاً قد يبلغ أشدّه لدى مخاطبي. أنا خوّاف. قضيتُ كلّ حياتي خائفاً من أن يضربني أحدهم. السّباب والشّتائم أتحمّلهما بسهولة لكنّي لا أفلح في اعتياد الضّرب أبداً. أمر مضحك. البصاق أيضاً يجعلني أشفق على نفسي إلى اليوم. كلّ ما أطلبه هو أن يكون الآخرون لطفاء معي. أعني أن يتحكّموا في أعصابهم إزائي وأن لا يعاملوني بوحشيّة. عموماً نادراً ما كنت أفشل في إرضاء الآخرين. المشكلة هي أنّ المفوّض كان يظهر سعادة كبيرة في تهديدي بمسطرة أسطوانيّة بصورة تجعله قادراً على التدرّج معي في حلّ معضلة فقداني جميع الوثائق. هذا على فرض أنّ هذه الكلمة تعني له شيئاً. لا شغل، لا مسكن، اسم العائلة الذي ضاع من ذاكرتي في الوقت الحالي، وكيف أنّي أحاول الوصول إلى أمّي التي أمضيتُ عمري أتأرجح في مشجبها. لا أعرف عنوانها. هذا صحيح. لكنّي قادر على الوصول إليها ولو في العتمة. الحيّ؟ حيّ المسالخ دون شكّ أيّها الأمير، فمن خلف نوافذها المغلقة بقوّة تفوق قوّة ثرثرتها كنت أسمع خوار الثّيران. ذاك الخوار المرعب الخشن المرتعش عكس ذلك الذي يُسمع في المراعي. إنّه صوت خاصّ بالمدينة. بالمسالخ وأسواق المواشي. نعم بالتّأكيد. بالقليل من التّفكير المتقدّ ربّما يمكنني التوصّل إلى أنّ أمّي كانت تسكن قريباً من المسالخ التي يُحتمل أنّها هي نفسها الأماكن التي تباع فيها المواشي والتي كانت أمّي تسكن قريباً منها. اهدأ، قال الموظّف، إنّه الحيّ نفسه. الصّمت التي تلا تلك الكلمات الودودة استغرقتُ خلاله في المشاهدة عبر النّافذة دون أن أرى شيئاً بصورة فعليّة، فقد كنت مغمض العينين مستسلماً فقط لعذوبة اللّون الأزرق والذهبي، خالٍ من الملامح لا شيء في حنجرتي أو حتّى في ذهني. حسناً، تقريباً. لأنّي في تلك اللّحظات تساءلتُ فيما إذا كنتُ راغباً في الجلوس بعد وقت طويل أمضيته واقفاً. مُستحضراً ما تعلّمته بخصوص هذا الموضوع كأن تكون وضعيّة الجلوس ليست معدّة لي أنا، بسبب ساقي المتخشّبة وأنّي لا أملك غير وضعيّتين. واحدة عموديّة متدلّياً بين عكّازيّ، نائماً واقفاً والأخرى أفقيّة على الأرض مباشرة. مع ذلك فإنّ الرّغبة في

الجلوس تجتاحني من حين إلى آخر. تأتيني من عالم ضائع. والحقّ أنّي لم أكن أنجح في مقاومتها رغم أنّي إنسان حذر. أجل. تلك الرّواسب يستشعرها ذهني بالتّأكيد. تبدو له متحرّكة لا أدري كيف. مثل حصى صغيرة في قاع بحيرة في حين إنّ السّماء المذهلة وهواء الصيف يحطّان بثقلهما على تفّاحة آدم خاصّتي ويتغلغلان بين قسماتي. وفجأة تذكّرتُ اسمي، مولوي. اسمي مولوي. صرخت في ارتباك شديد. لقد حضرني بغتة. لا شيء على الإطلاق يجبرني على تقديم تلك المعلومة لكنّي قدّمتها كي أمنح الرّضا دون شكّ. سمحوا لي بالاحتفاظ بالقبّعة. لديَّ فضول لمعرفة السّبب. هذا اسم أمّك؟ قال المفوّض. لا بُدَّ أنّه هو المُفوّض. مولوي، قلت، اسمي مولوي. هل هذا هو اسم أمّك؟ قال المفوّض. نعم، قلت. خطر لي ذلك في لحظتها. وأمّك؟ قال المفوّض. لم أفهم. هل اسمها مولوي هي أيضاً؟ قال المفوّض. هل اسمها مولوي؟ قلت. نعم، قال المفوّض. نعم أجبت. أفكّر. اسمك هو مولوي؟ قال المفوّض. نعم، قلت. وأمّك، هل اسمها مولوي هي أيضاً؟ أفكّر. أمّك قال المفوّض اسمها ــــــــــ. دعني أفكّر صرخت. في النّهاية أعتقد أنّ هذا هو ما حدث. فكّر، قال المفوّض. هل اسم أمّي هو مولوي؟ دون شكّ يجب أن يكون اسمها مولوي هي أيضاً، أجبت. أظنّ أنّهم أخذوني إلى قاعة الاحتفاظ. هناك طلبوا منّي الجلوس. شرحتُ مأزقي باختصار. فحصلت على رخصة للتمدّد على مقعد جماعيّ أو أن أظلّ واقفاً على الأقلّ مستنداً إلى الجدار. القاعة مظلمة وكان هناك أناس متعجّلون يعبرونها في كلّ اتّجاه. مجرمون. رجال شرطة. رجال قانون. قساوسة بالإضافة إلى صحافيّين فيما أعتقد. كلّ ذلك كان مُظلماً. أشكال مظلمة تعبر فضاءً مظلماً. لا ينتبهون إلى وجودي. أنا أيضاً. لكن لو كان الأمر كذلك حقّاً كيف أمكنني معرفة أنّهم لا ينتبهون إلى وجودي وكيف أمكنني أن أردّ عليهم تجاهلهم إيّاي ما داموا لم يلحظوا وجودي. لا أدري. لقد فعلتها وهذا هو المهمّ. لقد سجّلتُ ضدّهم نقطة وكفى. ثمّ فجأة ظهرت أمامي امرأة ضخمة ترتدي الأسود. البنفسجي بالأحرى.

أتساءل إلى حدّ هذه اللّحظة إن كانت المرأة مرشدة اجتماعيّة. قدّمت لي وعاءً في صحن لا مثيل له مليئاً بعصير رمادي اللّون يُفترض أنّه شاي مُحلّى مخلوط بالحليب. لم يكن هذا كلّ شيء. فإلى جانب الصّحن والوعاء كانت هناك قطعة خبز جاف تقف منتصبة بصورة غير مُستقرّة جعلتني أهجس بأنّها ستسقط حتماً. ستسقط. كنتُ أقول في نفسي كأنّ مسألة سقوطها من عدمه مسألة لها قيمة. بعد لحظة كنتُ أنا نفسي أمسك بيدين مرتعشتين كومة صغيرة من الأشياء المختلفة الحارقة حيث الصّلب والطريّ والسّائل متجاور، دون أن أفهم كيف انتقلت إليَّ تلك الأشياء. سأخبركم بأمر. حين تُقدّم لكَ المُساعِدات الاجتماعيّات شيئاً يلهيك عن الالتفات بعينيك عن طيب خاطر. الأمر الذي يمثّل هوساً بالنّسبة إليهنّ، وحاولت الابتعاد فإنّ الواحدة منهنّ تكون على استعداد لملاحقتك حتّى آخر الأرض وفي يدها كيس للقيء. الخلاصيّات[6] ليسوا أفضل أبداً. مقابل الحركة السخيّة ليس هناك استعراض بتاتاً. فيما أعلم. نطأطئ الرّأس، نمدّ يدين مرتعشتين ومقلقلتين ونقول شكراً. شكراً سيّدتي. شكراً سيّدتي الكريمة. الذين لا يملكون شيئاً لا يحقّ لهم أن لا يحبّوا الخراء. فاض السّائل وترنّح الوعاء مصدراً صوت أسنان تصطكّ. طبعاً لم تكن أسناني لأنّي لا أملك أسناناً. الخبز المبتلّ بدأ يميل أكثر فأكثر. عندما بلغ قلقي ذروته رميت بكل شيء بعيداً عنّي. لم أدعها تسقط من يدي قذفتها بكلّ ما أوتيت من قوة بيدين متشنّجتين على آخرهما لتتحطّم على الأرض أو على الحائط. لن أروي ما حصل بعد ذلك لأنّي ضقت ذرعاً بهذا المكان وأريد أن أخرج. في ساعة متأخّرة من المساء قالوا لي إنّ في إمكاني المغادرة وأعطوني تعليمات بأن أحسن التصرّف مستقبلاً. كنت واعياً بخطئي. أعرف الآن لِمَ أُلقيَ علَيَّ القبض. لم يعد ذلك خافياً بفضل الخلل في أجوبتي أثناء التحقيق. لكنّي مندهش من السّرعة التي

6- الخلاصيّات: عموماً الخلاصيّون في الديانة المسيحيّة هم المؤمنون بأنّ الإنسان في آخر المطاف سينعم بالخلاص من عذاب الربّ.

أطلقوا بها سراحي. بتلك البساطة مُنحت حريّتي - على اعتبار أنّها الحريّة - دون أدنى عقوبة. هل كانت هناك عناية في الأعلى ترعاني؟ هل فَرضتُ على المفوّض رغماً عنه وبطريقة ما أن يهبّ لنجدتي؟ هل اتّصلوا بأمّي أو بأحد سكّان الحيّ ليتثبّتوا من أقوالي؟ هل رجّحوا أنّه لا داعي من التدخّل لتأديبي؟ معاقبة شخص مثلي بصورة آلية ليس أمراً لائقاً. قد يحدث. لكنّ المحكمة لا تنصح بذلك. من الأفضل للمرء أن يلتمس المغفرة من الأعوان. لا أدري. إذا كان حمل الوثائق ضروريّاً إلى هذه الدّرجة فلِم لمْ يصرّوا على أن أتملّكها؟ هل لأنّ ذلك مكلف فيما لا أملك أموالاً؟ في هذه الحالة لِم لم يحتجزوا درّاجتي؟ ربّما ما كان ليجوز ذلك دون إذن من المحكمة. كلّ هذا غير مفهوم. الأمر الوحيد المؤكّد هو أنّها المرّة الأخيرة التي سأرتاح فيها بتلك الطّريقة ساقاي مرتكزتان على الأرض بفحش. الذّراعان على المقود ورأسي مهمل وعشوائيّ فوقهما. كان ذلك محزناً حقّاً. ومُحزناً أيضاً بالنّسبة إلى أبناء مدينة يحتاجون بشدّة إلى التشجيع في عملهم وإلى الاكتفاء فقط برؤية الفرح واستعراضات القوّة والجرأة من حولهم وإلّا صاروا مهدّدين بالانهيار آخر النّهار. في حدود قدراتي الجسميّة ليس عليهم سوى أن يعلّموني كيف أتصرّف وسأفعل. لا أبدو سيّئاً فأنا أتحسّن. لقد كنتُ دائماً ذكيّاً وحيويّاً. أمّا العزيمة فهي لعبتي. أنا أفيض عزيمة من النّوع العصبيّ الذي يبديه المصابون بالقلق عادة. حتّى إنّ مجال مكتسباتي اتّسع كثيراً إذا قارنتُ خطواتي الأولى بالأخيرة التي أدّيتها السّنة الماضية. وإن كنتُ قد تصرّفتُ كخنزير طوال الوقت فإنّ الخطأ ليس خطئي بل خطأ رؤسائي لأنّهم يؤدّبونني من زاوية التّفاصيل فحسب، دون أن يطلعوني على روح النّظام. هكذا يفعلون في المدارس الثانويّة الأنجلوسكسونيّة. وفي المبادئ التي ينبع منها السّلوك الجيّد وطرق قفز الأزمات دون أن تظهر عيوبك هنا أو هناك ودون أن تخطئ في حقّ هذا أو ذاك. والارتقاء بالنّفس إلى الأصل انطلاقاً من وضعيّة معيّنة. كانوا ربّما منحوني الفرصة لأعود دائماً إلى القواعد الأولى لنظريّة التحليل بدل أن يشيعوا بين الناس أنّ اللياقة تقصُرُ

فقط على عدم معالجة الأنف بالإصبع أو عدم وضع اليد تحت الخصيتين أو عدم استعمال مناديل الأنف أو الفظاعة التي في حفلات التبوّل المنعشة. نعم في هذا الصّدد ليس لديَّ سوى مبادئ تزداد سلبيّة، تزداد سوءًا يوماً بعد يوم. هذا يعني أنّي كنت في العتمة أغلب الوقت. وأنّ تأمّلاتي التي ما لبثتُ أجمعها طيلة القرن كانت تدفع بالشكّ إلى درجة ارتسم معها جليّاً مساري نحو أسلوب العيش المثالي رغم الفضاء الضيّق. لكن فقط لأنّي لا أعيش فعليّاً أفكّر في أشياء كهذه وفي الآخرين. إنّه فقط في قلب الطمأنينة التي يمنحها التحلّل يسعني أن أتذكّر تلك العاطفة الممتدّة الملتبسة التي تُسمّى حياتي والتي أقيّمها كما يُشاع أنّ الله يُقيّمنا. بوقاحة ربّما كنتُ أفعل. التحلّل حياة هو أيضاً. أعلم ذلك. أعلمه. لا تتعبوني، الفرق بينهما هو أنّنا مع التحلّل لا نكون مكتملين. هذا لا يمنع إمكانيّة أن أتحلّى يوماً ما بالطّيبة الكافية لأخوض معكم في شأن هذا النّوع من الحياة. يوماً ما أكون فيه قد عرفتُ أنّي بمجرّد معرفة الأشياء لستُ أمارس سوى الوجود، وأنّي لم أعرف شيئاً على الإطلاق بمعرفتي كلّ ذلك. وإنّي لا أفعل شيئاً حقيقيّاً غير الصّراخ بصوت مرتفع. بطريقة مكتومة لكن في كلّ الأحوال على نحو منفتح. إذن لنصرخ. يُفترض أنّه يجلب الفائدة. نعم لنصرخ. هذه المرّة وأخرى ربّما في وقت لاحق. لنصرخ عالياً بأنّ الشّمس الغاربة قد مالت على الواجهة البيضاء للمركز. يذهب في الظنّ أنّنا في الصّين. ظلّ معقّد يرتسم. إنّه أنا ودرّاجتي. رحتُ ألعب. أديّت حركات ولوّحتُ بقبّعتي. كنتُ أدفع بدرّاجتي إلى الأمام والخلف وأنا أنفخ في البوق. استدرتُ إلى الجدار العالي. يراقبونني من خلف النّوافذ المُشبّكة. أشعر بعيونهم فوقي. طلب منّي الساعي المنتصب أمام البوّابة الرّحيل. سأهدأ من تلقاء نفسي. في النّهاية لم يكن الظلّ مسلّياً أكثر من الجسم ذاته. طلبت من الموظّف أن يشفق علَيَّ ويساعدني. لم يفهم. ندمتُ على الطّعام الذي قدّمته لي المرشدة. أخرجت من جيبي حصاة ورحتُ أمصّها. كان ناعماً بسبب صقل العواصف له ولكثرة ما امتصصتُه. حصاة كرويّة صغيرة. إنّها كفيلة بتهدئتي. تنعش وتحبط

الشّعور بالجوع وتخدع العطش. قدم الموظّف نحوي. بطئي هو الذي أثار حفيظته. هو أيضاً لا بُدَّ أنّهم يراقبونه من خلف النّوافذ. كان هناك ضحك في مكان ما. في داخلي أيضاً كان هناك من يضحك. أمررتُ ساقي المريضة من الجهة الأخرى للإطار المعدني. ابتعدتُ. نسيت وجهي. توقّفت عن التّفكير. من الصّعب أن أفكّر وأنا أدوّس. لو فكّرتُ أثناء السّير فمن المؤكّد أنّي سأفقد توازني وأسقط. أتحدّث بصيغة الحاضر. يسهل الحديث في الحاضر عن الماضي. لا تُلقوا بالاً إنّه الحاضر الميثولوجي. أغرق في جبل من الخِرق لمجرّد أن أتذكّر بأنّ هذه الأشياء بلا معنى. استأنفتُ المسير في ذلك الدّرب الذي لا أعرف ماذا أفعل فيه تحديداً. بوصفه فقط طريقاً. مساحة مُشرقة أو داكنة مستوية أو محدّبة لكن دائماً عزيزة علَيَّ إلى حدّ يبعث على التّفكير. إنّه الطّريق نفسه حيث الصّخب المُلازم للشّيء الذي ينساب وللغبار الذي يلقي التحيّة عندما يكون الطّقس جافّاً.

هأنذا بمحاذاة القناة غير مستوعب أنّي غادرتُ المدينة. القناة تعبر المدينة. هذا أعرفه، بل أكثر من ذلك أعرف أنّهما اثنتان. لكن ماذا عن هذه الأسيجة وهذه الحقول إذن؟ لا تنزعج مولوي. فجأة أبصرت. إنّها ساقي اليمنى. الصّلبة في تلك الفترة. وأنا أجوس بنظراتي درب اللّهاثِ رأيتُ قطيع أحمرة رماديّة فتيّة في طريقها إليَّ من الجانب الآخر. وتناهت إلى مسامعي صرخات غضب وضربات مكتومة. وضعت ساقي على الأرض كي أمنح نفسي بشكل أفضل فرصة مشاهدة البارجة وهي تقترب بلطف لم يتموّج له الماء. كان قارباً. حمولة خشب ومسامير في طريقها إلى أحد النجّارين بلا شكّ. تقاطعت نظراتي مع نظرات أحد الحمير. خفضت بصري نحو خطواته الأنيقة الواثقة. كان مِرفَقُ (قائد عبّارة الموتى)[7] فوق ركبته ورأسه في كف يده. بعد كلّ ثلاثة أو أربعة أنفاس

7- قائد عبّارة الموتى: في الأسطورة الإغريقيّة، قائد عبّارة الموتى هو المكلّف بنقل أرواح الموتى إلى الجحيم في قاربه.

من غليونه كان يبصق في الماء. الشّمس تلقي بألوانها على الأفق. مزيج من الكبريت والفسفور. أمضي نحوها. أخيراً نزلت عن السّرج والتحقت قفزاً بالخندق، هناك تمدّدت بجانب درّاجتي. تمدّدت على طولي. اليدان معقودتان في شكل قاطع ومقطوع. فوقي تدلّى الزعرور البرّي الأبيض. لسوء الحظّ أكره رائحته. وسط الخندق كان العشب سميكاً وعالياً. نزعت قبعتي وسحبت الأغصان الطويلة المورقة ناحية وجهي. اشتممت رائحة الأرض. رائحة الأرض كانت في العشب الذي ألصقته بوجهي كضفائر منعتني من الرؤية تماماً. أكلت القليل منه. وعاد اسمي إلى ذاكرتي بشكل غير مفهوم. كما عاد إليَّ أيضاً أنّي قرّرت الذهاب لرؤية أمّي صبيحة هذا اليوم السّاحر. أسبابي؟ نسيتها. لكنّي أعرفها. أظنّ أنّي أعرفها. لم يظلّ سوى أن أجدها كي أطير إلى أمّي بجناحي الضّرورة. جناحي دجاجة. نعم كلّ شيء يصبح سهلاً بمجرّد أن نعرف لماذا. سؤال بسيط لكنّه سحريّ. معرفة مكمن القداسة أمر والنّذر أمر آخر. أيّ أخرق في وسعه أن يَنْذُر. بالنّسبة إلى التّفاصيل - هذا إذا كانت التفاصيل مهمّة - ليس عليك أن تيئس، ففي إمكاننا دائماً أن نطرق الباب الصّحيح على النحو الصّحيح. عموماً أردتُ القول إنّك لستَ في حاجة إلى تعويذة. ربّما ليس ثمّة شأن هام خلاف وصيّة ما بعد الموت. لا حاجة ليكون المرء ماكراً كي يعثر على مُسكّن يهوّن على الموتى حياتهم. في هذه الحالة ماذا أنتظر كي أدرأ موتي الخاصّ؟ ستأتي. ستأتي، أجل. أسمع من موقعي الجعجعة التي ستخفّف من حدّة كلّ شيء حتّى لو لم أكن من يطلقها. من هنا حتّى ذلك الحين لا طائل من اعتبار أنفسنا راحلين. لسنا كذلك. ما زلنا نتلوّى. الشّعر ينبت والأظفار تطول والأحشاء تفرغ. كلّ متعهّدي الموتى ماتوا. أحدهم سحب السّتائر. بأنفسنا قمنا بذلك ربّما. دون إصدار أيّ ضجيج. أين الذّباب الذي ما انفكّوا يحدّثوننا عنه. سندرك أنّنا لسنا نحن من مات. بل الآخرون جميعاً. عندئذ ننهض لنذهب إلى الأمّ التي تعتقد أنّها على قيد الحياة. هكذا خيّل إليَّ. لكن قبل ذلك علَيَّ الخروج أوّلاً من هذا الخندق. سأختفي بمحض إرادتي. موغلاً أكثر

فأكثر تحت وطأة الأمطار. يوماً ما سأعود بلا شكّ. أو سأصاب بالإحباط نفسه من يدري. مؤكّد أنّي سأمنح الثّقة لساقي لأجل ذلك كما لا بدّ أن ألتقي المفوّض ومساعديه يوماً ما. حتّى لو طرأ عليهم تغيير كبير. لستُ أحاول التّأكيد على أنّهم هم بأنفسهم. لا تسيئوا فهمي. قطعاً سيكونون أنفسهم حتّى لو طرأ عليهم تغيير كبير. لأنّك إذا خيّمتَ داخل أحد ما أو استخدمته فسيكون ذلك بمثابة، كيف تُقال. لا أدري. أن لا ترغب في القول. أن لا تعرف ماذا تريد أن تقول. أن لا تقدر على قول ما تظنّ أنّك ترغب في قوله. ثمّ من جهة أخرى أن تتكلّم دون توقّف تقريباً. هذا ما يهمّني أن لا أفقد سيطرتي عليه في خضمّ الكتابة. تلك اللّيلة لم تكن تشبه اللّيالي الأخرى. لو كانت تشبهها لدريتُ بالأمر. لأنّ تلك اللّيلة التي قضيتها على ضفاف القناة... كلّما تذكّرتها لا أجد شيئاً. لا وجود لليلة بتمام المعنى. فقط مولوي في خندق. يخيّم عليَّ صمت رهيب. وتحت جفنَيّ نشأت ليلة صغيرة أو ربّما هي حيث تألّقت بقعٌ متوهّجة تارة ومنطفئة تارة. مقفرة تارة ومأهولة تارة أخرى كما لو أنّها شعلة فضلات القدّيسين. قلت ليلة. لكن ربّما هناك ليال أخرى. لنخن! هيّا لنخن الأفكار الخائنة. في الصّباح. كان صباحاً. ولقد تقدّم الوقت. كنت غافياً كعادتي وقد صخب الجوّ خارج الخندق عندما عثر عليَّ أحد الرّعاة. كنت نائماً. أفقت على نظراته فوقي. كان إلى جانبه كلب يلهث. ويحدّق فيَّ لكن بتركيز أقلّ من صاحبه. فقد كان من حين إلى آخر يعضعض مواضع من جسمه بحنق. من المحتمل أنّ القراد يشاركه إيّاها. هل ظنّ بأنّي خروف أسود عالق في هذا الشّرك الأخضر وهو الآن في انتظار أن يتلقّى أمراً من سيّده بإخراجي؟ لا أظنّ. لا تنبعث منّي رائحة الخرفان. كان بودّي لو أنّ الرّائحة المنبعثة منّي هي حقّاً رائحة الخرفان أو حتّى التيوس. الأشياء الأولى التي أفتح عيني عليها أراها بوضوح وأفهمها شرط أن لا تكون صعبة. ثمّ في رأسي وعيني مطر رقيق بدأ بالتّساقط كما لو أنّ مصدره مرشّ. هذا هو المهمّ. وسرعان ما عرفتُ أنّ الذي أمامي أو بالأحرى الذي فوقي راعٍ وكلبه. فوقي نعم. إذ لم يبرحا الطّريق. ودون

عناء ميّزت بَكَمَ القطيع الذي من المؤكّد أنّه بات قلقاً لغياب من يهمزه. على غرار ذلك لا يبدو لي الكلام في ذلك التوقيت منغلقاً حتّى إنّي سألت بثقة وهدوء، إلى الحقول تأخذهم أم إلى المسالخ؟ هكذا فقدتُ حسّ الاتّجاهات كما لو أنّ السّؤال فعلاً يتعلّق بالاتّجاهات. لأنّه حتّى إن كان متّجهاً إلى المدينة ما الذي يمنعه من أن يحيط بها أو أن يخرج من بوّابة أخرى كي يفوز بمراعٍ مريحة إضافيّة ولو ابتعد ماذا كان سيعني ذلك؟ لا شيء. فالمسالخ ليست في المدن فحسب. ثمّة منها في كلّ مكان. في البادية مثلاً، كلّ جزّار هو مسلخ وحقُّ ذبحٍ حسب مشيئته. لكن إمّا أنّه لم يفهم أو أنّه لم يشأ أن يجيبني. لم يجب بل غادرني دون كلمة واحدة. موجّهة إليَّ أقصد. لأنّه تكلّم مع كلبه الذي أصغى إليه بانتباه وبأذنين واقفتين. جثوت على ركبتي، لا هذا لا يستقيم. لقد استقمت واقفاً أراقب القافلة وهي تبتعد. أسمع الرّاعي يصفّر وأراه يقلّد الطواحين بطنينه، أمّا الكلب الذي لولاه لسقط القطيع في القناة فراح يلفّ حول نفسه دون توقّف. كلّ هذا رأيته من خلال غبار لامع ولاحقاً من خلال الرّذاذ أيضاً. ذاك الرّذاذ الذي اعتاد كل يوم أن يتركني وجهاً لوجه مع نفسي ويحجب عنّي كلّ الأشياء الأخرى ويحجبني عنّي. هدأ التّشويش. إمّا أنّ الخراف لم تعد قلقة أو بسبب ابتعادها. لعلّي لم أعد أسمع بوضوح كما كنتُ أفعل منذ قليل. أستغرب ذلك كثيراً. لأنّي أتمتّع بسمع مرهف يضعف فقط قليلاً عند الفجر. وإذا حدث ولم أسمع لمدّة ساعات فلأسباب أجهلها أو لأنّ كلّ شيء حولي صامت. في حين إنّ الأمر يختلف مع النّاس المستقيمين لأنّ ضجيج العالم لا يتوقّف أبداً بالنّسبة إليهم. هكذا استقبلت يومي الثّاني. هذا إذا لم يكن الثّالث أو الرّابع. كانت بداية سيّئة لأنّ هاجساً سيطر عليَّ وخلّف لديَّ حيرة مقيتة متعلّقة بمصير الخرفان. لقد كان بينها خرفان صغيرة وأتساءل إن كانت قد وصلت إلى مرعى هزيل أو ما إذا كانت قد سقطت بجماجم محطّمة تحت ضربات الفأس وسط كومة من السّيقان النّحيفة. في البداية على رُكَبِها ثمّ على جوانبها الصّوفيّة. لكن للمشاغل الصّغيرة مزاياها أيضاً. إلهي ما هذا البلد الرّيفي.

ذوات الأربع في كلّ مكان. ليس هذا فقط بل هناك الماعز والأحصنة على سبيل الذكر لا الحصر. أشعر بأنّها تراقبني لتعيقني عن مواصلة الطّريق. لا حاجة لي بذلك. لكنّي لن أغفل عن الهدف من وراء الجهد الفوري الذي أقوم به. الالتحاق بأمّي في أسرع وقت ممكن. ودون أن أخسر لحظة واحدة وقفت في الخندق ودعوتُ لنجدتي كلّ الأسباب التي تجعلني أمضي في رحلة للّحاق بأمّي. وحتّى لو كنتُ قادراً على فعل ذلك دون تفكير طويل، لأنّي لا أعرف الأمر إلّا بعد قيامي به، فإنّ ذهابي إلى أمّي لا يُعَدّ ضمن قائمة اهتماماتي. لاحظوا أنّ قدميّ تقوداني أبداً إلى أمّي دون أن يصدح في رأسي إنذار من الأعلى في هذا الشأن. أوقاتٌ لذيذة. لا شكّ في أنّها كذلك في نظر أيّ كان ما عداي أنا. أنا لا أهنّئ نفسي على القليل من الشّمس بل لأنّي أتجنّبها. الإيجيّ[8] الذي في داخلي المتعطّش للحرارة والنّور أنا أقتله. أقتله منذ الصّباح الباكر. الظلال الشّاحبة للأيّام الممطرة تنسجم أكثر مع مزاجي. لا ليس هذا أيضاً، ليس لديَّ لا ذوق ولا مزاج، لقد فقدتهما منذ زمن. أردتُ القول إنّ الظّلال الشّاحبة إلخ تخفيني بشكل أفضل دون أن أبدو لافتاً بصورة معيّنة. مموِّه رغماً عنه، هذا هو مولوي من زاوية ما. وخلال الشّتاء أتحصّن بمعطفي المحشوّ بقصاصات من أوراق الصّحف ولا ألملم أشلائي إلّا عندما تستيقظ الأرض. الاستيقاظ الحقيقيّ. في أفريل. الملحق الأدبي للتايمز مثاليّ من هذه الناحية. متماسك وغير قابل للاختراق في كلّ الظّروف. الضّراط لا يُمزّقه. ماذا بأيدينا أن نفعل. الغاز يخرج من أعماقي. أنا عند ضرورة التّلميح إلى الأشياء التي ليس لها وزن والتي لها وزن على حدّ السّواء رغم النّفور الذي تُخلّفه لديَّ. في مرّة أحصيتُ عددها. ثلاث مئة وخمس عشرة ضرطة خلال تسع عشرة ساعة. يعني بمعدّل أكثر من ستّ عشرة ضرطة في السّاعة. في النّهاية هذا ليس مهولاً. أربع ضرطات كلّ ربع ساعة. لا يُعدّ هذا شيئاً. أقلّ من ضرطة كلّ أربع دقائق. أمر لا يُصدّق.

8- نسبة إلى سكان ساحل بحر إيجة.

لستُ سوى ضرّاط صغير. لقد أخطأت في التّعريج على الموضوع. شيء خارق بالفعل أن تساعدك الرياضيّات على معرفة نفسك. أصلاً مسألة المناخ هذه لا تعنيني فأنا أتأقلم مع كلّ الصّلصات. تجدر الإشارة فقط إلى أنّ الشّمس تشرق خلال الصّباح حتّى العاشرة إلى العاشرة والنّصف. في تلك الفترة السّحبُ تغشى السّماءَ وينزل المطر إلى غاية المساء. عندها تطلّ الشّمس وتغرب. والأرض المبتلّة تأتلق وتنطفئ بسبب خفوت الضّياء. هأنذا فوق السّرج من جديد. وفي قلبي المخبول قلق مريض سرطان مضطر لدخول عيادة طبيب الأسنان. لأنّي أجهل إن كنتُ أسلك الطّريق الصحيحة، نادراً جدّاً ما تكون الطّرق ملائمة لي. لكن إذا تعلّق الأمر بالذّهاب إلى أمّي فإنّ طريقاً واحدة تؤدّي إليها أو واحدة فقط من بين الطّرق تؤدّي إليها. أبداً جميعها. أجهل إن كنت أسلك إحدى الطّرق المؤدية إليها وهذا يزعجني كما هو شأن الدّعوات إلى الحياة. لكم بعد كلّ هذا أن تتخيّلوا مدى ارتياحي وأنا أرى على بعد مئة متر حِمَى عائلتي. مع اجتيازي لها وجدت نفسي في حيّ غريب عنّي أنا الذي يعرف المدينة جيّداً. إنّها المدينة التي ولدت فيها والتي لم أبتعد أكثر من خمسة عشر أو عشرين ميلاً لهول ما تمارسه عليَّ من جاذبيّة لا أجد لها تفسيراً. لم أتمالك نفسي من التّساؤل إن كنت حقّاً في مدينتي التي وهبتني اللّيل والتي تؤوي أمّي في مكان ما أو أنّي أخطأت السّبيل فوقعت على مدينة أجهل عنها حتّى الاسم. لم يسبق أن وطئت قدمي مدينة أخرى عدا مدينتي التي ولدت فيها. هذا لا يعني أنّي لم أقرأ – حين كنتُ أجيد القراءة – قصص سفر كتبها مسافرون أوفر منّي حظّاً تتحدّث عن مدن أجمل من مدينتي، أجمل دائماً حتّى في ظلّ انعدام وجوه للمقارنة. هذه المدينة التي لم يتح لي أن أعرف اسم واحدة غيرها، أجدني أبحث عن اسمها في ذاكرتي. ليس لديَّ من نيّة أخرى في حال عثرت عليه سوى أن أوقف أحد المارّة قائلاً بهيئة مكشوفة، المعذرة هل هذه هي «س»، و«س» يمثّل اسم مدينتي. يُخيّل إليَّ دائماً أنّها تبدأ بحرف «ب» أو «پ». بالرّغم من هذا المؤشّر أو ربّما بسبب عدم صحّته فإنّ بقيّة الأحرف تاهت عنّي. مضى

عهد طويل وأنا أعيش بعيداً عن الكلمات. تفهمون. إذ يكفي أن أرى مدينتي مثلاً – لأنّها مدينتي في آخر المطاف – كي أتمكّن من... تفهمون. يتعذّر علَيَّ قول ذلك. هذا شبيه بشخصيّتي التي كانت في الغالب نكرة بشكل يصعب اختراقه. تعرّضنا إلى ذلك من قبل أظنّ. وهكذا بالنّسبة إلى بقيّة الأشياء التي يتشوّش لها عقلي. نعم. حتّى في تلك الفترة حيث كانت الأمور تتلاءم، موجات وجزيئات، فإنّ أصل الأشياء أنّها دون اسم والعكس صحيح. أذكر ذلك لكن ماذا أعلم الآن عن تلك الفترة. الآن وقد نزلت علَيَّ الكلمات ذات المعنى المتجمّد ومات العالم أيضاً بجبن مشوب بثقل رهيب. أعرف على الأقلّ ما تعرفه الكلمات والأشياء الميّتة وهذا مكسب في حدّ ذاته. بدايةٌ ووسط وخاتمة كما في الجمل المسبوكة جيّداً وفي سوناتا الجثث. أن أقول هذا أو ذاك أمر لا أهمّية له فعلاً. أن تقول هو أن تخلق. الغثّ والسمين. نحن لا نبتكر شيئاً جديداً. نعتقد أنّنا نفعل. أنّنا هربنا. نحن فقط نتمتم بدروسنا. كلامٌ حفظناه ونسيناه. نبكي على طريقتنا حياةً بلا دموع. ثمّ تبّاً. لِنَرَ. لمّا تأكّدت أنّي لن أنجح في تذكر اسم مدينتي قرّرتُ التوقّف على حافّة الرّصيف وانتظار عابر ظريف له هيئة مؤدّبة. أرفع قبّعتي وأسأله، ما اسم هذه المدينة من فضلك؟ لأنّه حالما يسقط الاسم سأعرف حالاً إن كان ما أبحث عنه أم لا. وهكذا أكون قد حسمت. حظّ عاثر غامض أعاق مضيَّ في القرار الذي اتّخذته للتوّ. في الواقع هكذا يحدث معي دائماً. ما إن أتّخذ قراراً حتّى يحدث طارئ يفسد علَيَّ تنفيذه. هذا ما يفسّر تعطّل قراراتي مقارنة بالفترة التي كنتُ فيها قادراً على الكلام والتي بدورها كانت أسوأ قليلاً من التي سبقتها. لكن في الحقيقة (في الحقيقة !) لم أقرّر شيئاً بشكل خاصّ فيما يتعلّق بالمواضيع التي تحتاج إلى قرارات. كنت دائماً أنغمس في الخراء دون علم بمن خرئَ على من أو من هو الجانب الأصلح لي بينهما. وحتّى هذا القرار لم ينجح في منحي الرّضا. وإن لم أشفَ تماماً من ذلك فهذا ليس لأنّي لم أشأ. يبدو أنّ واقع الأمر هو أنّنا لا نملك إلّا أن نتمنّى لنهاياتنا أن تكون مثلما كانت البداية. ولو بمقدار أقلّ. لم أكن بعدُ قد وضعتُ

الخطّة في رأسي. لاحقاً انتبهت إلى أنّي صدمتُ كلباً بقوّة. انتبهتُ لاحقاً. سقطتُ على الأرض بصفاقة لا تُغتفر. أكبرَ بكثير من كونهم أخلوا سبيل الكلب. وبدل البقاء على العتبة انطلق صوب الرّصيف المقابل لينطّ حول سيّدته. الاحتياطات كالقرارات تماماً، يجب التعامل معها بحيطة. لا بُدَّ أنّها السيّدة. تظنّ أنّها لم تترك شيئاً للصّدفة فيما يتعلّق بسلامة كلبها في حين إنّها لم تفعل شيئاً سوى تحدّي الطّبيعة برمّتها. مثلي أنا ونواياي المجنونة لتوضيح الأمور. وعوض أن أزحف بدوري مستغلّاً تقدّمي في السنّ وإعاقتي أزّمت الأمور بمحاولتي الهرب. ثمّ سرعان ما تمّت ملاحقتي من قبل حقوقيّين من الجنسين ومن كلّ الأعمار. فقد لاحظتُ لِحًى بيضاء وزغباً بريئاً تقريباً. كادوا فعلاً يشرعون في طحني لمّا تدخّلت السيّدة. قالت بنبرة جوهريّة، أخبرتني بها لاحقاً وصدّقتها، اتركوا هذا الشّيخ وشأنه. لقد قتل «تيدي». إنّها مسألة منتظرة. أحبّ «تيدي» كطفلي لكنّ المسألة ليست خطيرة كما قد يبدو. لأنّي فعلاً كنتُ في طريقي لأخذه إلى البيطري لينهي معاناته فـ «تيدي» عجوز أعمى وأطرش ومُدمّر بالروماتيزم ويفعلها تحته في كلّ الأوقات ليلاً نهاراً سواءً في المنزل أم في الحديقة. هذا الشّيخ المسكين جنّبني مصاريف لا يتحمّلها موردي الوحيد، جراية الحرب التي تركها لي الرّاحل. مات لأجل الوطن الذي يقول إنّه وطنه والذي لم يمنحه امتيازاً واحداً خلال حياته ما عدا المواجهات والعصيّ في العجلات. تفرّق الحشد لكن السيّدة واصلت، حسناً ستقولون إنّه أخطأ بمحاولته الفرار. صحيح. لكن مؤكّد أنّكم لاحظتم غياب عقله وأنّه لا يملك السّيطرة على نفسه لأسباب نجهلها وربّما من الخجل لنا جميعاً معرفتها. أتساءل إن كان يعي تماماً ما أقدم عليه. يفوح من كلامها الضّجر إلى درجة أنّي تأهّبت لمواصلة طريقي، عندها برز لي شرطيّ المدينة المحتوم. ضرب بثقل على المقود بقائمته المشعرة الحمراء. لاحظتُ ذلك بنفسي وكان له فيما يبدو الحوار التّالي مع السيّدة، لقد سحق كلبك أليس كذلك؟ هذا صحيح أيّها الضابط وماذا بعد؟ لا يمكنني أن أستمرّ في نقل هذه المبادلات الحمقاء، سأقول فقط

إنّ ضابط المدينة قد أخلى المكان هو أيضاً. لم يكن صوته قويّاً وهو يدمدم بآخر كلماته قبل أن يرحل متبوعاً ببقيّة السذّج الذين لم يعد لديهم أمل في أن تنقلب الأحوال على رأسي بشكل كارثيّ. التفت فقط قائلاً، ارفعي كلبك حالاً. اتّخذتُ وضعيّة المغادرة لمّا أحسستُ أنّي حُرّ. لكنّ المرأة، السيّدة «لوي». يجب أن أذكر ذلك الآن. أو «لوس» لم أعد أعرف. اسم من نوع «صوفي»، شدّتني من ذيلي، وقالت كما لو أنّها تكرّر على مسامعي جملة نطقت بها، أيّها السيّد أحتاج إليك. وبسبب تعبير وجهي الذي دون شكّ خانني فبدا لاإراديّاً أنّي فهمتُ ما تعنيه، فإنّ المرأة قالت، ما دام فهم هذا فلا بُدَّ أنّه سيفهم البقيّة. لم تكن مخطئة، ففي غضون لحظات وجدت نفسي أمتلك أفكاراً ووجهات نظر أوحت لي بها السيّدة. على غرار ما دمتُ قتلتُ كلبها من واجبي أن أساعدها على حمله إلى البيت ودفنه. إنّنا لا نفعل دائماً ما لا نحبّ أن نفعل. أبدو في نظرها لطيفاً رغم هيئتي الدميمة. ستتسلّى بإسعافي ولا أدري ماذا أيضاً. أوه نعم. يبدو أنّي أحتاج إليها أيضاً. هي في حاجة إليّ كي أساعدها على مواراة كلبها التّراب وأنا في حاجة إليها لا أدري لأيّ سبب. من واجبها هي دون غيرها أن تطلعني عليه. لأنّه تلميح لا يمكنني أن أغضّ عنهُ الطّرف باحتشام كما فعلتُ مع البقيّة. لا حرج لديَّ في أن أقول لها بأنّي لستُ في حاجة لا إليها ولا إلى أيّ أحد آخر. ربّما بالغتُ لأنّي أحتاج إلى أمّي. وإلّا لِمَ أجتهد للوصول إليها. لعلّه واحد من بين الأسباب التي أجتنب الخوض فيها قدر الإمكان. فأنا أفصح دائماً أو كثيراً أو قليلاً جدّاً ما يؤلمني لشدّة هوسي بالحقيقة. لن أغيّر هذا الموضوع الذي لا شيء يضمن لي أن تُتاح لي فرصة الخوض فيه مجدّداً بسبب الغيوم التي ما تنفكّ تتلبّد، إلّا عندما أشير إلى أنّي أحياناً في الفترة التي كنتُ فيها أتكلّم، كنتُ أتحدّث كثيراً ظنّاً منّي أنّي أتحدّث قليلاً جدّاً. وأتحدّث قليلاً جدّاً ظنّاً منّي أنّي أتحدّث كثيراً جدّاً. أريد القول إنّه بفضل التّفكير أو الأحرى مع مرور الوقت اتّضح أنّ إفراطي في التحوّل هو انعدام كلّي له والعكس صحيح. انقلاب غريب لا شيء يعالجه غير الزّمن أليس كذلك. بعبارة أخرى مهما كان

شكل ما أقوله فهو إمّا غير كافٍ أو بالكاد يكفي. حسناً لم أكن أصمت البتّة. مهما قلت وكيفما قلته لم أكن أصمت. يا له من تحليل إلهيّ. أرجو أن يساعدكم على معرفة أنفسكم ويكون لكم منطلقاً لمعرفة أبناء نوعكم إن كنتم تعرفون من بينهم البعض. وحين أقول إنّي لا أحتاج إلى أحد فلا أُعتبر قد قلتُ الكثير بل جزءاً متناهياً في الصّغر ممّا يجدر قوله. ممّا أجيد قوله. ممّا يجدر كتمانه. في حاجة إلى أمّي. نعم، أبداً لا يوصف انعدام الحاجة وأنا أهلك. أعني أنّه كان عليها إخباري بالأسباب التي تجعلني في حاجة إليها. عدتُ للحديث عن «صوفي». كان عليها القيام بذلك بما أنّي سمحتُ لنفسي بمقارعتها في هذا الشّأن. لو شقيتُ لتوصّلتُ إليها بلا شكّ. لكن الشقاء. آه شكراً لستُ ممن يشتري الشّقاء. لقد ضقتُ ذرعاً بهذا الشّارع. لا بُدَّ أنّه شارع نظراً إلى أولئك المستقيمين الذين يمرّون. والذين يترقّبون وتلك الأقدام والأيدي التي تعتصر وتحمل وتحذر الارتطام بأيّ شيء، وتلك الأفواه التي لا تجرؤ على الصّراخ إلّا بتعقّل وهذه السّماء التي تنزف متعبة من بقائها في الخارج مُحاصرة ومرئيّة. أحدهم حرّك الكلب بطرف عكّازه. كان كلباً أصفر تماماً. لقيط بلا شكّ. وإن كنتُ أفرّق بصعوبة بين كلب ابن حرام وكلب من سلالة عريقة. لا بُدَّ أنّه تألّم في موته أقلّ ممّا تألمت أنا جرّاء السّقوط. ثمّ إنّه ميّت الآن. وضعناه فوق السّرج. وذهبنا به لا أدري كيف، يُساعد أحدنا الآخر على إبقاء الجثّة متّزنة، أتصوّر. كان علينا اقتياد الدرّاجة والتقدّم بأنفسنا وسط الحشد السّاخر. منزل «صوفي». لا. لا أقدر على مناداتها بهذا الاسم. سأحاول مناداتها «لوس». «لوس» ببساطة. منزل «لوس» لم يكن بعيداً. أوه لم يكن قريباً على أيّ حال. لدى وصولي إليها نلتُ حسابي. نعتقد فقط أنّنا ننال حسابنا. إنّما يندر أن يحدث معنا ذلك حقّاً. لم أنل حسابي لعلمي بأنّي وصلت. لو أنّي قطعتُ ميلاً آخر لنلتُ حسابي بعد ساعة. ها نحن ذا. هل علَيَّ أن أصف المنزل؟ لا أظن. لن أفعل شيئاً. هذا كلّ ما أعرفه في الوقت الحاضر. ربّما لاحقاً ورويداً وأنا أكتشفه. و«لوس»؟ يصعب أن نقطع. لنعجّل بدفن الكلب أوّلاً. هي من حفرت تحت

الشّجرة. عادة يدفن النّاس كلابهم تحت شجرة. لا أفهم لماذا. أقصد لديَّ تفسيري الخاصّ بي في هذا الشّأن. هي التي حفرت مع أنّي أنا الرّجل. إنّها ساقي. ربّما أمكنني أن أحفر بمجرفة لكن بواسطة رفش فلا. بالرّفش هناك ساق تتحمّل الثّقل والأخرى تُطوى وتتمدّد كي تغرزه في عمق الأرض. في حين إنّ ساقي المريضة، لا أدري أيّهما، لا يهمّ. لم يكن في وسعها أن تضغط على الرّفش لأنّها قاسية ولا أن تصلح لي دعامة لأنّها كانت ستتهاوى. في الواقع أنا لا أملك سوى ساق واحدة. معنويّاً كنتُ دائماً وأبداً أحاديّ السّاق. كان سيسعدني أكثر لو أنّهم بتروا لي ساقي من أصل الفخذ. وقطعوا لي بالمناسبة إحدى الخصيتين. كنتُ سأصير أكثر خفّة. ولم أكن لأحتجّ بتاتاً. لأنّ خصيتي تتأرجحان حتّى منتصف فخذي متدلّيتان من حبل هزيل. لم يكن هناك فائدة من هذه الإشارة التي لا أودّ أن تكون لي من ورائها فائدة. بالعكس كنتُ دائماً أرغب في أن تختفي خصيتاي. إنّهما الشّاهدتان الوحيدتان الأقدمان على رحلتي الطّويلة. ستّهماني بأنّي خدعتهما، وستشكراني من أعماق كيسهما المفطّس. اليمنى متدلّية أكثر من اليسرى أو العكس. لم أعد أعرف شيئاً عن إخوة السّرك. الأخطر هو أنّهما تعيقاني أثناء السير والجلوس كما لو أنّ ساقي المريضة وحدها لا تكفي. وعند ركوبي الدرّاجة تتأرجحان في كلّ مكان. كان إذن من مصلحتي التخلّص منهما. تكفّلت بإزالتهما بنفسي بواسطة سكّين أو جزّازة أغصان. هل كان خوفاً لمّا رحتُ أرتجف لشدّة الوجع الجسمانيّ والجروح المتعفّنة. قضيت حياتي خائفاً من الجروح المتعفّنة. أنا الذي يُفترض أنّ شيئاً لا يعفّنني لأنّي كنتُ دائماً حامضاً. حياتي. حياتي. أحياناً أتحدّث عنها كمهزلة مستمرّة إلى الآن. أخطئ دائماً لأنّها انتهت وهي مستمرّة في آنٍ. لكن مهلاً. في أيّ زمن وجب تصريف الأفعال ذات الصّلة؟ أيّتها الساعة التي تتقدّم. الساعاتي يدفن كثيرين قبل موته. يا صاحبة الدّواليب اللّولبيّة. التي ستروي يوماً أشياء عن الربّ على نمط الشّعر. لكن في قرارة نفسي يجب أن أكون متعلّقاً بكُرتَي الفشار تلك، أن يشدّني الأثر الذي تركاه تماماً

كألبوم صور جدّتي. على كلّ لم تكونا هما من حال دوني ودون الحفر. كانت «لوس» هي التي تحفر فيما أنا أحمل الكلب بين ذراعَيّ. كان ثقيلاً وبارداً لكنّه لم يكن قد بدأ ينتن بعد. رائحته كريهة، لكن كريهة لأنّه كلب هرم لا لأنّه نفق. ربّما في المكان نفسه حفر هو أيضاً من قبل. دفنّاه كما هو دون صندوق أو لفّة من أيّ نوع كأيّ أخضر مُصفرّ بسلسلته وطوقه. هي من وضعه في الحفرة. أنا لا يسعني أن أنحني أو أركع بسبب عجزي، ولنفرض أنّ هذا حدث ناسياً ظرفي مثلاً، فلا تُصدّقوا شيئاً. لا يمكن أن يكون أنا. لا بُدَّ أنّه شخص آخر. لا يسعني سوى رميه في الحفرة. بكلّ سرور كنتُ سأقوم بتلك المهّمة. غير أنّي لم أفعل. هناك أمور خالية من الحماس نتطوّع عن طيب خاطر للقيام بها، ولا شيء في الظّاهر يعيق قيامنا بها لكن مع ذلك لا نفعل. هل سنتحرّر؟ للتثبّت. لكن ما هي مساهمتي في عمليّة الدّفن تلك؟ هي من أنجزت الحفرة وهي من وضعت الكلب داخلها وهي من طمرتها بعد ذلك. كنتُ فقط حاضراً. ساهمتُ بحضوري كما لو كان موكب دفني. وهو كذلك فعلاً. كانت شجرة صنوبر. إنّها الشّجرة الوحيدة التي أميّزها. أمر عجيب أن تختار لدفن كلبها الشّجرة الوحيدة التي أميّزها متأكّداً تماماً. الإبر الخضراء المرتوية توحي بأنّها من حرير مرصّع بنقاط صغيرة حمراء فيما بدا لي. كان هناك قراد تحت أذنَي الكلب. عيناي مدرّبتان على التقاط أشياء كهذه. دُفنتُ معه. عندما انتهت من الحفر ناولتني الرّفش وتراجعت. ظننتها ستبكي. حانت لحظته. لكنّها على العكس ضحكت. ربّما كانت تلك طريقتها في البكاء. أو ربّما أخطأت التقدير فلعلّها تبكي فعلاً بصوت يشبه القهقهة. لستُ جيّداً في مجال البكاء والضّحك. لن ترى «تيدي» الذي أحبّته كطفل. أتساءل إن كان لديها نيّة دفن كلبها لِمَ لمْ تستدعِ البيطريّ ليعدمه على عين المكان. هل كانت حقّاً في طريقها إليه عندما اعترضت سبيلي؟ أم إنّها ادعت ذلك فقط كي تخفّف من شعوري بالذّنب. العيادة في البيت تكلّف أكثر بطبيعة الحال. في الصّالون قدّمت لي أكلاً وشراباً. مؤكّد أنّهما جيّدان. للأسف لا أحبّ المأكولات الجيّدة كثيراً. لكنّي تخمّرت

عن طيب خاطر. ربّما كانت تعيش في ضيق، لكن هذا لا يُلاحظ. أحسستُ به فوراً. لمّا انتبهتْ إلى عسر عمليّة الجلوس لدَيَّ قرّبت منّي كرسيّاً أضع عليه ساقي القاسية. وهي تخدمني كانت تروي لي حكايات لم أفهم واحداً بالمئة منها. نزعت عنّي قبّعتي. أخذتْها لتعلّقها من رباطها دون شكّ. وبدت مندهشة حين خيّب الرّباط حماسها. كان لديها ببغاء جميل جدّاً. كلّ الألوان المحبّذة كانت فيه. فهمته أكثر من سيّدته. لا أقول إنّي فهمته أكثر ممّا تفهمه هي، بل أقول إنّي أفهمه أكثر ممّا أفهمها هي. كان يردّد من حين إلى آخر، عاهرة الخراء الغبيّة. لا بُدَّ أنّه انتمى إلى عائلة فرنسيّة قبل أن يؤول إلى «لوس». تُغيّر الحيوانات المالك. لا يقول أشياء أخرى. بلى. يقول أحياناً، تبّاً! لا يمكن أن يكون من علّمه العبارة فرنسيّاً. تبّاً! ربّما توصّل إليها وحده. لا أستغرب. «لوس» تحاول أن تلقّنه كلمة «بريتي بولي». أظنّ أنّه قد فات الأوان. كان يسمعها مائل الرّأس. ثمّ يقول، عاهرة الخراء الغبيّة. يُلاحَظ أنّه يقوم بمجهود. ستقوم بدفنه هو أيضاً يوماً ما. في قفصه ربّما. أنا أيضاً لو بقيت معها لدفنتني. لو حصلت على عنوانها سأكتب إليها بأن تأتي لدفني. نِمتُ. أفقتُ عارياً في فراش. لقد تهوّرتْ إلى درجة أنّها قامت بتنظيفي. الرّوائح التي تنبعث منّي تشي بذلك. اتّجهت نحو الباب. مقفل بالمفتاح. ثمّ نحو النّافذة. مُشبّكة. لم يكن اللّيل قد حلّ تماماً. ماذا يبقى كي يجرّب المرءُ بعد الباب والنّافذة؟ المدخنة ربّما. بحثت عن ملابسي. عثرت على محوّل فأدرته. دون فائدة. أيّ حكاية هذه! مع ذلك بقيت في المجمل غير مكترث. وجدت عكّازيّ متكئين على الكنبة. سيبدو عجيباً كوني قمت بكلّ تلك الحركات دون مساعدتهما. أجد هذا غريباً. عادة لا نتذكّر فوراً من نحن حالما نستيقظ. فوق الكرسيّ وجدتُ زهريّة ليل[9]، في داخلها منديل ورقيّ. لم يُترك شيء للصدفة. أنقل تلك اللّحظات بكثير من التفاصيل الدقيقة لأنّ هذا سيفرّج عنّي ما سيأتي. أشعر بذلك. قرّبت كرسيّاً من الكنبة. جلست على

9- زهريّة الليل: استعمل مولوي هذه العبارة تعبيراً عن السهّارة.

هذا وأرحتُ ساقي على ذاك. الغرفة كانت مختنقة بالكراسي والكنبات. يحومون حولي في الظلام. كان هناك أيضاً موائد ومقاعد وخزانات. مهملة. إحساس غريب بالاكتظاظ يتلاشى مع النهار خصوصاً وأنّ الثريّا كانت مضاءة. فقد شغّلتُ الموصل وتركته هكذا. تنقصني شعرات في وجهي. انتبهتُ إلى ذلك وأنا أتحسّس وجهي بيد قلقة. لقد حُلق وجهي واقتُلع اللّجام الذي كانت تشكلّه لحيتي. كيف استطاع نومي أن يقاوم كلّ هذه الألفة. نومي خفيف عادة. بعض الإجابات تخطر في هذا الصّمت. لكنّي أجهل أيّها صحيح. ربما كانت جميعها سيّئة. لحيتي لا تنبت سوى في الذقن والرّقبة. في الأماكن التي ينبت فيها شعر لدى آخرين لا ينبت لي شيء إطلاقاً. لقد قُلّمت لحيتي كما هي وربّما صُبغت أيضاً، لا شيء يُثبت العكس أو ينفيه. ظننتُ أنّي عارٍ في الكنبة والحقيقة هي أنّي أرتدي قميص نوم خفيف جدّاً. ينبغي أن يخبروني بأنّهم سيقدّمونني أضحية عند الفجر كي يبدو الأمر في نظري طبيعيّاً. كم نحن حمقى. خمّنتُ أيضاً أنّهم عطّروني بالخزامى ربّما. معرفتي بالعطور متواضعة. قلتُ في نفسي ماذا لو أنّ أمك رأتك في هذه الهيئة. أحبّ المعادلات ما يكفي. بدت لي أمّي بعيدة. بعيدة عنّي. الغريب هو أنّي أقرب إليها من اللّيلة السابقة إذا صدقت حساباتي. بقي هل هي حقّاً صائبة حساباتي؟ أمّا إن كنت في مدينة أخرى لا توجد فيها أمّي فهذا يعني أنّي خسرت الأرض. لا بُدَّ أنّي نمتُ فقد ظهر قمر ضخم من خلال النّافذة. قضيبان يقسمانه إلى ثلاثة أجزاء. الجزء الأوسط ظلّ محافظاً على صورته فيما الجزء الأيمن راح يتقدّم على حساب الأيسر. القمر يتحرّك من اليسار إلى اليمين أو أنّ الغرفة تتحرّك من اليمين إلى اليسار. أو الاثنان يتحرّكان معاً في آنٍ واحد. أو يتحوّلان من اليسار إلى اليمين والغرفة أقلّ سرعة من القمر. أو من اليمين إلى اليسار والقمر أقلّ سرعة من الغرفة. هل يجوز الحديث عن يمين ويسار في ظروف كهذه؟ تحوّلات شديدة التعقيد بصدد الحدوث. هذا مؤكّد لكن مع ذلك كم هو بسيط أن يدخل ضوء أصفر كبير من خلف القضبان مجذّفاً ببطء فيلتهمه الجدار القاتم إلى أن يحجبه تماماً. هكذا ارتسمت

رحلته الهادئة على الجدار في شكل بقع مخططة من الأعلى إلى الأسفل وخلال لحظات ارتجفت بعض الوريقات. إن كانت وريقات. واختفت بدورها تاركة إيّاي في العتمة. كم هو صعب ضبط النّفس أثناء الحديث عن القمر. إنّه أحمق. ينبغي أن يكون دبره هذا الذي يرينا إيّاه طوال الوقت. تجدر الإشارة إلى أنّي كنتُ مهتمّاً بالفلك فيما مضى. لا أحبّ أن أنكر ذلك. ثمّ اهتممتُ بالجيولوجيا التي ساعدتني على تجزية الكثير من الوقت . بعدها بالأنثروبولوجيا التي سبّبت لي القرف مدّة قصيرة وبمجالات أخرى مثل البسيكولوجيا التي كنتُ أتعلّق بها وأصرف النّظر عنها، لأتعلّق بها ثانية كلّما ظهرت فيها اكتشافات جديدة. ما يشدّني إلى الأنثروبولوجيا هو قدرتها على الإنكار وضراوتها في تعريف الإنسان على غرار الربّ أي من النّواحي التي لا يساوي فيها شيئاً. غير أنّي لم أنجح سوى في جمع أفكار مشوّشة مختلطة لمعرفتي المتواضعة بالناس ولجهلي التامّ لما قد يعنيه أن يكون المرء ـــــــــ أووه! لقد جرّبتُ كلّ شيء. في الأخير آل للسّحر شرف الاستقرار تحت أنقاضي. واليوم وأنا أتأمّل، يمكنني التقاط بعض المخلّفات. لكن على الأغلب هو مكان دون شكل أو حدود. غامض حتّى من ناحية الموادّ المستخدمة لبنائه، دون الحديث عن مواضع الأشياء وطريقة ترتيبها. الشّيء المُحطّم لم أستطع تمييز ماهيته. ولا ما الذي كان ولا ما إذا كان له أثرٌ من الأساس، هل كان خليطاً راسخاً بين أشياء خالدة. إن صحّ التعبير. على أيّ حال هو مكان لا سرّ فيه. تخلّى عنه السّحر لأنّه بلا سرّ . وإن كنتُ قد قصدته عن طواعية فمؤكد أنّي قصدته عن طواعية أكثر من مُضيّ إلى مكان آخر. مندهشاً ومطمئناً. أعني كما في الحلم. إنّما أبداً. أبداً. إنّه مكان من النوع الذي تجد نفسك فيه دون أن تدري كيف حدث ذلك. ولا نغادره بمشيئتنا ولا نجد فيه متعة بل بأقلّ انعدام متعة كما هو الشّأن بالنّسبة إلى الأماكن التي نغادرها بشكل مؤلم، تلك الأماكن المأهولة بالأسرار، المؤثّثة بأسرار معروفة. أصغيت فاستمعت إلى نفسي أملي عالماً متجمّداً يفقد اتّزانه تحت وطأة نهار ضعيف هادئ كافٍ ليبصر فيه المرء. تفهمون.

ومتجمّد هو بدوره وسمعت همساً بأنّ كلّ شيء يتقوّس ويعاني كأنّه ينوء بحمل ثقيل. لكن هنا ليس ثمّة أعباء ثقيلة. والأرضية أيضاً غير جديرة كفاية - كالنهار تماماً - بالبلوغ بك إلى نهاية لا يجب أن تكون. إذ أيّ خاتمة للوحدة حيث الصّفاء الوحيد لا يشبه رباطة الجأش بل تلك الأشياء المائلة الزاحفة. بسبب انهيارات لا تنتهي تحت سماوات دون ذاكرة صباحيّة أو أملاً مسائيّاً. تلك الأشياء. أشياء من أين تأتي؟ ممّ صُنِعَت؟ يبدو أن لا شيء يتحرّك هنا ولا هو تحرّك من قبل ولا إمكانيّة ليتحرّك لاحقاً. ما عداي. أنا أيضاً لا أتحرّك دائماً فقط أرى وأظهر أمام نفسي كي تراني. عالم منتهٍ رغم أنّه يبدو خلاف ذلك. نهايته هي التي تحفّزه. النهاية فيه شرط من شروط البداية. واضح؟ أنا أيضاً انتهيتُ منذ دخلته. عيناي مغمضتان. معاناتي توقّفت وانتهيت أنوء بأحمال لا قبل لأيّ حيّ بها. وما زلت أسمع الصّفير البعيد ذاك الذي صمت منذ زمن بعيد وها أنا أخيراً أسمعه. ما زلت أتعلّم منه الكثير. لكنّي لم أعد أسمعه في الوقت الحاضر لأنّي لا أحبّذ هذا الصّغير البعيد بل أخشاه. صوت ليس كالبقيّة نسمعه حين نكون على استعداد لذلك وفي وسعنا أن نخرسه كلما ابتعدنا أو حين نسدّ آذاننا، يصخب، يصخب في الرّأس ولا أحد يعرف كيف أو لماذا. نسمعه بالرّأس، الأذن تعجز عن سماعه. ليس في مستطاعنا إيقافه. يتوقّف بمفرده لو أراد. أن أسمعه أو أن لا أسمعه لا أهميّة لذلك. أنا دائماً في الاستماع إليه والرّعد لن يتركني وشأني إلّا عندما يتوقّف. لا شيء يجبرني على التحدّث في ذلك إلّا إذا أصبح أحد شؤوني وهذا ليس شأني الآن على الأقلّ. ما يهمّني الآن هو أن أنتهي من حكاية القمر هذه التي ظلّت مفتوحة. وإن كان لا بُدَّ أن أنتهي من الأمر بشكل أسوأ ممّا لو كان رأسي كلّه لي فسأبذل قصارى جهدي لأنتهي منه في مجمل الأحوال. بقليل من التّفكير أتوصّل إلى أنّ هذا القمر يملأني بالذّهول، بالدّهشة إن أردتم. نعم رحتُ أفكّر فيه على طريقتي بلا مبالاة، وبرز لي ثانية على نحو ما داخل رأسي فندّ عنّي رعب شديد. لم أتأخّر في القيام باكتشاف ما، بعدما بدا لي أنّ مسألة ظهور القمر تستحقّ أن أحشر

أنفي فيها. اكتشافي أو لنقل ما ظلّ عالقاً في ذاكرتي من اكتشافات هو التالي، هذا القمر الذي مرّ مختالاً خلف نافذتي بالأمس وقبل الأمس والذي قبله رأيته شابّة نحيفة مستلقية على ظهرها كرقاقة. وقلت لنفسي ها قد راق للقمر الجديد أن يقذف بنفسه في دروب مجهولة تؤدّي إلى الجنوب. ألا يعتبر ذلك تأخيراً بالنّسبة إلى رجل ذاهب لرؤية أمّه في الغد. لحسن الحظّ أنّ كلّ شيء يرضخ لمشيئة القديس «روح» كما يُقال. وإذا لم أقرن هذا الظّرف بموضعه فهذا لأنّه من الصّعب الجمع بين الظّرف وموضعه. فقط يجب أن نحسن الاختيار بين الأشياء التي لا تستحقّ الذّكر وبين التي لا تستحقّ الذكر بصورة أقلّ حدّة. لأنّنا إذا أردنا الإشارة إلى كلّ شيء فلن نخلص أبداً إلى نتيجة، وهنا بالضّبط تكمن المعادلة، أن ننهيَ أمراً أو أن ننتهي منه. أوه! أعلم ذلك جيّداً. حتّى لو ذكرنا بعض الظّروف الحاليّة وليس كلّها لن أنتهي أكثر فأكثر! لكن على الأقلّ نكون قد غيّرنا الغائط، أن نقتفي غائطاً أبعد قليلاً من وقت إلى آخر، وإن تشابه الغائط وهو أمر مستبعد، لا مشكلة بالعكس أمر جيّد أن نغيّر الغائط. أن نرحل كما لو أنّنا عابرون. وماذا لو أخطأنا، ونخطئ. أقصد ونحن ننقل ظروفاً كان من الأفضل كتمانها ونسكت عن البعض الآخر للعلّة نفسها لكن دون سبب كما هو الشّأن بالنّسبة إلى هذا القمر الجديد. إنّها أشياء تحدث عادة بنيّة طيّبة، بنيّة ممتازة. هل مرّ إذن بين ليلة الجبل، ليلة لصوصي وبين وما أنا فيه وقتٌ أكثر ممّا افترضتُ، خمسة عشر يوماً تامّاً أو تقريباً. في هذه الحال، ماذا حصل للخمسة عشر يوماً التامّة أو تقريباً وفيمَ انقضت؟ وكيف مهما كان مضمونها أن أطرح إمكانيّة إدراجها في التسلسل المعقّد للأحداث التي أرويها؟ ألا تكمن مصلحتي في أن يكون القمر الذي رأيته يومين إلى الوراء ليس قمراً جديداً كما ظننتُ أو أن يكون القمر الذي شاهدتُه من منزل «لوس» أبعد ما يكون على الاكتمال كما بدت لي الأمور، وأنّها لم تعكس في الحقيقة سوى الرّبع أو - أخيراً - هما قمران في الواقع بعيدان واحدٌ جديد وآخر مكتمل، يتشابهان من حيث دائريّتهما إلى درجة أنّ العين تجد صعوبة في رصد الفرق بينهما وأنّ كلّ ما يخرج

عن هذه الفرضيات هو دخان ومجرّد أوهام. عموماً بفضل هذه الاعتبارات تهدأ نفسي وأجد الطمأنينة الروحية التي تساوي ما تساويه في مواجهة أذى الطبيعة. وعاودني أنّ النوم هو الذي سيطر فعلاً وأنّ لياليّ كانت دون قمر وأنّ القمر لم يكن له أيّ دخل في لياليّ، حتّى إنّ ذلك القمر الذي رأيته يتسكّع من خلال النافذة أحالني على ليالٍ أخرى، على أقمار أخرى وأنّني لم أره فعلاً. كنتُ نسيتُ من أنا (كلّ الأسباب وجيهة) وربّما تحدّثت عن نفسي كما كنت سأفعل وأنا أتحدّث عن غيري. يحصل لي هذا وسيحصل لي لاحقاً أن أنسى من أكون، وأن أمضي في الأحداث كما لو أنّي أراقب نفسي بعينَيْ غريب. أرى السّماء مختلفة إذن عمّا هي عليه والأرض أيضاً مكسوّة بألوان غير ألوانها. يبدو أنّ ما أنا فيه نقاهة، لكن لا شيء من هذا يحصل. مسروراً أنصهر في نور الآخرين، ذاك الذي كان يوماً لي. لا أقدر. عندما يحلّ الغياب يجب أن تكون هناك عودة. هذا كلّ ما أعرفه. البقاء لن يكون ملائماً. المغادرة أيضاً. في اليوم الموالي طلبت ملابسي، راح الخادم يذيع الخبر وعاد بخبر يقول إنّ ملابسي أُحرقت. تابعتُ تأمّل الغرفة. كانت دون تدقيق مكعّباً مثالياً. عبر النّافذة العالية، لمحت أغصاناً. كانت تميل بلطف لكن ليس في كلّ الأوقات. ارتعاش مباغت فقط من حين إلى آخر. الثريّا كانت تضيء، لاحظت. ملابسي، قلت، عكّازيّ. نسيتُ أنّهما كانا مسندين إلى الكنبة. غادر الغرفة هذه المرّة تاركاً الباب مفتوحاً. من فرجة الباب رأيتُ نافذة أكبر من باب مظلم يفضي إلى كلّ الاتّجاهات. عاد الخادم وقال لي إنّ ملابسي أُرسلت إلى المصبغة لتُلمّع. حمل إليّ عكّازيّ، يُفترض أن يثير ذلك استغرابي، لكن على العكس بدا لي طبيعيّاً. أخذت واحدة ورحت أضرب الأثاث، ليس بقوّة. فقط ما يكفي لقلبه دون إلحاق الأذى به. عددها نقص مقارنة باللّيلة الماضية. في الواقع كنت أدفعها أكثر ممّا كنتُ أضربها. كانت مجرّد طعنات بالسيف وضربات جزم ما سدّدتُ إليها. وطبعاً هذا لا يعني أنّ ما كنت أفعله يسمّى زحزحة رغم أنّه أقرب إلى الزحزحة منه إلى الضرب. لكن لمّا تذكّرتُ من أنا ألقيت بالعكّاز فوراً. تجمّدت وسط الغرفة وقرّرت

أن لا أطلب شيئاً وأن أتوقّف عن التظاهر بالحنق. لأنه إن أردت ملابسي وأؤمن حقّاً أنّي أريد ملابسي ليس هذا سبباً لأنقلب غاضباً لو رفضوا طلبي. عندما وجدت نفسي بمفردتي ثانية استأنفت تأمّل الغرفة وكنت بالفعل قد أوشكت على العثور على ممتلكات أخرى حين دخل الخادم. قال إنّ ملابسي في طريقها إليّ. وانهمك في ترتيب الأثاث المقلوب وإعادته إلى مكانه وهو ينظّفها في الوقت نفسه بمنفضة ريش تكوّنت في يده فجأة. ثمّ سرعان ما تدخّلتُ لمساعدته بكلّ ما أوتيتُ من قدرة لأبيّن بأنّي لستُ غاضباً من أحد. وما عجزي عن القيام بأشياء كثيرة إلاّ بسبب ساقي القاسية، وأنّ هذا لا يمنعني من تقديم المساعدة ما أمكنني. كنتُ أسارع كالمخبول خطوة بخطوة معه إلى إعادة الأثاث إلى مكانه بدقّة متناهية. ثمّ أعقد ذراعيَّ خلف ظهري لأجل جودة التقييم وأثب لأدخل تغييرات غير محسوسة. ثمّ وأنا أجمع أجزاء قميص النّوم، سدّدت للأثاث ضربات حيويّة هذه المرة. بعد ذلك الاستعراض الذي لم أقدر على مقاومته جمدتُ فجأة وسط الغرفة. لكن لمّا تكهّنتُ أنّ الخادم يستعد للمغادرة اقتربتُ منه وقلتُ، درّاجتي. لبثتُ أعيد الجملة إلى أن أعطاني مؤشّراً بأنّه فهمني. هذا الخادم الشّامخ ذو العمر غير القابل للتحديد لا أدري إلى أيّ سلالة ينتمي. لم يكن ينتمي إلى البيض على كلّ حال. كان شرقيّاً ربّما. أمر مبهم. شرقيّ. طفل من الشّرق. يرتدي سروالاً أبيض وقميصاً أبيض وصداراً أصفر كأنّه غزال بأقفال ذهبيّة وصنادل. من النّادر أن أعي بما يرتديه الناس بهذا الصّفاء، وأنا سعيد لكوني قادراً على تعميم الفائدة. هذا يُفَسّرُ، فطيلة الصّباح والمسائل كلّها متعلّقة بالملابس. ملابسي. وقلتُ لنفسي على نحو متسامح، انظروا إلى هذا السيّد المطمئنّ داخل ملابسه في حين أرفل أنا داخل قميص نوم غريب عنّي. ربّما هو لامرأة فقد كان ورديّاً وشفّافاً ومزخرفاً بالشّرائط والطيّات والدانتيل. على العكس لم أكن قادراً على التمعّن في الغرفة بشكل جيّد. في كلّ مرة أستأنف فيها التأمّل تبدو لي قد تغيّرت وهذا يُسمّى سوء النّظر فيما توصّل إليه العلم إلى حدّ اليوم. الأغصان أيضاً بدا لي أنّها غيّرت مكانها. كأنّها

خُصّت بسرعة مداريّة. والنافذة الكبيرة المظلمة لم تكن الباب الثابت الذي يُفضي إلى كلّ الاتجاهات. فقد تحرّك نحو اليمين أو نحو الشمال لا أدري. بصورة تجعله يستقبل داخل إطاره جزءاً من الحائط الأبيض الذي كان في وسعي أن أعكس عليه ظلالاً ضعيفة وأنا أقوم ببعض الحركات. لكن لنتّفق، لا بُدَّ أنّ هناك تفسيراً طبيعيّاً لكلّ هذا. إذ يبدو أنّ موارد الطّبيعة لا تنفد. إنّه أنا من كان غير طبيعيّ لينسجم بسهولة في نظام الأشياء هذا ولأحتفي برقّته. إنّما كان من عادتي مراقبة الشّمس وهي تطلع من الجنوب وأن لا أعرف أين أمضي لشدّة ما أنّ كلّ شيء يسير بشكل عشوائيّ ودون عواقب. ما من أحد خلّفته ورائي ولا من يرافقني. أن يخرج أحدهم للبحث عن أمّه في ظروف كهذه، يجب الاعتراف بأنّه أمر غير لائق. أقلّ لياقة من الذّهاب إلى عائلة «لوس» صدفة دون إرادة أو نيّة مضمرة أو إلى المركز أو إلى أيّ مكان ينتظرني. أشعر بذلك، حين قدّم لي الخادم ملابسي ملفوفة في ورقة، لاحظتُ أنّ القبعة لم تكن هناك. فقلت، قبعتي. عندما فهم غاب وأحضرها. لا شيء ينقص إذن عدا الرباط لشدّ القبعة إلى العقدة. لكنّي يئست من أن يفهمه فلم أضف كلمة واحدة. يمكن العثور على رباط قديم في أيّ مكان، إنّه ليس أمراً مستحيلاً. ولا هو بالشّيء الخالد. كما هو الشّأن بالنّسبة إلى الملابس بأتمّ معنى الكلمة. أمّا الدرّاجة فكان لديَّ أمل في أن أجدها في انتظاري في مكان ما عند الأسفل. بل طمعتُ في أن تكون متكئة على العتبة. مستعدّة لتقلّني بعيداً عن هذا المكان الرّهيب. ثم إنّي لا أرى موجباً للّجوء إلى التّلميح مجدّداً وأن نفرض مشقّة أخرى على أنفسنا فيما هناك سبيل لتجنّبها. خطرت لي هذه العبارات بسرعة معيّنة، فتّشت جيوبي الأربعة أمام الخادم ولاحظت أنّ محتواها لم يكن تامّاً. حصاة المصّ لم تكن موجودة، يمكن العثور على واحدة في شواطئنا شرط أن نعرف أين نبحث، وارتأيتُ أنّه من الأفضل أن لا أتفوّه بكلمة بهذا الخصوص، إذ لا أعتقد بعد ساعة من النّقاش أنّي سأجني نتيجة أكثر سخاء من إحضاره من الحديقة. أحجارها غير قابلة للمصّ بتاتاً. اتّخذت هذا القرار فوراً، أمّا عن بقيّة الأشياء

المختفية فلِمَ قد أتحدّث عنها بما أنّي لا أعرف ما هي تحديداً. ربّما انتُزعت منّي في المخفر أثناء إيقافي، أو فقدتها عندما سقطتُ أو ربّما في وقت آخر. غير مستبعد أن أكون قد فقدتها عن طريق التخلّص منها رمياً. إذ يحدث أن أرمي بكلّ ما في حوزتي بأمر من مزاجي. ما فائدة الحديث إذن، وقرّرتُ أن أعلن بأنّي فقدتُ سكّيناً. سكّيناً جميلاً. أتقنت دوري فحصلتُ على سكّين خضر لا يصدأ لكنّه لم يأخذ منّي وقتاً طويلاً حتّى جعلتُه يصدأ. يفتح ويغلق بواسطة زرّ في أعلى المقبض. سعيتُ لأحصل عليه مقابل كلّ سكاكين الخضر التي عرفتها والتي كانت مجهّزة بشفرة حادّة اكتشفتُ لاحقاً أنّها عاجزة عن صدّ أيّ شيء مهما كان. ما سبّب لي جروحاً لا تُحصى على طول أصابعي العالقة بين القرن الإرلنديّ الأصليّ (يُقال) وبين النّصل الخشن، المُحمَرّ من الصدأ الذي لا يسبّب جروحاً في نهاية الأمر بل رضوضاً، وما استغراقي طويلاً في الحديث عن هذا السكّين إلّا لأنّي حملته دائماً معي بين ممتلكاتي وما تحدّثت عنه هنا في هذا المكان إلّا لأنّي لستُ متأكّداً من القيام بذلك في وقت لاحق. ولو قُدّر لي أن أقوم بجرد لممتلكاتي، سأكون دائماً مرتاحاً في الأوقات التي أحتاج فيها إلى أن أكون مرتاحاً، حدسي يخبرني بذلك، إذ مع ما خسرتُه طيلة حياتي من الطبيعيّ أن أتوسّع بصورة أقلّ مع ما بقي لي. هذا غنيّ عن البيان، وإن كان ظاهري لا يدلّ كثيراً عن كوني أتبنّى هذا المبدأ، فلأنّه يخونني أحياناً، يختفي كأنّه لم يبدر منّي يوماً. جملة مجنونة لكن لا يهمّ. هذا لأنّي لا أميّز كثيراً ما أنا بصدد فعله. ولا لماذا. إنّها أشياء بات إدراكي لها يتدهور شيئاً فشيئاً. ليس لديَّ ما أخفيه، لِمَ قد أخفي أمراً ولماذا وعلى من؟ أعليكم أنتم الذين لا شيء يخفى عنكم؟ ثمّ إنّ الإفصاح يملؤني. لا أدري. يستحيل علَيَّ التعبير. بالنّسبة إليّ في هذه الآونة بعد كلّ هذا الزّمن الذي مرّ . تفهمون أنّي لا أتوقّف أبداً أمام معرفة أيّ مبدأ رجحت كفّته أخيراً. وبصورة سلبيّة مهما فعلتُ. أقصد ما قلتُ. ستسير الأمور على الوتيرة نفسها، نعم الوتيرة نفسها والنّمط نفسه، وما دمتُ أتحدّث عن مبادئ لا وجود لها فما عسى أن أفعل لأجلها. لا شيء. لا بُدَّ أنّ هناك ما

يمكن القيام به في هذا الشّأن. فأن يقوم المرء بالشّيء نفسه دائماً، هذا لا علاقة له بالثّبات على مبدأ واحد، هذه أيضاً لا يمكنني تغييرها، ثمّ كيف يمكن إثبات الثّبات من عدمه، وكيف أصلاً يخطر لنا أن نرغب في ذلك. كلّا. كلّ هذا لا يستحقّ أن نتوقّف لأجله، مع ذلك نتوقّف. نتوقّف غير واعين بالقيم، أمّا الأشياء التي تستحقّ فنحن لا نقف عندها، نهملها للأسباب نفسها أو ربّما من باب الحكمة، علماً أنّ قصص القيم ليست معدّة لكم أنتم، أولاء الذين لا يعرفون تماماً ما الذي يفعلونه ولا لماذا، أنتم الذين تستمرّون في جهل ذلك تحت دواعٍ أتساءل ما هي، أتساءل حقّاً ما هي. لم أتعرّض في حياتي لفكرة أفظع من القيام بأمر أجهل ما هو ولا لِمَ أقوم به، وهذا لا يثير غرابتي لأنّي ببساطة لم أجرّبه، فقد كنتُ سأتوصّل إلى نتيجة أفظع بكثير من التي تراودني حقيقة لو انسقت للإغراء الذي وراء الحصول عليها. هذا ما أعرفه عن نفسي على الأقل، ما أملكه. ما أنا عليه يكفيني. كفاني دائماً. أمّا بالنّسبة إلى حبّي المستقبلي الصغير، أنا مطمئن ولستُ على استعداد لأضجر. ارتديتُ ملابسي بعدما أقنعتُ نفسي بأنّ شيئاً لم يتغيّر فيها، أي إنّي لبستُ بنطلوني وقبّعتي ومعطفي وحذائي، حذائي يصل إلى المستوى حيث من المفترض أن تكون ربلتيّ، لو كان لي ربلتان، ويُزرُّ حتّى المنتصف، منتصف الأزرار لو كان فيه شريط أزرار ومربوط حتّى منتصفه أيضاً، لقد رافقني دائماً، ثمّ تناولتُ عكّازَيّ وغادرتُ الحجرة. انقضى اليوم بأكمله في هذه الحماقات، وها هو ذا الغسق من جديد، عند نزول الدّرجات تفحّصتُ النّافذة التي كنتُ أشاهدها عبر الباب، كانت ترسل النّهار إلى السلّم. يوم داكن وعنيف. وكانت «لوس» في الحديقة منهمكة في تهذيب قبر الكلب، كانت تزرع العشب فوقه كما لو أنّ العشب لم يكن لينبت وحده، مُستغلّة انخفاض الحرارة، لمّا رأتني جاءت نحوي بودّ، وقدّمت لي الأكل والشّراب. ظللتُ واقفاً أبحث بعينيّ عن درّاجتي، كانت تتحدّث وسرعان ما أحسستُ بالتّخمة ورحتُ للبحث عن الدرّاجة. تبعتني. انتهى بي الأمر في اتّجاهها وقد التهمها دغل رخو حتّى منتصفها، ألقيت بعكّازيّ على

السّرج والمقود وأخذتُها بين ذراعيّ بنيّة إدارة عجلاتها إلى الأمام وإلى الخلف قبل ركوبها والابتعاد إلى الأبد عن هذا المكان الملعون، عبثاً، لم تتحرّك العجلات، كأنّ مكابحها مشدودة بقوّة، الأمرُ الذي لا يُمكن أن يُفسِّر عنادها لأنّها لا تملك مكابح من الأساس، فجأة انتابني شعور بالتّعب، رغم أنّها كانت ساعة حيويّتي القصوى، رميتُ بالدرّاجة في الدّغل واستلقيتُ على الأرض غير مكترث بالرّطوبة، لم أصدّق الندى يوماً، انتهزت «لوس» فرصة ضعفي وقرفصت بجانبي وراحت تقدّم لي عروضاً أعترف أنّي أصغيتُ إليها بنوع من التّسلية، إذ لم يكن لديَّ ما أفعله عدا ذلك، أو الأحرى لم أكن قادراً على فعل شيء آخر، ثمّ لا شكّ في أنّها دسّت لي في جعتي مادّة سبّبت لي الوهن، سبّبت لمولوي الوهن، إلى الحدّ الذي صرتُ معه لا أكثر من شمع يذوب، من بين اقتراحاتها التي أملتها عليَّ ببطء حريصة على تكرار كلّ فصل، عدّة مرّات، خلصتُ إلى الأمور التّالية، وهي الأهمّ في الواقع، ليس من حقّي منعها من الإشفاق عليَّ، هي بالمثل أيضاً، أقيم عندها وأعتبر نفسي في بيتي، سيكون لي بصورة لائقة ما آكل وأشرب وأدخّن إن أردتُ وستسير حياتي دون هموم، سأعوّض على نحو ما الكلب الذي خسرَتهُ والذي يعوّض بدوره الطّفلَ، أساعد في المنزل وفي الحديقة متى شئتُ لو رغبتُ في ذلك، لا أخرج إلى الشّارع لأنّي بمجرّد الخروج لن أتمكّن من العودة، أختار إيقاع الحياة الذي يناسبني، ساعة يقظتي، موعد نومي، مواعيد الأكل التي ترضيني، ما إذا كنتُ أحبّ النّظافة أم لا، الاغتسال، الملابس اللّائقة إلخ... لستُ مرغماً على شيء مُطلقاً، قالت إنّها كئيبة، أيّ كآبة لديها مقارنة بكآبتي؟ كلّ ما ترجوه هو أن أبقى في منزلها، معها، أن تتأمّل هذا الجسم الرّائع من حين إلى آخر في مواقفه، ذهابه وإيّابه، كنت بين الحين والحين أقاطعها لأسألها في أيّ مدينة أنا، لكن إمّا أنّها لا تفهمني أو أنّها تتعمّد إبقائي في الجهل، لم تكن تجيب عن هذا السّؤال، بل واصلت خطابها عائدة بصبر لامتناهٍ إلى ما كانت تقوله ثمّ برويّة وبلطف شرعت في عرض المزايا التي كنتُ سأبني مقاومتي على غيابها، والتي

حدست أنّها أكثر ما يستهويني، إلى أن ساد العدم فيما عدا صوتها الرّتيب، الذي يقطع سكينة اللّيل والذي يزداد سمكاً، وكانت رائحة التّراب النديّة ورائحة زهره تضوع عطراً شديداً لم أميّزه في حينه لكنّي ميّزته فيما بعد على أنّه عطر خزامى، هناك شعبٌ منها في كلّ أرجاء الحديقة فـ «لوس» تحبّ الخزامى، لا بُدَّ أنّها باحت لي بذلك وإلّا كيف أمكنني أن أعرف؟ تحبّها أكثر من جميع الزّهور والحشائش، بسبب رائحتها وسنابلها ولونها. كان عليَّ الحفاظ على حاسّة الشمّ كي أتذكّر «لوس» حالما أشتمّ رائحة الخزامى بفضل آليّة الاقتران المشهورة، أرجّح أنّها تقطف الخزامى لدى نضوجها، تجفّفها وتوزّعها على أكياس تضع منها في خزانتها لتعطير مناديلها وجسمها ومنزلها. من حين إلى آخر كنتُ أسمع السّاعة تدقّ بالأجراس والنّقر بصفة مُطوّلة ثمّ فجأة بصفة مقتضبة، ثمّ من جديد بصفة مُطوّلة، لتفهموا الوقت الذي قضيته مستلقياً، واستغرقته «لوس» لتوقع بي، صبرها وطاقة تحمّلها الجسديّة لأنّها خلال ما مرّ من وقت ظلّت مقرفصة وقاعدة، بالقرب منّي بينما كنتُ أنا ممدّداً على العشب مرّة على ظهري ومرّة على بطني ومرّة على الجانب ومرّة على الجانب الآخر، لم تتوقّف عن الكلام ولم أكن أفتح فمي إلّا لأطلب من بعيد، أبعد فأبعد، أضعف فأضعف، في أيّ مدينة نحن. لعلّها كانت واثقة من نفسها، كانت على وعي بأنّها بذلت قصارى جهدها لإقناعي وأنّ المزيد من الإلحاح لن يفيد في شيء، المهمّ أنّها نهضت وذهبت إلى حيثُ لا أدري، لأنّي مكثتُ في مكاني نادماً قليلاً. ففي داخلي كان هناك دائماً مهرّجان، لنقل. الذي لا يطلب شيئاً عدا البقاء حيث يوجد، وآخر يظنّ أنّه سيكون في حال أقلّ سوءاً في مكان آخر، أي إنّي كنتُ دائماً ألقى العناية في هذا المجال، أنا أمنح هذين المتواطئين التّعيسين فرصة التدخّل بالتناوب لأحملهما على الوعي بخطئهما. وتلك اللّيلة لم تكن مسألة قمر أو أيّ نوع لآخر من الضّياء، بل كانت ليلة إصغاء منذورة للحفيف والتنهّدات التي تهدهد حديقة النزهة المؤلّفة من سيقان وبتلات وأوراق خجولة وهواء يجري بشكل مغاير عمّا هو عليه في الخارج حيث ثقل الإكراهات،

وعلى خلاف نهار الحراسة والعقاب وحيث هناك أشياء أخرى غامضة ليس من الهواء ولا ممّا ينشره في شيء، لعلّه الضّجيج البعيد المتكرّر الذي تصدره الأرض والذي من المؤكّد أنّ الأصوات الأخرى تخفيه، لكن ليس إلى الأبد. لا أحد حقيقة ينتبه إلى هذا الصّوت القادم من الأرض، عندما نصيخ السّمع ساعةَ يبدو أنّ كلّ شيء قد صمت. وهناك ضجيج آخر، ضجيج حياتي التي جعلت منها هذه الحديقة حيث تشتبك أرض الهوّات والصّحارى حياتها. نعم، يحدث أن أنسى لا فقط من أنا بل وأيضاً ما أنا، وأن أنسى أن أكون، لم أعد إذن تلك العلبة المُقفلة التي علَيَّ أن أكون مُصبّراً في داخلها، بل سوراً يعلو ويمتلئ أغصاناً وسيقاناً رصينة ودعامات مثلاً، دعامات ميّتة منذ أمد طويل وقريباً ستُحرق، إجازات ليليّة ومحض انتظار للشّمس وأيضاً صرير الكوكب الذي يملك الآن متكأ جيّداً لأنّ الشّمس تتدحرج نحو الشّتاء، الشّتاء وحده قادر على قشرتها السّاخرة، تلك التي كنتُ دائماً بالنّسبة إليها السّكينة العابرة، ذوبان الثّلوج الذي لا يُغيّر شيئاً، وهول البدايات. لكن هذا لا يحدث معي في كلّ حين، جلّ الوقت أظلّ داخل علبتي التي لا تعرف فصولاً أو حدائق، وهذا أفضل، لكن هنا يجب أن نحترز، علينا أن نطرح الأسئلة على أنفسنا، مثلاً تلك المتعلّقة بما إذا كنّا موجودين بعدُ، إن كانت الإجابة بالنّفي فمتى ينتهي كلّ هذا، وإن كانت نعم فحتّى متى سيدوم ذلك؟ عن الأشياء التي تمنعك من فقدان خيط الحلم. أنا أتساءل عن طواعيّة السّؤال تلو الآخر، لا لشيء إلّا لأثمل من الأسئلة. لا ليس عن طواعية بل عن قصد، كي أصدّق أنّي ما زلتُ هنا، إنّما لا يعني لي كثيراً كوني ما زلتُ هنا، أسمّي هذا تفكيراً، أفكّر دون توقّف تقريباً، لا أجرؤ على التوقّف، ربّما لهذا السّبب ما زلتُ بريئاً، كانت براءتي دائماً معبّرة ومقضومة الأطراف، وكنتُ دائماً سعيداً بها، نعم سعيداً كفاية. شكراً كفاية كما قال لي يوماً صبيّ التقطتُ له كجّة، لا أدري لِم فعلتُ ذلك. لا شيء يُجبرني، بل ربّما فضّل أن يلتقطها بنفسه. أو ربّما لم يكن يجدر من الأساس التقاطها. ثمّ لا ننسى المجهود الذي كلّفني التقاطها بسبب ساقي القاسية. الكلمات

حُفرت في ذاكرتي إلى الأبد، بلا شكّ لأنّي فهمتها، من الوهلة الأولى، الأمر الذي نادراً ما يحصل، لا لأنّ سمعي ثقيل، أبداً، فأذناي مرهفتان والضّجيج الذي لا يحمل معنى معلوماً في طيّاته أتلقّاه أفضل من أيّ كان. ما كان ذاك إذن؟ خللاً في الإنصات ربّما، لا يتردّد صداه إلّا مُحطّماً عدّة مرّات أو أنّه لا يتردّد إلّا عندما نشاء نحن ذلك. عند مستوى أقلّ من الجدال إن كان هذا قابلاً للإدراك، وهو قابل للإدراك فعلاً ما دمتُ قد أدركتُه، نعم، أسمع الكلمات، بل أسمعها بشكل جيّد جدّاً، أسمعها مرّة أولى ومرّة ثانيّة، وأحياناً مرّة ثالثة، كما لو أنّها أصوات نقيّة متحرّرة من كل دلالة. ربّما لهذا السّبب فإنّ الحوار بالنّسبة إليّ يشكّل عمّى لا يوصف والكلمات التي أنطق بها غالباً ما ترتبط بجهد يتطلّب الذّكاء، في أحيان كثيرة يُحدث ذلك في داخلي وقعاً شبيهاً بطنين الحشرات. وهذا ما يُفسّر كوني مقلّاً في الكلام، مُشكلتي مع الفهم لا تقف عند ما يقوله لي الآخرون، بل تتجاوز ذلك لتشمل ما أقوله أيضاً. صحيح أنّنا مع القليل من الصّبر سينتهي بنا الأمر لنتّفق مع بعضنا. لكن نتّفق حول ماذا؟ أنا أسألكم، نتّفق حول ماذا ولأيّ غاية؟ بالنّسبة إلى الشّائعات والمؤلّفات أعتقد أنّي أردّ الفعل إزاءها بالطّريقة نفسها دون هاجس الخروج بعبرة. عيناي أيضاً، الصّالحة منهما أقصد، لا أظنّها موصولة بالشبكيّة جيّداً، فأنا أسيء وسم الأشياء التي تنعكس عليها بصفاء. ودون الحاجة إلى القول بأنّي أرى العالم عاليه أسفله(كم كان ذلك أسهل) مؤكّد أنّي أراه على نحو مبالغ فيه دون أن أكون ذوّاقاً أو فنّاناً ليتسنّى لي ذلك. وبما أنّ عيناً واحدة من عينيَّ تعمل بشكل مقبول، فأنا أسيء تقدير المسافة بيني وبين العالم وغالباً ما أتقدّم بيد ممدودة إلى الأمام نحو ما هو في غير متناولها، وأرتطم أحياناً بأجسام صلبة بالكاد تُرى في الأفق. لكن يبدو أنّي أبليتُ دائماً كذلك، حتّى عندما كانت كلتا عينيَّ سليمتين، ربّما أكون مخطئاً فقد مضى زمن طويل على تلك الفترة من حياتي، ولا أحتفظ منها سوى بذكريات أكثر من مُشوّهة، ثمّ بدفع التّفكير أعمق قليلاً، يمكنني الجزم أنّ محاولاتي في تمييز الطّعم والرّائحة ليست أفضل حالاً فأنا أشتمّ وأتذوّق

دون معرفة ما الذي بين يديَّ ولا إن كان لذيذاً أو رديئاً ونادراً ما يصلني الشّعور نفسه بشكل متكرّر. أعتقد أنّي مشروع زوج رائع. عاجز عن أن يملّ زوجته أو يخونها إلّا بدافع التّسلية. يستحيل عليَّ الآن أن أخبركم لِمَ بقيت مع «لوس»، مدّة ليست بالهيّنة، أقصد ربّما بقليل من المعاناة أقدر أن أفعل بلا شكّ، لكن لِمَ قد أفعل؟ لأثبت بطريقة صلبة أنّي ما كنتُ البتّة لأقوم بشيء آخر؟ ألهذا وحده قد تؤول بي الأمور بشكل قاتل؟ أحببتُ صورة ذلك الشّيخ «غولانكس»[10]، الذي مات شابّاً والذي منحني حرّية تأويل السّواد المحيط بسفينته، بسفينة أوديسيوس (أوليس) فبات الصّواب هو أن أُغرق نفسي تحت الجسر عند الشّروق، تحت، هي الحقيقة منذ البداية، إنّها الحريّة الأسمى التي لا تجوز إلّا للذي لا يملك روح الروّاد الطلائعيّين. وعلى متن مؤخّرة السّفينة المنحنية فوق الموجة أنظر إلى الأخدود المغرور الذي لا طائل منه في عينيْ عبدٍ مبتهج بحزن مثلي. على ظهر سفينة لا تقلّني إلى أيّ مكان ولا تأخذني إلى أيّ غرق. لقد أمضيتُ إذن أوقاتاً جيّدة لدى «لوس». ضبابيّ أن نقول بأنّها كانت أوقاتاً طيّبة، هي أشهر ربّما، لعلّها سنة، أعرف أنّ الطّقس كان حارّاً يوم رحيلي تماماً كما كان يوم قدومي لكن هذا لا يعني شيئاً من جهتي، حيث يكون الطّقس حارّاً أو بارداً أو لطيفاً على امتداد السّنة، تلك التي لا ترقى فيها الأيّام المرتفع بسلاسة. أبداً لا تفعل. ربّما تغيّرت تلك الأمور منذ ذلك الزّمن، أعرف فقط أنّ الطّقس الذي رحلتُ فيه يشبه الطّقس السّائد يوم مجيئي، هذا إذا سلّمنا بأنّي مُخوّل لمعرفة الطّقس الذي أتيت فيه. على مدى فترة طويلة عشتها في الخارج في كلّ الظّروف حتّى إنّي أفرّق بينها جيّداً، جسمي يميّز بينها، بل يبدو أنّ لديه أوقاتاً يفضّلها على غيرها، أعتقد أنّي أشغل غرفاً كثيرة، الواحدة تلو الأخرى أو بالتداول، لا أدري،

---

10 – غولانكس: فيلسوف بلجيكي مات بالطاعون سنة 1969 عن سنّ تناهز الـ 45. تخيّل غولانكس أنّ سفينة أوليس – أوديسيوس – المهملة والمتهالكة قد وقع استبدال كلّ أجزائها حتّى آخر مسمار فيها، وطرح السؤال الفلسفيّ هل بالتالي نكون قد ألغيناها من الوجود أم إنّها ستظلّ دائماً سفينة أوليس التي نعرفها.

في رأسي هناك العديد من النّوافذ. أنا متأكّد من ذلك. لكن ربّما هي واحدة فقط تُفتح بصورة مختلفة في وجه هذا الكون. المنزل لا يتحرّك، ربّما هذا ما أقصده حين أتكلّم عن غرف عديدة. المنزل والحديقة كانا ثابتين بفضل لستُ أدري أيّ ماكينة تعويض تقف وراء ذلك. وأنا. أنا حين أكون في فترة هدوء، فما أفعله أغلب الوقت هو البقاء مُسمّراً إذن، وحين أتحرّك فأنا أفعل ببطء شديد كما لو أنّي داخل قفص خارج الزّمن كما يُقال في الأوساط التلمذيّة، بالطّبع خارج الفضاء أيضاً. فأن تكون خارج أحدهما دون الآخر فهذا لا ينفرد به من هم أخبث منّي. أنا الذي لم أكن خبيثاً يوماً، بل أبله على الدّوام، لكن قد لا أكون محقّاً تماماً، وكلّ تلك النّوافذ التي تُفتح داخل رأسي حين أميل بذاكرتي نحو تلك الفترة، كانت موجودة حقّاً وما زالت توجد رغم أنّي لم أعد هناك. أعني أنّي بصدد مشاهدتها، أفتحها وأغلقها أو أنّي مختبئ في ركن من الغرفة بصدد الاندهاش من الأشياء التي تحيط بها. لن أهوي بثقلي على فترة قصيرة تدعو إلى السّخرية في مجملها، فقيرة ومُخملها رديء، لأنّي لا أساعد في المنزل ولا في الحديقة وليست لديَّ فكرة عن الأشغال التي تُنجزُ، ليل نهار والتي يصلني ضجيجها مكتوماً وجافّاً أيضاً، ثمّ صوت الهواء أحياناً، الهواء المطرود بقوّة فيما يبدو، والذي هو ببساطة صوت احتراق. أحبّذ الحديقة على المنزل، استئناساً بالحكم الذي كوّنته على امتداد ساعات طويلة أقضيها فيها، فأنا أُقضّي جزءاً كبيراً من اليوم ومن اللّيل سواءً كان الطّقس جميلاً أو سيّئاً. كان هناك رجال يتداولون عليها باستمرار، منشغلين بلَسْتُ أدري أيّ أعمال، الحديقة تبقى دائماً على أصلها يوماً بعد يوم، صورة مجرّدة للتغييرات المنجزة، عن الدّورة المعتادة للولادة، حياة وموت. وسط هؤلاء الرّجال كنتُ أهيم كورقة ميّتة، كالنّابض حيناً وممدّداً حيناً آخر، كانوا يتخطّونني بحذر كأنّي روضة زهور صغيرة ثمينة. في النّهاية أظنّ أنّهم يقومون بذلك حفاظاً على الحديقة كي لا تفقد ألقها. اختفت درّاجتي مجدّداً، أحياناً تراودني فكرة التفتيش عنها لأراها ثانية لأكوّن فكرة عن حالتها، أو لأذهب بها في نزهة في الممشى والممرّات

التي تربط بين مختلف أجزاء الحديقة، لكن بدل محاولة إطفاء رغبتي، أظلّ هكذا أراقبها تذوي رويداً، إلى أن تتلاشى في الأخير، كما في التعبير الشّهير الذي يروي انكماش جلد الحمار. مع فارق وحيد هو أنّ ما يحدث معي يحدث بصورة أسرع، لأنّ ثمّة على ما يبدو طريقتين للتعامل مع الرّغبات، الحركيّة والتأمّليّة، ومع أنّ كليهما يفضي إلى النّتيجة نفسها إلّا أنّي أفضّل الثانية. قضيّة مزاج بلا شكّ. يحيط بالحديقة جدار عالٍ رُشقت على سطحه شظايا زجاج في شكل زعانف، لكن كان هناك على غير المُتوقّع كوّة واضحة تفتح على الشّارع، لم تكن الكوّة مقفلة بالمفتاح، أنا شبه متأكّد أنّي فتحتُ تلك البوّابة وأعدتُ غلقها مرّات عديدة ليلاً ونهاراً لأرى إن كان هناك من يجتازه من الجانبين. كنتُ أضع أنفي في الخارج ثمّ سرعان ما أدخله، ملاحظات أخرى، أبداً لم أرَ شتاءً في هذه المحميّة، وكلمة محميّة لا أعني بها الحديقة فقط كما يُفترض بلا شكّ بل المنزل أيضاً، رجال باستثناء «لوس» بطبيعة الحال، ما أراه وما لا أراه لا يعني الكثير كما هو معلوم لكن لا بأس من الإعلان عنه. نادراً ما كنتُ أرى «لوس»، لم تكن تظهر لي أبداً، من باب الرّصانة ربّما، خشية أن تروّعني، لكن أعتقد أنّها تتجسّس عليَّ كثيراً، مختبئة خلف الشجيرات أو السّتائر، أو كامنة في غرفة في الطّابق الأوّل، مسلّحة بمنظار مقرّب ربّما. ألم أقل إنّها تأمل قبل كلّ شيء في مراقبتي أثناء ذهابي وإيّابي، وإنّي لستُ هنا إلّا لأنعم بالرّاحة؟ ولترى جيّداً هناك ثقب القفل والأبواب المحشورة في تشابك النباتات، باختصار كلّ ما من شأنه أن يحول دونها ودون الانتباه، وفي الوقت نفسه لا يتيح النظر للشيء إلّا في شكل مقاطع مُعيّنة، أليس كذلك؟ نعم إنّها تدقّق في تفاصيلي، قطعة قطعة، ولا شكّ أبعد من ذلك هي تلاحقني في نومي، نعاسي ويقظتي والصّباح الذي أنامه. من هذه النّاحية بقيتُ مخلصاً لعاداتي، أقصد النّوم في الصّباح إذا نمتُ، إذ يحدث أن لا أنام أيّاماً عديدة دون أن أشعر بأدنى انزعاج. فأمسي كان بمثابة نعاس طويل، لا أنام في الموضع نفسه أبداً. لكن تارة أنام في الحديقة لأنّها شاسعة وتارة أنام في المنزل لأنّه شاسع أيضاً، كبير بحقّ، هذه

البعثرة في أماكن النّوم، ومواعيدها، لا بُدَّ أنّها تملأ «لوس» بالرّضا وتُمضي لها وقتها بشكل رائع، أتصوّر. فقط لا طائل من التّركيز على تلك الفترة من حياتي. سأصدّق يوماً أنّها حياة لشدّة ما كرّرتُ الكلمة، إنّها أساليب الدّعاية، تلك الفترة من حياتي تجعلني أفكّر، لو فكّرتُ، في الهواء المحصور في قناة ماء. أضيف فقط أنّ هذه المرأة، استمرّت في تسميمي على نار هادئة بدسّ لا أدري أيّ مادّة سامّة في شرابي أو أكلي أو الاثنين معاً، أو بالتناوب، يوماً في هذا ويوماً في الآخر. اتّهام خطير أصرّح به الآن لكنّي لستُ أطلقه من عدم، ولا بدافع الحقد، ليس بدافع الحقد أبداً أن أتّهمها بدسّ مساحيق وسوائل شرّيرة دون طعم في أكلي. وحتّى لو كان لها طعم ما الذي كان سيتغيّر، كنتُ سألتهما الشّراهة نفسها تماماً. ذلك اللّوز النّتن مثلاً، لم يكن البتّة ليفقدني شهيّتي. شهيّتي! لنتحدّث عنها قليلاً، يا لها من أمر خارق شهيّتي هذه. اكتسبتها صغيراً جدّاً، آكل كعصفور. أبتلع بلهفة يوسم بها الأكلة الكبار على وجه الخطأ، لأنّ الأكلة الكبار يأكلون ببطء وبنسق منتظم، هذا ما يجعل منهم أكلة كباراً. أمّا أنا، فأهجم على الصّحن الوحيد أبتلع نصفه أو ربعه في لقمتين كحوت مفترس، أعني دون مضغ، ثمّ لِمَ تريدون منّي أن أمضغ؟ بعد ذلك أدفع عنّي الصّحن بعيداً، بتقزّز. ربّما ذهب في الظنّ أنّي آكل كي أعيش، وبالطّريقة نفسها أزدرد خمساً وستّ آنيات جعة ثمّ لا أشرب شيئاً مدّة أسبوع. ما رأيكم؟ نحن ما نحن عليه، أليس كذلك؟ إجمالاً على الأقلّ. إمّا لا شيء لنفعله أو القليل جدّاً. أمّا الموادّ التي كانت تخدع بها مختلف أنظمتي، فلا أدري إن كانت محفّزات أو محبطات. في الواقع من وجهة نظر السينيستازيا كما سمعتهم يردّدون، أشعر أنّي قريب من عاداتي، لنقل – مهلاً حذارِ يبدو أنّي سأفقد السّيطرة – إنّي أشعر بتوتّر مزلزل إلى درجة أفقد معها الإحساس إن لم أقل الوعي، فأسبح في قاع خدر رحيم تجوبه بروق فظيعة، أقول هذا كأنّه أمر مُشرّف. ماذا في وسع أتباع «لوس» القيام به إزاء اتّزان مشابه. خاضعين لدفق متناوٍ الصّغر لإطالة اللذّة أكثر وقت ممكن. أن يظلّ الأمر كذلك. لا. لا يمكنني التحمّل، فعمدتُ بين

الحين والحين إلى أن أقوم بقفزة مستقيمة في الهواء خطوتين أو ثلاثاً على الأقلّ، أنا الذي لا أقفز أبداً، كان ذاك بمثابة التّحليق. يحدث معي أيضاً أمرٌ أقلّ إثارة، وهو أن أتهاوى تاركاً جسمي يخرّ فجأة، بينما أسير مستنداً على دعامة على طريقة دمية متحرّكة قطعوا عنها الخيوط، ثمّ أظلّ ملقى على الأرض فترة منزوع العظم تماماً، نعم يبدو لي هذا أقلّ غرابة لأنّي معتاد على حالات الوهن، لكن مع هذه التجربة الجديدة يمكنني التنبؤ بما سيحصل خلال ثوان وأشعر بأنّي آخذ استعداداتي كما كان سيتصرّف مصاب بالصّرع حَدَس اقتراب نوبة. أردتُ القول لعلمي بأنّي سأسقط، أتمدّد أو أستند جيّداً وأنا قائم ببراعة ليس في وسع شيء أقلّ قوّة من زلزال زحزحتي. وأنتظر. إنّما هذه الاحتياطات لم أكن أكلّف نفسي عناء القيام بها دائماً، غالباً كنتُ أفضّل السّقوط على النّوم أو الثّبات بين الدّعامات. في حين إنّ السّقوط الذي كنتُ أمارسه عند «لوس»، لم يكن لديَّ في شأنه متّسع من الوقت لأتجنّبه. مع ذلك كانت تباغتني. كان من بين دوافعي الأكبر تفهّمها لقفزاتي، لمّا كنت طفلاً أذكر أنّي قفزتُ. لا السّخط ولا الألم كانا قادرين على تحفيزي كي أقفز، حتّى عندما كنتُ طفلاً، هذا إن كنتُ مخوّلاً للحديث عن تلك الفترة، صحوني كنتُ آكلها كيف ومتى وأين يلائمني، لم أكن أطلبها أبداً، كانت تأتيني حيث أنا في طبق. ما زلتُ أرى الطّبق، يمكنني استحضار صورته متى شئتُ. مستديرٌ بحافّة صغيرة لمنع سقوط الأشياء، ومغطّى بالورنيش الأحمر. مشروخ في عدّة مواضع. كان صغيراً كما يُفترض بطبق معدّ لحمل صحن واحد وقطعة خبز. القليل الذي آكله أحشوه بيدي في فمي، والقوارير التي أفرغها في جوفي أثناء الولائم كانت تأتيني مستقلّة في سلّة. لكن تلك السلّة لم تكن تترك لديَّ أيّ انطباع لا سيّئ ولا جيّد، ولا يمكنني وصف المادّة التي صُنع منها، ولا كيف. أحياناً عندما يحدث لسبب أو لآخر البحث عن المكان الذي قُدّم لي فيه الزّاد، أعجز عن إيجاده مرّة أخرى لو خطر لي الاستهلاك، فأنبري أبحث في كلّ مكان بمتعة أحياناً لأنّي أعرف الأماكن القابلة لاستضافتي، لكن في أحيان أخرى تذهب محاولاتي

سدى. أو أنّي كنتُ أفضّل الجوع والعطش عن مشقّة البحث، فلم أكن أبحث وأنا أجهل إن كنتُ سأجد أم لا. أو عذاب طلب طبق وسلّة أخريين في المكان نفسه الذي كنتُ فيه. متحسّرٌ على حصاة المصّ، وحين أقول مثلاً إنّي أفضّل أو أندم لا ينبغي أن يذهب في الاعتقاد أنّي أرجّح كفّة الشرّ أو أنّي أسلكه لأنّ ذلك خطأ، لكن بما أنّي لا أعرف تماماً ما عليَّ القيام به أو تجنّبه فستجدني أقوم بما أقوم به وأتجنّب ما أتجنّبه دون أن تساورني شكوك في مجيء يوم، ربّما ما زال بعيداً جدّاً، أجد نفسي فيه مجبراً على النّكوص على عقبي والعودة إلى ما فعلته أو ألغيتُه. قد أصبح شاحباً وجميلاً بفعل الابتعاد الطويل، وأنا أجرّ بنفسي نحو لوثة الرفاهية، لكن يجدر القول إنّ صحّتي مستقرّة تقريباً عندما كنتُ عند «لوس»، أعني أنّ ما هو مُختلّ لديَّ أخذ يتدهور شيئاً فشيئاً كما هو مُتوقّع لكن أبداً لم تظهر آلام جديدة أو قروح لم تكن موجودة من قبل، طبعاً باستثناء تلك التي يتسبّب فيها تطوّر أوضاع الإفراط والقصور اللذين ما انفكّا يعاشراني. في الواقع يصعب عدم الجزم في موضوع كهذا. لأنّ الفوضى التي تنتظرني مثل سقوط إصبع قدمي اليسرى، لا، بل اليمنى، لا أعرف تماماً متى سأجنيها. أوه! بذور شؤم رغم أنفي. كلّ ما يسعني قوله بالتالي، وسأبذل قصارى جهدي كي لا أقول أكثر منه، هو أنّ شيئاً لم يطرأ على الصّعيد المرَضيّ خلال إقامتي عند «لوس». لا شيء صادماً أو مقلقاً أو غير متوقّع. لا شيء خارجاً عن قدرتي على التنبؤ، لا شيء مقارنة بخسارتي المفاجئة لنصف أصابع قدمي. إنّه أمر خرج عن قدرتي على التوقّع وفاق قدرتي على الفهم، أقصد فيما يخصّ تحديد العلاقة بينه وبين مشاكلي الأخرى. أفترض أنّ السّبب هو افتقاري للمعارف الطبيّة، كلّ شيء مرتبط بجنون الجسم. لكن لا داعي لأمطّط الحكاية من هذا الجانب من وجودي لأنّها لا تعني شيئاً من وجهة نظري، إنّه السوء الذي ما أنفكّ أنتفع من ورائه، والذي لا يُجنى منه غير الفقاقيع والحوذيين. لن أضيف إذن سوى بعض الملاحظات، أوّلها هي التالية، «لوس» امرأة مسطّحة بجسم عاديّ إلى حدّ يبعث على التّساؤل، الآن في هذا المساء الشّبيه بآخر أيّام إقامتي

معها، إن كانت رجلاً أو مزدوجة الجنس على أقلّ تقدير، وجهها كان أشعرَ، أو لعلّي أنا من يتخيّله كذلك لصالح الحكاية، لم أنظر إليها إلّا نادراً، المسكينة مثلي تماماً لا تقع عليها العيون، وصوتها، ألم يكن أجشّ على نحو مثير للرّيبة؟ هكذا تبدو لي الآن، لا تنزعج مولوي، رجل أم امرأة، ماذا قد يغيّر ذلك؟ دائماً لا أستطيع منع نفسي من طرح السّؤال نفسه. هل كان في وسع امرأة أن توقف سعيي نحو أمّي؟ بلا شكّ، أبعد من ذلك، لقاء كهذا بيني وبين امرأة، هل كان ممكناً. لامستُ بعض الرّجال، لكنّ النّساء؟ حسناً لم أعد أرغب في إخفاء الأمر أكثر من ذلك، لقد لامستُ واحدة. لستُ أتحدّث عن أمّي لأنّي لم ألامسها فحسب، ثمّ علينا من فضلكم تركها في منأى عن هذه المسائل، سأتحدّث عن أخرى كان من الممكن أن تكون هي أمّي بل جدّتي أظنّ لو لم تقرّر الصدفة مصيراً آخر، إنّ المرأة التي جعلتني أعرف الحبّ، أظنّ أنّها حظيت باسم «روث»، لا أجزم، ربّما كان اسمها «إديث»، كان لديها شقّ بين فخذيها. أوه. لا لم يكن كوعاً كما تخيّلتُ ذلك دائماً، كانت فتحة. أضع، بل هي التي تضع عضوي الذي يُفترض أنّه فحل داخلها، دون ألم، وأدفع باستماتة إلى أن أقذف، أو أصرف النّظر، أو تتوسّل إليّ بأن أتنحّى عنها. لعبة أغبياء حسب رأيي ومتعبة بمرور الوقت، لكنّي كنتُ أنزلها منزلة الفضيلة إيماناً منّي بالحبّ، هي قالت لي ذلك. كانت تستدير وتنحني بسبب (الروماتيزم)، فآتيها من الخلف، كانت تلك هي الوضعيّة الوحيدة التي تتحمّلها بسبب آلام ظهرها، أنا وجدتُ الوضعيّة طبيعيّة للغاية، واستغربتُ كثيراً لمّا أكّدت لي أنّ في مستطاعنا تغييرها، أتساءل ماذا كانت تعني بالضّبط، ربّما في النّهاية كانت تقحمني داخل شرجها. سيّان. ألا ترون معي؟ لكن هل الحبّ الحقيقيّ يوجد في الشّرج؟ هذا ما يرهقني. هل حقّاً عرفتُ الحبّ؟ كانت امرأة مسنّة بشكل لافت هي أيضاً. تتقدّم بخطوات ثقيلة متوكّئة على عصا من خشب البان، لعلّها كانت رجلاً هي أيضاً. في تلك الحالة كيف كنّا نجتنب ارتطام خصائنا بعضها ببعض ونحن نهتزّ، وربّما كانت تمسك بخصيتيها بكفّ يدها كي لا

تؤذيها. كانت تحمل تنّورة ضرّاطة. شرائط مزخرفة، وملابس داخليّة أخرى لا أعرف اسمها، كان كلّ ذلك يُكشف بسبب الهيجان والحفيف الذي نصدره، ثمّ يحدث الارتباط وفق دفعات بطيئة من فوق. حتّى إنّي لم أكن أرى شيئاً عدا قفاها الأصفر، كنتُ أحاول الزّحف نحوه لأعضّه بفعل الغريزة. تمّ التّعارف بيننا في فلاة، أميّزها بين أرض مع أنّ الأراضي الشّاسعة تتشابه جميعاً. أجهل سبب وجودها هنا. كنتُ أقلّب الزّبالة بارتخاء تامّ، وأنا أقول في نفسي- ففي هذا السنّ يجب أن تكون لديَّ بقايا أفكار عامّة- ها هي ذي حياتي، لم يكن لديها وقت لإضاعته، أمّا بالنّسبة إليّ، فلم يكن لديَّ ما أضيّعه، لأعرف الحبّ كان في وسعي أن أجامع عنزة. كانت لديها شقّة أنيقة، لا ليست أنيقة، إذ قد نؤجّج لديكم الرّغبة في انتزاع ركن فيها، وعدم مبارحته أبداً. أعجبتني، كانت مليئة بالأثاث الصّغير، وتحت ضرباتنا اليائسة كان الرّغد يتقدّم نحونا على عجلات. يصل إلى مستوانا ويسقط حولنا، كانت فوضى شيطانيّة عارمة. العلاقة بيننا لم تكن خالية من العطف، فقد كانت تقصّ بيد مرتعشة أظفار قدميّ، وكنتُ أدلّك عجيزتها بمرهم «البينچاي». أنشودتنا لم تدم طويلاً، «إديث» المسكينة. لعلّي سارعتُ بنهايتها، هي من أخذ المبادرة على أيّ حال في تلك الأرض المترامية الأطراف، لمّا أمررت يدها فوق قضيبي. بدقّة أكبر، كنتُ منهمكاً في تقليب القمامة، بنيّة التقزّز من فكرة أنّي جائع، حين حشرت عصاها بين فخذيّ وشرعت في إطراء أجزائي. كانت تقدّم لي المال بعد الانتهاء من مضاجعتها، أنا الذي كنتُ على استعداد لأعرف الحبّ، وأتطوّر فيه بشكل تطوّعي. لم تكن امرأة عمليّة. كنتُ سأفضّل على ما يبدو ثقباً جافّاً وأقلّ اتّساعاً، كان سيعينني ذلك كثيراً على تكوين فكرة أسمى عن الحبّ، في النّهاية نحن بخير مع الإبهام والسبّابة لكن بخير بشكل مختلف ولا حيلة للحبّ أمام طوارئ مشابهة. ليس عندما نكون بخير. فدائماً حين يكون العضو المعتوه في بحث عن قشرة يحكّ نفسه عليها ويتعمّد بمخاطها وحين لا يُفلح في إيجادها فإنّه يحافظ على تورّمه دون أن يفقد صوابه. عندها فقط ينشأ الحبّ الحقيقيّ الذي ينأى

بنفسه عن القضايا السّافلة بإضافة القليل من طبّ الأقدام والتّدليك الذي لا علاقة مباشرة له باللّذة التي تعرفونها فلن يعود لديَّ شكّ في نقاء الحبّ. إنّها اللّامبالاة نفسها التي تلقّيت بها خبر موتها ذات ليلة وأنا في بيتها. لامبالاة خفيفة بسبب عاطفة فقدان مصدر مداخيلي. ماتت وهي تأخذ حمّاما فاتراً كما جرت العادة قبل استقبالي، كان ذلك يليّنها. آه، حين أفكّر كيف كان عليها الانتظار قليلاً كي تكون بين ذراعيّ، انقلب الحوض وساح الماء في كلّ مكان ووصل إلى الجارة السّفليّة التي أعلمت. لم أكن قبل الآن أعتقد أنّي أعرف هذه الحكاية. لا بُدَّ أنّها امرأة لأنّ العكس كان سيُفتَضح في الحيّ. صحيح أنّه بالنّسبة إلى كلّ ما له علاقة بالمسائل الجنسيّة كنّا دائماً منغلقين في منطقتنا، لا أدري كيف تتمّ الأمور هذه الأيّام. احتمال قويّ أن يكون إيجاد رجل حيث يجب أن نجد امرأة مستبعد ومنسيّ من قبل القلّة التي لديها علم بالأمر. كما يُحتمل أن يكون الجميع على دراية ما عداي. لكن هناك أمر يضايقني حين أطرح على نفسي الأسئلة فيما يتعلّق بهذا الموضوع، هل مرّت حياتي دون حبّ؟ أم إنّي عرفته حقّاً مع «روث»، ما أؤكّده هو أنّي لا أنوي إعادة التّجربة خصوصاً مع الحدس الذي لديَّ بأنّها تجربة مثاليّة وفريدة من نوعها، مكتملة ونادرة. يهمّني أن أحتفظ بذكريات لا يشوبها التهكّم في قلبي الذي يأخذ في الرّكض من حين إلى آخر وراء اللّذة المزعومة التي تمنحها الثّقوب الوحيدة. لا تحدّثوني عن الخادمة. لقد أخطأت بالتّعريج على ذكرها. كانت تجربة أسبق في حياتي. مولوي أو الحياة دون خادمة. كلّ هذا لأشير إلى أنّ لقائي بـ «لوس» وكوني حككتُ نفسي عليها بطريقة ما لا يعني شيئاً فيما يتعلّق بجنسها. أودّ الاستمرار في التصديق بأنّها امرأة عجوز. أرملة مهجورة ويابسة، وأنّ «روث» هي امرأة أخرى فقد كانت أيضاً تتحدّث عن الرّاحل زوجها واستحالة تلبيته لرغباتها المسعورة. هناك أيّام مثل ذلك المساء، تختلط في ذاكرتي فلا أرى فيها غير عجوز جافّة واحدة مسطّحة ومكلوبة بفعل الحياة. والربّ يسامحني لأنّي أذيع أسرار ارتياعي العميق. إنّ صورة أمّي تلحق بصورهنّ أحياناً، أمر لا

يُحتَمل ولا يبعد كثيراً عن الإحساس بالصَّلب. لا أدري لماذا ولا يهمّني أن أعرف ماذا يعني ذلك. أخيراً رحلتُ عن «لوس» في ليلة حارّة خانقة، لا هواء فيها. لم أودّعها، ربّما كان علَيَّ القيام بذلك كأضعف الإيمان. من جهتها لم يكن في متناولها استبقائي بغير الشّعوذة. لا بُدَّ أنّها رأتني أغادر. أنهض، أتناول عكازيّ وأنطلق في مواجهة الهواء متّخذاً منهما مرتكزاً للمضيّ قدماً. لا بُدَّ أيضاً أنّها رأت الباب يوصد خلفي. فهو يُغلَق من تلقاء نفسه بفضل نابض موصول به. لقد أدرَكَت دون شكّ أنّي ذهبت. فهي تعرف ماذا يعني أن لا أكتفي بوضع أنفي فقط في الخارج وأدخله بعد ثانية واحدة. لم تحاول منعي لكنّها ربّما جلست بجوار قبر الكلب الذي هو قبري بشكل أو بآخر والذي لم تنثر فوقه بذور العشب كما تصوّرتُ بل أزهاراً صغيرة من كلّ الألوان، ونباتات متسلّقة منتقاة بعناية بصورة تجعل من بعضها تتوهّج حين ينطفئ البعض الآخر. أحسستُ بذلك. تركتُ لها درّاجتي التي قرّرتُ التوقّف عن حبّها متّهماً إيّاها بأنّها آلة شيطانيّة وأنّها هي السّبب في كلّ المآسي التي تعرّضتُ إليها حديثاً. كنتُ ربّما أخذتها معي لو أنّي أعلم مكانها أو حتّى ما إذا كانت تصلح للسّير. لكنّها أشياء أجهلها. كنتُ خائفاً ومشغولاً بالتّرديد بصوت خافت، هيّا اهرب مولوي! خذ عكّازك واهرب! لقد تطلّب فهمي للصّوت وقتاً طويلاً لأنّي أسمعه منذ مدّة طويلة، لعلّي كنتُ أفهمه بالمقلوب لكنّي فهمتُه وهذا في حدّ ذاته إنجاز جديد. بدا لي أيضاً أنّ رحيلي ليس نهائيّاً بالضّرورة وأنّه ربّما في إمكانه أن يعيدني بفعل حلقة معقّدة لا شكل لها إلى إقامة «لوس» يوماً من الأيّام وأنّي لستُ أعيش نهاية الطّريق على أيّ حال. في الخارج كان هناك ريح. كان عالماً آخر وبما أنّي أجهل تماماً أين أنا وأيّ اتّجاه علَيَّ أن أسلك فقد سلّمتُ نفسي للرّيح تحملني حيث تذهب. معلّقاً بين عكّازَيّ رحتُ أدفع بنفسي إلى الأمام، كنتُ أشعر بالرّيح تساعدني، تلك الرّيح الصّغيرة التي لم أدرِ من أيّ حيّ كانت تهبّ. أمّا النّجوم فلا تحدّثوني عنها، كنتُ أميّزها بشكل سيّئ رغم دروس الفلك التي تلقّيتها. احتميتُ بأوّل مأوى صادفني إلى غاية طلوع الفجر لأنّي كنتُ على علم أنّ أوّل

شرطيّ سيصادفني سيسدّ طريقي وسيسألني السّؤال ذاته الذي لم أجد له إجابة أبداً. لا يمكن أن يكون مأوى بمعنى الكلمة فبعد قليل سيأتي رجل ليطردني منه. رغم أنّ المكان يسع كلينا. أظنّ أنّه حارس ليليّ، كان موكولاً إليه مهمّة حراسة لا أدري أيّ أشغال حفر. رأيتُ مجمرة. أُفُق الهواء، كما يُقال، يجب أن يكون بارداً. استقرّ بي المقام عند درجات سلّم منزل فقير، إذ لم يكن له باب أو أنّ الباب لا يُفتح. لا أدري. قبل الفجر بدأ ذلك المنزل الفقير يُخلى، أناس ينزلون الدّرجات. التصقتُ بالجدار. لا أحد انتبه إلى وجودي. لم أتعرّض إلى الأذى. أنا أيضاً خرجتُ إلى المدينة عندما بدا لي الخروج آمناً. ورحتُ أبحث عن معلم أعرفه يسمح لي بالقول أنا في مدينتي. وأنّي كنتُ فيها طوال الوقت. استفاقت المدينة ونشطت. ومنذ البداية بلغ الضّجيج مستوى مُحترماً. لكن وأنا أتأمّل بنايتين عاليتين التفتُّ حولي وانزلقت بينهما. فقط بعض النّوافذ الصّغيرة من الجانبين. واحدة في كلّ طابق. متقابلة ومتناظرة. إنّها نوافذ العيادات بلا شكّ. من حين إلى آخر هناك أشياء تفرض نفسها على المرء بفعل نظريّة البداهة، يحدث ذلك بصورة خارجة عن إرادتنا ودون أن نعرف لماذا. الممرّ لم يكن يفضي إلى شيء، إذن هو ليس معبراً بل طريقاً مسدوداً. عند نهايته كانت هناك دعامتان للتّعزيز، لا ليست هذه هي العبارة. واحدة تقابل أخرى مغمورتان بالقاذورات والبراز. براز كلاب ومعلّميهم، بعضه جافّ والبعض لا يزال رطباً. آه وتلك الصّفحات التي لا أحد سيقرؤها. أو ربّما لا أحد قرأها. ينبغي أن يكون المكان مرتعاً للجماع وتبادل العهود في اللّيل. انزويتُ في أحد الأركان واستندتُ إلى الجدار. كنتُ أفضّل الاستلقاء، على كلّ لا شيء أجبرني على عكس ذلك. في الوقت الحاليّ اكتفيتُ بالاستناد إلى الجدار، قدماي متباعدتان، في وضعية انزلاق، لكن لديَّ نقاط ارتكاز أخرى، طرفا العكّازين. بعد دقائق عبرتُ السدّ نحو الضفّة الأخرى حيثُ رجّحتُ بأنّ وضعي سيكون أفضل وارتحتُ بالطّريقة نفسها، وضعيّة الضّلع المقابل، ولوهلة أحسستُ حقّاً أنّي أفضل. ثم سرعان ما تأكّدتُ بأنّي واهم. بدأ بالهطول رذاذ خفيف

وانتزعتُ قبّعتي لأبلّل جمجمتي المُجعّدة المتصدّعة المُحترقة. المحترقة! انتزعتها أيضاً لأنّها تؤلمني في رقبتي بفعل ضغط الجدار. كان لديَّ إذن سببان لنزعها. سببان ليس أكثر. سبب واحد لم يكن ليدفعني لاتّخاذ القرار فيما أظنّ، رميتها غير مُكترث بحركة سخيّة فعادت إليَّ سيراً على حبلها أو رباطها لا أدري. وبعد وثبات صغيرة همدت بمحاذاة أحد جانبَيّ. في النّهاية اتّخذتُ وضعيّة التّفكير. أي الاستماع بانتباه. احتمال ضعيف أن يُعثَر عليَّ هنا. كنتُ في سلام لفترة طويلة، الفترة التي أتحمّل معها البقاء في سلام. ولوهلة تصوّرتُ أنّ الصّواب هو أن أتّخذ من ذاك المكان سنكناً يؤويني. لوهلة. أخرجتُ سكين الخضر وشرعتُ في فتح معصمي، إلّا أنّ الألم غلبني بسرعة، صرختُ بادئ الأمر. ثمّ توقّفت. طويتُ السكّين وأعدته إلى جيبي. خيبتي لم تكن كبيرة ففي النّهاية لم أتوقّع نتيجة أخرى. هذا ما حدث. لكن الحياة برمّتها مبنيّة على تكرار الجرم على ما يبدو. الموت أيضاً ينبغي أن يكون نوعاً من أنواع الجريمة التي تتكرّر. لا غرابة. هل قلتُ إنّ الرّيح قد هطلت؟ مطر خفيف هطل، هذا يقلّص تماماً من إمكانيّة أن تكون الرّيح هي التي هطلت. أملكُ ركبتين ضخمتين، اكتشفتُ ذلك وأنا أراهما لمّا هممتُ بالنّهوض. ساقاي مخرّبتان بالعدل مع ذلك كنت أنهض من حين إلى آخر. ماذا تقولون في هذا؟ عليَّ من حين إلى آخر أن أذكّر بوجودي الحالي الذي لا تُقدّم القصّة التي أرويها فكرة ضافية عنه. بل من بعيد جدّاً فقط، ما يكفي ليجوز القول، كيف لم تنتهِ حياة كهذه؟ أوه، يا لهذه اليوميّات. ألا يحسن أن تكون قد توقّفت منذ فترة. أن يكون لديَّ ركبتان عظيمتان أو أن أنهض من وقت إلى آخر، ماذا يمكن أن يعني ذلك. أوّلاً أنا أقدّم التقارير عن طواعية، لمّا عبرتُ السدّ إذن كنتُ نصف منتصب نصف ممدّد، فقد كانت ساعة نومي. انتبهوا جيّداً، لقد اتّجهتُ نحو الشّمس لأنّي لم أفلح في القيام بما هو أفضل، فقد هدأت الرّيح، ربّما ما أسمّيه الشّمس هو ببساطة الحيّ الأقلّ عتمة. لم يكن ثمّة سوى غيمة واحدة تحجب السّماء من سمت الرّأس إلى الأفق، من تلك الغيمة نزل المطر الذي تخيّلته. لاحظوا

كيف أنّ الأمور تتقاطع. أمّا أيّ الأحياء هو أقلّ عتمة فهذه مسألة يصعب تحديدها، فالسّماء تبدو من الوهلة الأولى داكنة بشكل متساوٍ. لكن مع القليل من العناء توصّلتُ إلى نتيجة، أقصد بأنّي اتّخذتُ قراراً في هذا الشّأن، ساعدني ذلك في مواصلة طريقي قائلاً، أنا أتّجه نحو الشّمس أي نحو الشّرق أو الجنوب، إذ لستُ في حمى «لوس»، أنا في قلب انسجام مُهيأ مسبقاً تنبعث منه موسيقى عذبة. عذبة جدّاً للذي يحسن الإنصات إليها. النّاس يعبرون مُسرعين متضايقين، بعضهم تحت المطريّات والبعض الآخر يحتمي بصورة أقلّ نجاعة بمعاطفهم المُشمّعة. رأيتُ آخرين يحتمون بالأشجار والواقيات المُقبّبة للواجهات، بين أولئك الأكثر شجاعة أو الأقلّ هشاشة ممن يروحون ويجيئون ومن بين أولئك الذي يتوقفون كي لا يبتلّوا أكثر. عديدون يقولون في أنفسهم، من الأفضل أن نفعل مثلهم، والمقصود بـ«هم» الآخرون. الفئة الأخرى التي لا ينتمون إليها. على الأقلّ هكذا أفترض. كما يجب أن تكون هناك فئة فخورة بقدراتها على الخروج من المآزق معبّرين عن سخطهم حيال الطّقس السيّئ الذي عكّر صفوهم. وقعت عيني على شيخ شاب يرتعش تحت ظُلّة. بدا لي بائساً. ذكّرني فجأة بالمشروع الذي تشكّل يوم التقيتُ «لوس» وكلبها. ذلك اللّقاء الذي منعني من أن أمسك بزمام أموري. سرتُ نحو الشّيخ مقلّداً هيئة من يقول في نفسه، هذا الرّجل ذكيّ وعلَيَّ أن أقلّده فيما يفعله. إنّما قبل أن أوجّه إليه الحديث الذي أردتُه طبيعيّاً متمهّلاً، خرج تحت المطر وابتعد، فقد كان كلاماً قادراً ليس فقط على استفزازه كأقلّ ما يمكن بل على إدهاشه. لذلك على الكلام أن يوضع في محلّه بالشّكل المناسب والدقّة اللّازمة. أعتذر عن هذه التّفاصيل لكنّنا منذ قليل تقدّمنا بسرعة. بسرعة متّسقة، دون أحكام مسبقة أو إسقاطات في مواضع نتنة تستوجب الدقّة. ينتج عنها بدورها نوع من التّماثيل الكبيرة المصقولة بتقزّز لا يقلّ حجماً. أشباح في لوحة. هذا ما يحتاج إليه الإنسان كي يكون مركزاً للكون. وهكذا وجدتُ نفسي وحيداً مرّة أخرى تحت أحد الأسقف. لم يخطر أنّ هناك من سينضمّ إليّ مع ذلك لم أقصِ

هذا الاحتمال، إنّه الكاريكاتير الأمثل في تلك الحالة. وكنتيجة مكثتُ في مكاني. كنتُ قد جلبتُ من منزل «لوس» القليل من أدوات المطبخ، لم تكن ذات قيمة، بعض ملاعق القهوة العملاقة في أغلبها، وأغراضاً أخرى لا أعرف فيمَ تُستَعملُ لكنّي على يقين أنّ لها قيمة بينها ما يعاود الظّهور أمامي بين الحين والحين وهي عبارة عن علامتيْ X متّحدتين في نقطة التقاطع بواسطة قضيب، وهي تشبه قليلاً رافعة حطب؛ مع اختلاف واحد طفيف هو أنّ الـX التي في رافعة الحطب ليست X مثاليّة بل مبتورة من الأعلى بينما الـX التي في الأشياء الصّغيرة التي أتحدّث عنها مثاليّة تماماً. أعني أنّها متكوّنة من علامتَيْ V متناظرة. إحداهما مفتوحة إلى الأعلى ككلّ V والأخرى مفتوحة صوب الأسفل أي مكوّنة من أربع V متساوية بدقّة متناهية، واثنتين أخريين إحداهما على اليمين والأخرى على اليسار مفتوحتان تناسباً إلى اليمين وإلى اليسار. خرجت عن الموضوع بحديثي عن اليمين واليسار والأعلى والأدنى. لأنّ تلك الأشياء لا يبدو أنّها تملك خاصيّة معيّنة أو نقطة ارتكاز واضحة فهي تحافظ على توازنها مهما كان الجانب الذي توضع عليه، الأمر الذي لا نجده في رافعة الخشب. ما زلتُ أحتفظ بهذا الشّيء العجيب ولم أفلح في بيعه في أحلك ظروفي، إذ لم أفهم لِمَ قد يصلح تحديداً ولم أكوّن في شأنه فكرة. من حين إلى آخر كنتُ أستخرجه من جيبي وأرمقه بنظرات استغراب، لن أقول نظرة حانية لأنّي غير قادر على أن أُكنّ شعوراً كهذا، لكن لفترة طويلة ظلّ يحرّك في داخلي شعوراً بالهيبة، أظنّ. أنا متأكّد بأنّه ليس غرضاً للاعتزاز بل له مهمّة يقوم بها ما زالت غامضة بالنّسبة إليّ. يمكنني بالتالي أن أحاوره متى شئت دون خوف من خطر محدق. فعدم المعرفة هو لاشيء وعدم إرادة المعرفة هو أيضاً لاشيء. لكن من عدم القدرة على المعرفة، ومعرفة عدم القدرة على المعرفة، يمرّ السّلام إلى روح الباحث العديم الفضول. من هنا تبدأ عمليّات القسمة. اثنان وعشرون على سبعة مثلاً، ومن هنا تمتلئ الكراريس أخيراً بالأرقام الصّحيحة. لكن لا أودّ الجزم في شيء له صلة بذلك. وإن كان يبدو لي غير قابل للجدل.

ذاك أنّي - مقتنعاً تماماً بقوّة الاحتمالات - خرجتُ من تحت الظُّلّة ورحتُ أتأرجح ببطء نحو الأمام مُعرّضاً جسمي للهواء. منهجيّة رجال العكّازَيْن هي التالية، هذا الأمر حائز على كذا. ذاك الأمر ينبغي أن يحوز كذا. إنّه ما يُسمّى بالتّحفيز. فهي سلسلة محاولات تحليق محاذٍ للأرض. نطير ونحطّ لا كالذين يزعمون الرّشاقة ولا يمكنهم تحرير ساقٍ إلّا إذا كانت الأخرى ملامسة للأرض. ومهما بلغت سعادتهم بذهابهم وإيّابهم فلن تعادل أبداً سعادة العرج لديَّ. لكنّها في النّهاية مجرّد أفكار مبنيّة على التّحليل فحسب. ومع قلقي الدّائم في شأن أمّي ورغبتي في معرفة ما إذا كانت قريبة، تجعل من تلك الأفكار أقلّ وطأة، وربّما بسبب الأدوات التي في جيبي. لا أظنّ. ثمّ لأنّها هموم قديمة لا يسع الذّهن أن يقلقلها، هو فقط في حاجة إلى تغييرها من وقت إلى آخر ليتمكّن من استحضار القديمة منها متى شاء بقوّة وإصرار كافِيَيْن. لكن هل نحن في وضع يسمح بالحديث عن هموم قديمة أو حتّى جديدة؟ لا أتصوّر رغم أنّ البرهنة صعبة. ما أجزم به حقّاً دون خوف من ــــــــ ، دون خوف، هو أنّ معرفة المدينة التي أنا فيها أو ما إذا كنت سألتقي أمّي قريباً لنُسَوّي مسائل عالقة تهمّنا أم لا، لم يعد يعنيني. بل لقد فقد الأمر متانته بالنّسبة إليّ دون أن يتلاشى نهائيّاً. في الأخير الأمر ليس هيّناً إلى هذه الدّرجة وأنا ما زلتُ متمسّكاً به. تمسّكتُ به طوال حياتي على ما أظنّ. هذا على اعتبار أنّ في وسعي التمسّك بأمر ما. كنتُ متشبّثاً طيلة حياتي بتسوية القضايا العالقة بيني وبين أمّي لكنّي لم أفعل. وكنتُ كلّما حدّثتُ نفسي بأنّه لم يعد هناك متّسع من الوقت وأنّه قد يفوت الأوان أو أنّه قد فات فعلاً ولم يعد في المستطاع تسوية المسائل أشعر بأنّي أزيغ نحو أوهام أخرى. أكثر من مجرّد كوني لا أعرف اسم هذه المدينة يبدو أنّي تأخّرتُ في الخروج منها. هل هي حقّاً المدينة التي انتظرتني فيها أمّي وربّما ما زالت تنتظرني فيها. يخطر لي أنّي لو مضيتُ في خطّ مستقيم فسينتهي بي الأمر بالخروج منها بالضّرورة. هذا ما سخّرتُ نفسي له بكلّ ما أملك من علم، آخذاً بعين الاعتبار التحرّك الضّئيل جهة اليمين للصّفاء الذي يقودني. مع حلول

اللّيل خانني الإبحار لكنّي تجاسرتُ على تخطّي المتاريس واستطعت القيام بربع دائرة على الأقلّ. غير أنّه يجدر القول إنّي لم أختر محطّات استراحتي فكانت عبارة عن وقفات قصيرة، فقد أحسستُ بكعبي يذوب بلا شكّ. في الرّيف يختلف الأمر، إنّها عدالة أخرى. رجال عدالة آخرون، ما إن تخطّيتُ المتاريس حتّى أدركتُ أنّ السّماء بدأت تنجلي قبل أن تُطوى تماماً في الكفن الآخر، كفن اللّيل. نعم، لقد تمزّق نسيج الغيوم تاركاً سماءً مثقوبة شاحبة ومحتضرة، أمّا الشّمس فبالكاد كانت تُلاحَظ كقرص، فلم يعد يبدو منها غير شرارات صفراء ووورديّة تُقذف ناحية سمت الرّأس، تسقط وتقذف ثانية أضعف فأضعف لكن دائماً واضحة ومُستعدّة لتنطفئ قليلاً، هذه الظّاهرة إن كانت ذاكرتي محلّ ثقة هي إحدى خصائص جهتي، وأنا لم أغادرها أبداً من قبل. لا لم أحاول الفرار يوماً وحتّى حدود منطقتي أجهلها. أتصوّر أنّها مترامية الأطراف غير أنّ هذا الاعتقاد يظلّ مجرّد اعتقاد خالٍ من الجدّية. فلو أنّ حدود منطقتي كانت في متناول خطواتي لنبّهني إلى ذلك نوع من التدنّي الذي كان سيغمرني. المناطق لا تنتهي فجأة. بل تنصهر فيما بينها دون أن نشعر. لم ألحظ أمراً مشابهاً. مهما ابتعدتُ في هذا الاتجاه أو ذاك كانت السّماء دائماً ذاتها والأرض ذاتها بالضّبط يوماً بعد يوم، ليلة إثر ليلة. من ناحية أخرى إن كانت المناطق تنصهر فيما بينها بشكل ملحوظ (الأمر الذي ينبغي التثبّت منه) فهناك احتمال أن أكون قد خرجت من جهتي المرّات العديدة ظنّاً منّي أنّي لم أفعل. مع أنّي أحبّذ البقاء عند يقيني الذي يقول لي، مولوي، منطقتك امتدادها كبير. ولم يسبق لك أن تخطّيت حدودها. ولن يُتاح لك أن تفعل ومهما تُهت وسط تلك التخوم البعيدة فسيكون الأمر دائماً هو نفسه بدقّة متناهية. يقودني ذلك إلى التّسليم بأنّ تنقّلي لا يدين بشيء للأماكن التي تجعله يختفي بل تعود إلى أمر آخر. مثلاً إلى الطّريق المخفيّة التي تحملني فوق اهتزازات لامرئيّة من التّعب والرّاحة والعكس صحيح. في الوقت الحالي لم أعد أتسكّع ولا في أيّ مكان. حتّى إنّي أكاد لا أتحرّك من مكاني، مع ذلك لا شيء تغيّر، ثمّ إنّ حدود

غرفتي، سريري، جسمي كلّها بعيدة عنّي أكثر من حدود جهتي وأنا في أوج أبّهتي. والدّورة مستمرّة حاملة معها الثّغرات ومعسكرات العراء في مِصْرٍ لا أطراف له. دون أبناء أو أمّ، وحين أرى يديّ فوق الملاءة تتسلّى بخزي فهما ليستا لي. أقلّ من ذي قبل. لم يعد لي ساعدان. إنّهما زوج يلعب بالملاءة ألعاباً غراميّة ربّما. ستركب إحداهما الأخرى ربّما. لكن هذا لا يدوم طويلاً إذ سرعان ما استقطبتهما لنفسي ثانية. إنّه السّلام. ساقي يحدث معها الأمر نفسه. ألحظها عند نهاية السّرير إحداهما بإصبع والأخرى دون إصبع. هذا جدير بالذّكر. لأنّ ساقَيَّ اللتين تعوّضان ساعديّ اللذين تحدّثتُ عنهما منذ قليل قاسيتان. كلتاهما قاسية. وحسّاسة جدّاً ولا يسعني تناسيهما كما قد أتناسى ساعدَيّ. على الأقلّ هما سليمان. مع ذلك تناسيتُ ساقَيّ واستغرقتُ أراقب هذا الزوج الذي يتبادلُ النّظرات في منأى عنّي. أمّا ساقاي فعلى فرض أنّهما عادتا ساقين فلن أضمّهما إليَّ. لأنّي لا أقدر على ذلك، ستظلّان بعيدتين عنّي لكن على نحو ألطف، أتصوّر. انتهى التّذكير. أعتقد أنّي لو خرجتُ صراحة من مدينتي ثمّ عدتُ لأتأمّلها في جزء من كليّتها، أعتقد أنّي كنتُ سأحسم فيما إذا كانت مدينتي أم لا. لا شيء حصل من كلّ هذا، تأمّلاتي راحت أدراج الرّياح، لم أستنطق مدينتي بأيّ شكل، لعلّي كنتُ فقط أستدرج مصيري للعودة إليها. هذا كلّ ما في الأمر. لعلّي كنتُ أتبلّد بتأمّلي لها. لا يراودني الإحساس بالنّدم على درّاجتي، التقدّم لا يسبّب لي القرف كما قلتُ، متأرجحاً فوق الأرض بقليل في الظّلام عبر الدّروب المقفرة للرّيف، وقلت لنفسي، إنّ حظوظ قلقي ضعيفة بل أنا من يسبّب القلق لكلّ من يراني، علَيَّ الاختباء في الصّباح لأنّ النّاس يستيقظون نشطين جاهزين متعطشين لتلقّي الأوامر وللجمال والعدالة مطالبين بالبديل، الخطر يكمن بين التّاسعة ومنتصف النّهار. فابتداءً من منتصف النّهار تزدحم جميع الأشياء، والعتاة يعودون متخمين، لا شيء مثاليّ لكن لا بُدَّ أنّهم قاموا بعمل مَرْضيّ، هناك ناجون بلا شكّ وهم بطبيعة الحال غير مؤذين. كلّ يحصي جرذانه، بعد الوليمة مباشرة يعود كلّ شيء إلى نصابه.

الاحتفالات، التهاني، الخطب، مسائل لا تعني شيئاً أمام جسارة الصّباح، إنّها مجرّد رياضة لا أكثر. ثمّ بالطّبع حوالي الرّابعة أو الخامسة يأتي فريق المساء، جاء دور اليقظين ليضربوا، لكنّها نهاية اليوم، الجدران تطول والجدران تكثر، إنّها الفترة التي تُحصد فيها الجدران المائلة برصانة. الحيطان في تلك الفترة تكون مستعدّة للانبطاح فهي لا تعود تخفي شيئاً، أمّا نحن فلا نتخفّى إلّا بدافع الخوف. لا تنظر إلى اليمين ولا إلى اليسار. نتخفّى فقط، لكن ليس إلى درجة إثارة السّخط، كريهين لكن لسنا نتنين، لسنا جرذاناً بقدر ما نحن ضفادع طين، ثمّ ها هو اللّيل الخطر هو أيضاً لكن ملائم للذين يعرفونه، للذين يعرفون كيف يتفتّحون فيه كعبّاد الشّمس، للذين هم أنفسهم ليلٌ، ليلاً نهاراً. لا، اللّيل ليس مشهوراً لكن مقارنة بالنّهار اللّيل مشهور خصوصاً مقارنة بالصّباح فهو يصبح بارعاً بشكل لافت. لأنّ التطهير الذي يحدث يؤمّنه الحرفيّون في الغالب، هم في الغالب من يقومون بذلك. جلّ السكّان لا يقومون بالتّطهير بل يفضّلون النّوم مطمئنين إلى أنّ الأشياء محسومة بعناية. نُعدم النّهار لأنّ النوم مقدّس خصوصاً في الصّباح بين الفطور والغداء. مسؤوليّتي الأولى إذن بعد قطع عدد من الأميال عند الفجر المقفر هو أن أجد ملاذاً أنام فيه لأنّ النّعاس عكس ما قد يبدو، هو ضرب من الحماية. فالنّوم وإن كان يثير غريزة القنص، يُفترض أنّه يخفّف غريزة القتل الفوري والدّمويّ. أيّ صيّاد في وسعه أن يؤكّد لكم ذلك. أمّا بالنّسبة إلى الوحش الذي يتنقّل أو يترقّب متربّصاً في مضربه فلا ينبغي أن تأخذنا به الرّحمة بينما ذاك المستسلم للنوم والذي تسهل مباغتته فإنّ هناك إمكانيّة كبيرة في أن يحظى بمشاعر التردّد التي تخفض ماسورة البندقيّة وتغمِد الخنجر، فالصيّاد في النهاية ليس سوى شخص ضعيف حسّاس في أعماقه بمخزون عالٍ من لطف وشفقة لا ترجوان سوى اللّحظة التي تفيضان فيها. إنّ دوابّ كثيرة شرّيرة تستحقّ الفناء تدين للنّوم الهادئ الذي يمنحه الإعياء إن هي تقضي بقيّة أيّامها في حديقة للحيوان، حيث الضّحكات البريئة للأطفال تنفجر هنا وهناك والقهقهات المتعقّلة للكبار أيّام الأحد

والعيد. فيما يخصّني كنتُ دائماً أفضّل العبوديّة على الموت أو الأحرى الحكم بالموت. لأنّ الموت وضع لم أهتدِ يوماً لتخيّله بصورة ضافية، الأمر الذي جعل منه غير قابل للدّخول بشكل مُستحقّ على الخطّ فيما يتعلّق بلائحة آلامي ونعمي. بينما الحكم بالموت لديَّ إزاءه تصوّرات توحي لي بالثّقة صواباً أو خطأ، يبدو لي أنّه مسموح لي بأن أنسّب الأمور وفقها في ظروف معيّنة. بودّي! أليست تصوّرات كالتي لديكم؟ هي تصوّرات لها صلة بالنطّ والعرق والارتعاش، تلك الأشياء التي لا تمنحك ذرّة صواب أو نقطة دم بارد واحدة. لكنّي قانع بها. وكي أرسم لكم صورة عن الخلط الذي في أفكاري في شأن الموت، أقول لكم بصراحة إنّي لا أقصي فرضيّة أن يكون الموت أفظع من الحياة بوصفها شرطاً. أجد طبيعيّاً إذن كوني لا أتسرّع في شأنه، وحين أندفع نحوه فإنّي حتماً سأعرف كيف أضبط نفسي في الوقت المناسب. إنّه عذري الوحيد. أنزلق إذن داخل حفرة نصف نائم نصف متنهّد. أبكي وأضحك وأنا أمرر يدي فوق جسمي لأتثبّت ممّا إذا كان هناك أمر تغيّر وأظلّ أنتظر حتّى يهدأ حماس الصّباح لأستأنف التوائي. أمّا ما الذي صرت عليه أو أين ذهبتُ خلال الأشهر والسنوات الموالية فهذا ما لا أملك نيّة إفشائه، لأنّي بدأتُ أضيق ذرعاً بكلّ هذا الابتداع الذي يدعونني إليه. لكن وكي أحبّر المزيد من الصّفحات سأقول إنّي أمضيتُ أوقاتاً على شاطئ البحر دون أن أتعرّض إلى أذى. هناك بين النّاس من لا يحبّ البحر فتراهم يفضّلون الجبال أو السّهول. عموماً لستُ في حال أسوأ قرب البحر. قسم كبير من حياتي تكسّر أمام هذا الهول المضطرب ذي الموج الصّاخب، الكبير، والمخالب الصّغيرة للزّبد. ماذا أقول بساق ممدّدة على الرّمل أو في مغارة، في الرّمل كنتُ منهمكاً أسيله بين أصابعي. أحفر فيه حفراً سرعان ما أطمرها أو أنّها تُطمر من تلقاء نفسها. أرمي به في الهواء على مدّ اليد، أو أتدحرج فوقه، أمّا في المغارة حيث اللّيل يغمرها بأضوائه أعرف كيف لا أكن في حال أسوأ ممّا كنتُ عليه في الخارج. إنّ مجرّد الابتعاد عن الأرض أو عدم ابتعادها عنّي وحده كفيل بأن يمنحني شعوراً بأنّها لم توجد لتخيّبني.

إضافة إلى أنّ هناك شعوراً لطيفاً يغمرني بسبب يقيني بأنّي لم أخطئ هذه المرّة وأنا أقرّر الاتّجاه الذي ليس علَيَّ اتّخاذه كي لا أغرق. لأنّي كنتُ دائماً أقول لنفسي، تعلّم المشي أوّلاً ثمّ بعد ذلك ستأخذ دروساً في السّباحة. لكن حذارِ من الظنّ بأنّ حدود منطقتي تقف عند السّاحل. إنّه خطأ جسيم. فقد كانت دائماً مؤلّفة أيضاً من هذا البحر وهذه الصّخور النّائئة والجزر البعيدة والأخاديد المخفيّة. لقد تنزّهتُ فيها جميعاً بواسطة نوع من القوارب دون مجداف، كنتُ صنعتُ له مجدافاً بنفسي. وأتساءل ما إذا كنت قد عدتُ من النّزهة، لأنّي وإن كنتُ أرى نفسي أخوض البحر وأبحر طويلاً في الزّورق فإنّي لا أرى العودة ولا الرّقص على الحطام ولا يمكنني سماع صوت احتكاك الهيكل القويّ على السّاحل. انتهزتُ فرصة إقامتي على ضفاف البحر لأجمع مؤونتي من حجارة المصّ. كانت حُصيّات لكنّي أسمّيها حجارة. هذه المرّة جمعتُ مخزوناً هامّاً. وزّعتها بالتساوي على جيوبي الأربعة ورحتُ أمصّها بالتّناوب. سبّب لي ذلك مشاكل حللتُها على النّحو التّالي، لنقل إنّ في حوزتي ستّة عشر حجر مصّ، أربعة في كلّ جيب من جيوبي الأربعة. جيبا البنطلون وجيبا المعطف، آخذ حجراً من الجيب الأيمن للمعطف وأضعه في فمي وأستبدله بحجر من الجيب الأيمن للبنطلون، أستبدله بدوره بحجر من الجيب الأيسر للبنطلون، أستبدله بحجر من الجيب الأيسر للمعطف، أستبدله بالحجر الذي في فمي، حالما أنتهي من مصّه. بهذه الطّريقة يكون لديَّ دائماً أربعة حجارة مختلفة في كلّ من جيوبي الأربعة. وحين تراودني الرّغبة في المصّ أنهل من جديد حجراً من جيب معطفي الأيمن وأنا على يقين أنّي لم أقع على الحجر السّابق نفسه. وبينما أمصّ أقوم بإعادة التّوزيع التي شرحتها للتوّ. وهكذا دواليك. لكن هذا الحلّ لا يمنحني سوى نصف الرّضا، إذ لا يفوتني أنّ هناك صدفة عجيبة تجعلني أدوّر الحجارة الأربعة نفسها. في هذه الحالة أنا أبعد ما يكون عن مصّ ستّة عشر حجراً، بل في الحقيقة لا أمصّ سوى أربعة حجارة بالتّناوب، لكنّي أخلطها جيّداً داخل جيوبي قبل الشّروع في المصّ وأخلط جيّداً قبل

القيام بعمليّة النّقل على أمل تعميم دوران الحجارة من جيب إلى آخر. لكنّه حلّ تقريبي تعوزه الدقّة ولا يمكنه أن يقنع لفترة طويلة رجلاً مثلي. استغرقتُ إذن في البحث عن شيء آخر. في البداية قلتُ، ماذا لو أنّ الحجارة أربعة أربعة، سيكون ذلك أفضل. أي بينما أمصّ آخذ الحجارة الثّلاثة المتبقية من الجيب الأيمن للمعطف وأضع مكانها الحجارة الأربعة التي كانت في الجيب الأيمن للبنطلون ومكان هذه الأخيرة أضع الحجارة التي في الجيب الأيسر للبنطلون ومكان هذه أضع الحجارة الأربعة التي في الجيب الأيسر للمعطف. ثمّ في الأخير مكانها أضع الحجارة الثّلاثة التي في الجيب الأيمن للمعطف مُضافاً إليها الحجر الذي في فمي حالما أنتهي من مصّه. أعتقد أنّي أتوصّل إلى نتيجة أفضل لو توسّلتُ هذه الطّريقة، إلّا أنّي غيّرتُ رأيي بعد تفكير جادّ. فقد اعترفتُ بيني وبين نفسي أنّ دوران الحجر في مجموعات مؤلّفة من أربع لا فرق بينها وبين دوران الحجارة واحداً واحداً، فلو أنّي متأكّد في كلّ مرّة من وجود حجارة مختلفة عن الحجارة السّابقة في الجيب الأيمن لمعطفي فإنّ الاحتمال ليس قائماً لا أقلّ ولا أكثر من كوني سأقع دائماً على الحجر نفسه داخل كلّ مجموعة رباعيّة، إذن بالتالي بَدَل مصّ الحجارة الستّة عشر بالتّداول كما خطّطتُ فإنّي في الواقع لا أمصّ سوى أربعة بالتّداول. تحتّم البحث إذن عن حلّ مغاير لأسلوب الدّوران. لأنّي لو استمررتُ في تدوير الحجارة بكلّ الطّرق المتاحة فإنّي سأقع بالضّرورة في إشكال رياضيّ. فكان بديهيّاً أنّي لو رفّعتُ في عدد الجيوب أكون في الآن نفسه قد أكثرتُ من حظوظ الانتفاع بالحجارة كما أرغب أي الواحد تلو الآخر إلى غاية استنزاف العدد. ثمانية جيوب بدل الأربعة التي أملكها مثلاً. على الأقلّ بهذه الطّريقة حتّى أعتى الصّدف الخبيثة لا يمكنها أن تمنع تناوبي على مصّ ثمانية حجارة على الأقلّ من ستّة عشر. عموماً يلزمني ستّة عشر جيباً كي أكون مطمئناً تماماً. وخلال وقت طويل كان علَيَّ أن أخلص إلى أنّي لن أصل إلى النّتيجة التي ارتهنتها بأقلّ من ستّة عشر جيباً، إلّا إذا حالفني حظّ خارق. إن كان من الجائز مضاعفة عدد جيوبي فهذا

لن يتحقّق إلّا إذا قسمتُ كلّ جيب إلى اثنين بواسطة دبابيس مزدوجة إن صحّ التّعبير. أفترض أنّ الرباعيّة تفوق قدراتي المتواضعة ولا أعتقد أنّي كنتُ سأرهق نفسي لأجل نصف معادلة، فقد بدأت أفقد حسّ المعادلة منذ انخرطتُ في هذه الحكاية والحقّ أقول إمّا الكلّ وإمّا لا شيء ولو أنّي أصررتُ في لحظة من اللّحظات على تحقيق نسبة من العدالة بين حجارتي وبين جيوبي بجعل هذه مساوية لتلك فهي تبقى في الأخير مجرّد لحظة. لأنّي، لأعترف، انهزمتُ. جالساً على الشّاطئ قبالة البحر وحجارتي السّتة عشر منشورة أمامي، وجدتني أتأملها بحيرة وغضب، وبقدر ما كنتُ أجلس بمشقّة على كرسيّ أو كنبة بسبب ساقي الصّلبة (تفهمون) فإنّي أجلس بسهولة على الأرض بسبب ساقي الصّلبة والأخرى الماضية في طريقها لتيبس هي أيضاً. أقول ماضية في طريقها كأنّها جيّدة، والحال أنّها فقط أفضل بقليل من شقيقتها. أحتاج إلى دعامة أضعها تحت باطن ركبتي (تفهمون) أسفل ساقي برمّتها. على كلّ، الأرض تنجز المهمّة جيّداً. وبينما أراقب حجارتي وأنا أجترّ حيل الغشّ النّزيهة في ألعاب الحظّ والتي تَبَيّن أنّها جميعاً باطلة، وأهشّم أكداس الرّمل الصّغيرة بقبضة يدي فينسكب الرّمل بين أصابعي على الشّاطئ وبينما أحبس النّفس على روحي وعلى جزء كبير من جسمي، ربّما داهم جسمي الموت وهو في كامل ألقه يوماً ما على حين غرّة، فأنتهي دون أن أرفّع في عدد جيوبي أو أنقص عدد الحجرات بل أكون فقط قد ضحّيتُ بنظريّة الرصّ، هذا الخاطر الذي اجتاحني فجأة كسورة من سور إشعيا وإرميا[11] والذي تطلّب منّي فهمه وقتاً طويلاً خصوصاً عبارة رصّ، تلك التي ظلّت مبهمة وقتاً طويلاً بالنّسبة إليّ لا سيّما أنّي لا أعرفها، لكن في نهاية الأمر ظننتُ بأنّي خمّنتُ أنّ كلمة رصّ لا يمكن أن تعني شيئاً مغايراً أو أفضل من كونه مجرّد توزيع للحجارة الستّة عشر على مجموعات مؤلّفة من أربعة كلّ جيب وأنّ رفضي لجميع الطّرق الأخرى هو الذي

11 - إشعيا وإرميا: أنبياء من بني إسرائيل.

بعثر حساباتي وجعل الإشكال بلا حلّ. بفضل هذا التّحليل، لا يهمّ إن كان سليماً أم لا، المهمّ أنّي بفضله توصّلتُ أخيراً إلى حلّ. ليس رشيقاً تماماً لكن على الأقلّ متين. متين للغاية. الآن وقد وُجد ويوجد دائماً حلول متينة لكن أكثر رشاقة من التي أحاول وصفها، لم يبقَ إلّا أن أصدق ذلك، وأن أكون حازماً في تصديقي له. وأظنّ مع القليل من العناد والمقاومة أنّي قادر على إيجادها بنفسي لكنّي كنتُ متعباً. متعباً إلى درجة أكتفي معها، بكلّ جبن، بأوّل حلّ أصادفه. ودون حوصلة للمراحل والمآسي التي سأمرّ بها قبل سدّ الثّغرات، ها هو حلّي بما فيه من قبح، ما علَيَّ فعله لأبدأ مثلاً، هو أن أضع ستّة حجارة في الجيب الأيمن للمعطف لأنّه يظلّ دائماً الجيب المانح. خمسة في الجيب الأيمن للبنطلون وأخيراً خمسة في الجيب الأيسر للبنطلون، هكذا يكتمل العدّ. خمسة ضارب اثنين مع ستّة يساوي ستّة عشر. ولا واحدة - لأنّه لا وجود لأخرى - في الجيب الأيسر للمعطف والذي هو في الوقت الحالي فارغ. فارغ من الحجارة أقصد، فمحتواها المعتاد موجود دائماً، إضافة إلى أشياء عرضيّة أخرى. أين تعتقدون أنّي أخفي سكّين الخضر وأدوات الأكل والقرن والبقيّة التي لم أسمّها بعدُ والتي ربّما لن أسمّيها أبداً؟ حسناً الآن يمكنني أن أشرع في المصّ. راقبوني جيّداً. آخذ حجراً من الجيب الأيمن للمعطف. أمصّها، ثمّ لا أعود إلى مصّها واضعاً إيّاها في الجيب الأيسر للمعطف، الفارغ، الفارغ من الحجارة طبعاً. آخذ أخرى من الجيب الأيمن للمعطف أمصّها ثمّ أضعها في الجيب الأيسر للمعطف، وهكذا إلى أن يفرغ جيب المعطف الأيمن إلّا من محتوياته الأصليّة القارّة والعرضيّة وتتحوّل الحجارة الستّة التي قمتُ بمصّها إلى الجيب الأيسر للمعطف. أتوقّف برهة لأفكّر لأنّي لستُ على استعداد لأرتكب حماقة. أحوّل الحجارة الخمسة التي في جيب بنطلوني الأيمن إلى الجيب الأيمن للمعطف الذي أصبح الآن فارغاً. وأستبدلها بدورها بستّة حجارة من الجيب الأيسر للمعطف. هكذا إذن يكون الجيب الأيسر للمعطف خاوٍ من الحجارة بينما الجيب الأيمن للمعطف لا يحتوي - بالمعنى الإيجابيّ

للكلمة – على حجارة لم آتِ على مصّها والتي سأشرع في مصّها بدورها. الواحد تلو الآخر وأنقلها من الجيب الأيسر للمعطف وأنا على يقين يناسب الطّرح الذي رتّبتُ أفكاري وفقه بأنّي لا أمصّ الحجارة السّابقة، بل أخرى، وحالما يفرغ الجيب الأيمن للمعطف (من الحجارة) وتكون الخمسة التي أتيتُ على مصّها قد تحوّلت إلى الجيب الأيسر للمعطف، أعيد التّوزيع كما أسلفت أو ما يناظره، أي أن أنقل إلى الجيب الأيمن للمعطف الذي بات جاهزاً للاستقبال الحجارة الخمسة التي في الجيب الأيمن للبنطلون. والتي سأستبدلها بالحجارة الستّة التي في الجيب الأيسر للبنطلون وأستبدلها بدورها بالحجارة الخمسة التي في الجيب الأيسر للمعطف. هكذا أكون جاهزاً للعود على البدء. هل أتابع؟ كلّا لأنّه من الواضح عند نهاية سلسلة المصّ والتّحويل أنّ الوضع الأوّل قد تركّز من جديد، أي أن أكون قد حصلتُ على الحجارة الستّة الأولى في الجيب المانح. الخمسة التالية في الجيب الأيمن لبنطلوني العتيق والخمسة الأخيرة في الجيب الأيسر من البنطلون، أي على ستّة عشر حجراً ممصوصاً للمرّة الأولى في تتابع رائع ومتناسق دون أن يكون أحدها قد امتُصّ مرّتين ودون أن يكون قد حُرم أحدها من المصّ. صحيح أنّي لا أطمع في مصّ حجارتي بالتّرتيب الأسبق نفسه وأنّ الأول والسّابع والثاني عشر من الدّورة الأولى مثلاً يمكن أن يكون السّادس والحادي عشر والسّادس عشر من الدّورة الثانية، تناسباً، في أحلك الظّروف. مع أنّه يظلّ هناك خللٌ لا يمكنني اجتنابه، وإن كان لا بُدَّ في عموم الدّورات أن يسود نوع من التّعقيد فعلى الأقلّ في صلب كلّ دورة على حدة أنا مطمئنّ. حسناً مطمئنّ في حدود ما يتيحه هذا النّوع من النّشاط. إذ كي أضمن تشابهاً مثاليّاً بين الدّورات من حيث ترتيب الحجارة التي تدخل فمي والله وحده يعلم أنّي حريص على ذلك، فسيكون علَيَّ دائماً توفير ستّة عشر جيباً أو ترقيم الحجارة. هنا بدَل أن أضيف اثني عشر جيباً أو أرقّم الحجارة سأفضّل الاكتفاء بالطمأنينة النسبيّة التي سأنعم بها وأنا أخوض كلّ دورة بصورة معزولة. لأنّ الحكاية ليست بالأمر الهيّن، إذ علَيَّ إضافة

إلى ترقيم الحجارة أن أحفظ رقم الحجر الذي ألقي به في فمي وأن أبحث في كلّ مرّة عن الرّقم الصّحيح داخل جيوبي، الأمر الذي لا بُدَّ أنّه سيفسد مذاق الحجر في وقت وجيز. إذ لا شيء يضمن لي أنّي لن أخطئ، إلّا إذا تسلّحتُ بدفتر أسجّل فيه رقم الحجر الذي انتهيتُ من مصّه للتوّ. وهو أمر لا أظنّني قادراً عليه. يظلّ الحلّ المثالي هو التزوّد بستة عشر جيباً معلوماً يحتوي كلّ واحد منها على حجره الخاصّ. في هذا الحالة لن أكون في حاجة إلى أرقامَ ولا إلى تفكير بل فقط وأنا أمصّ حجراً مُعيّناً إلى أن أنقل الحجر الآخر كأنّه يتقدّم في طابور دائريّ. عمل حسّاس لو شئتم لكنّي أطيقه على الأقلّ، هذا إضافة إلى مزيّة تناول الحجر القادم من الجيب نفسه دائماً كلّما عنَّ لي المصّ. على هذا النّحو أكون مطمئناً لا فقط داخل كلّ دورة معزولة بل في عموم الدّورات أيضاً. إنّما على علله أنا سعيد بحلّي. نعم سعيد كفاية لأنّي توصّلتُ إليه بمفردي. ورغم أنّه أقلّ توهّجاً ممّا ظننتُ في البداية، مأخوذاً بحرارة الاكتشاف فإنّ بشاعته تظلّ كاملة على الأقلّ. ما يجعله رثّاً في رأيي هو أنّ التوزيع غير العادل للحجارة قد تعذّر لأسباب جسديّة بحتة. وصحيح أنّ هناك نوعين من التّوازن يسودان في وقت معيّن خلال البدايات من كلّ دورة أي بعد الحجر الثالث وقبل الرابع، لكنّه أمر لا يدوم طويلاً. بقيّة الوقت أشعر بثقل الحجارة يسحبني تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، إذن في المحصّلة لم أصرف النّظر عن نظريّة وأنا أُسقِط خاصيّة الرصّ، بل أكثر من ذلك لقد صرفتُ النّظر عن حاجة بشريّة. من جهة أخرى مصّ الحجارة كما فسّرت (ليس أيَّ مصّ) هو في اعتقادي حاجة إنسانيّة جسديّة هو أيضاً. نحن إذن إزاء مواجهة بين حاجتين جسديّتين ليستا البتّة متجانستين، إنّ بين الأشياء العديدة التي قد تحدث، أن أفقد اتّزاني لكنّي في الأخير أسخر بجنون من فكرة أنّي فقدتُ توازني، مائلاً إلى اليمين واليسار، إلى الأمام والوراء بصورة عاديّة، تماماً كما أصبح سيّان لديَّ أن أمصّ حجراً مختلفاً في كلّ مرّة، أو أن أمصّ الحجر نفسه منذ قرون، إذ إنّ لديه المذاق نفسه. وكوني التقطتُ منها ستة عشر فليس لأثقل كاهلي بطريقة أو بأخرى بل لأمصّها

بالتّناوب إنّما ببساطة كي أحصل على مؤونتي الصّغيرة حتّى لا تعوزني الحجارة أبداً. لكن في أعماقي لا أكترث بعوزي إلى الحجارة حين لا يكون لديَّ منها، هذا يعني أنّي لا أملك منها، لا أحزن أو لنقل قليلاً فقط، والحلّ الذي ارتأيتُه في الأخير، هو أن أقذف بكلّ الحجارة في الهواء إلّا واحداً أحتفظ به مرّة في هذا الجيب ومرّة في الآخر، والذي لن يطول عمره إذ سرعان ما سأفقده أو أتخلّص منه أو أبتلعه.

كان ساحلاً برّيّاً لا أذكر أنّي تضايقتُ فيه بشكل جادّ. كيف يُراد السّوء لنقطة سوداء وسط رحابة الرّمل الشّاحب؟ يُقترب منها هذا صحيح لكن ليُرى إن كان غرضاً ذا قيمة أتت به عاصفة عقِب غرق لكن حين يتّضح أنّ الحطام يعيش في حالة جيّدة رغم أنّه رثّ فإنّهم يشيحون عنه. تأتي نساء مُسنّات وأخرى شابّات لجمع الحطب فتستثيرهنّ رؤيتي لبعض الوقت لكنّهنّ لا يتغيّرن وفي النّهاية عرفوا ما أكون فاتّخذن منّي مسافة. أظنّ أنّ إحداهنّ أفلتت من المجموعة يوماً، وجاءتني، قدّمت لي ما يُؤكل وبقيت أنظر إليها دون إجابة إلى أن انسحبت، في تلك الفترة أظنّ أنّ حادثاً من هذا النّوع قد وقع. أو ربّما خلطتُ بين ذاك وبين إقامة في مكان آخر قبله، إقامتي الأخيرة هذه، قبل الأخيرة، فليس هناك أخير على شاطئ البحر مهما يكن من أمر، هناك امرأة تأتي صوبي ملتفتة بين الحين والحين إلى بقيّة رفيقاتها، ملتصقات بعضهنّ إلى بعض كالنّعاج كي يرينها تبتعد وكنّ يشرن إليها بحركات لتشجيعها ضاحكات، بلا شكّ لأنّي سمعتُ الضحكات من بعيد، ثمّ رأيتها تُدبر عائدة أدراجها والآن هي تلتفت إليَّ دون توقّف، لعلّي خلطتُ بين اثنتين، واحدة تقبل ناحيتي في حياءٍ متبوعة بصيحات وضحكات من رفيقاتها وأخرى تبتعد بخطوات أكثر ثقة. لأنّ الناس الذي يأتون إليَّ، يأتون من بعيد، إنّها إحدى مزايا الشّواطئ. يبدون لي نقاطاً سوداء من بعيد وأستطيع متابعة هرجهم قائلاً، إنّه يتضاءل، إنّه يكبرُ، لذا يستحيل أخذي على حين غرّة لأنّي ألتفت ناحية الأرض أيضاً، سأخبركم بأمر، أنا أفضل على حافّة

البحر! نعم، وأنا أجوس في كلّ هذا الامتداد، في كلّ الاتّجاهات دون عوائق ودون أشياء عموديّة، يمكنني التأكيد بأنّ عيني السّليمة تعمل بشكل أفضل، أمّا التالفة فهناك أيّامٌ يُلفَتُ فيها انتباهها هي أيضاً. لم أكن أرى أفضل فحسب، بل كان من الصّعب علَيَّ أن أُلبس الأشياء النادرة التي أراها بأسماء محدّدة، إنّها بعض المزايا والمساوئ التي يُصادفها المرء على حافّة البحر، أو لعلّي بدأتُ أتغيّرُ، لِمَ لا؟ في الصّباح داخل مغارتي وحتّى في بعض اللّيالي التي تهبّ فيها العواصف أشعر أنّي نسبيّاً أنجو من العناصر والكائنات، هنا أيضاً ثمّة ثمن يُدفعُ، في مغارتي أو صندوقي هناك أيضاً ثمن يُدفعُ، أسدّده عن طواعية لفترة من الزّمن لكن لا يمكن بحال أن نستمرّ في الدّفع إلى الأبد، أمر مستحيل أن تشتري الشيء نفسه في حياتك القصيرة، ثمّة حاجة أخرى عدا التعفّن في سلام، ليست العبارة، أنا أتحدّث بطبيعة الحال عن أمّي التي لا تنفكّ صورتها تراودني تحت ضوء خافت. ألتحق بالداخل إذن لأنّ مدينتي ليست على البحر بصورة دقيقة مهما تيسّر الكلام عنها، لكن بين مدينتي وبين البحر هناك ما يُشبه المستنقع على ما أذكر من بعيد، ذاك أنّ ذاكرتي تغوص عميقاً في الماضي الفوريّ، ثمّة دائماً سُبُلٌ لتجفيف المنابع بواسطة القنوات بلا شكّ أو بتحويل ضواحيها إلى مرافئ ممتدّة أو بمنح العُمّال أحياء منتصبة على أوتاد، أي في النهاية استغلالها بطريقة أو بأخرى، هكذا نكون قد ألغينا الكارثة المُحدقة بأبواب المدينة كما هو الشأن بالنسبة إلى مستنقع ضحل نتن يعلوه الدّخان ويبتلع كلّ سنة عدداً لا يُحصى من الأرواح البشريّة، الإحصائيات تخونني في الوقت الحاضر، وستخونني دائماً دون شكّ لشدّة ما تركتني هذه القضيّة على الحياد، أن تكون الأشغال قد انطلقت فعلاً وأنّ بعض الحظائر استطاعت الحفاظ على بقائها في أيّامنا هذه، مواجِهَةً الإحباط والفشل والفناء البطيء للعمّال وسطوة السّلطة العموميّة لا يعني أبداً أنّي سأتجرّأ يوماً على إنكار الجمال، بين هذا وبين البحر الذي يغسل أقدام المدينة ثمّة هامش، من جهتي لن أنضمّ إلى هذا الطّمس للحقيقة إلّا إذا اضطررتُ إلى ذلك أو

كنتُ في حاجة إلى أن تسير الأمور على هذا النحو، في الواقع لم أكن أعرف هذا المستنقع جيّداً أو قليلاً كي أُعرّض حياتي إلى الخطر في مناسبات عديدة خلال فترة من حياتي أكثر زخماً بالتهيُّؤات من تلك التي أريقها هنا. أقصد مشبعة ببعض التهيُّؤات وفقيرة للبعض الآخر، يعني ليس ثمّة سبيل لولوج المدينة مباشرة عن طريق البحر بل يجدر أن نرسُوَ أوّلاً في الشّمال أو الجنوب قبل اتّخاذ الطّريق، هل تتصوّرون؟ لأنّ السكك الحديديّة كانت في طور الإنجاز! عمليّة التقدّم الآن بطيئة ومضنية كعهدها، بلغت ذروتها بسبب ساقي القصيرة القاسية، تلك التي منذ زمن طويل ما انفكّت تُعطيني الانطباع بأنّي تخطّيتُ سقف القسوة، لكن لتذهبوا إلى الجحيم! لأنّها أصبحت قاسية كما لم تكن يوماً، حسبتُ أنّ أمراً كهذا مستحيل، ليس ذلك فحسب، بل إنّها تزداد قصراً يوماً بعد يوم، لكن أيضاً بسبب ساقي الأخرى التي سرعان ما أصبحت قاسية هي أيضاً، كأنّها لم تكن مرنة من قبل، لسوء الحظّ لم تكن قد بدأت تقصر بعد، فأن تقصر كلتاهما في الوقت نفسه وبالوتيرة نفسها لا يُعتَبرُ هذا شنيعاً أبداً، أمّا أن تقصر واحدة وتظلّ الأخرى كما هي عليه فهذا يدعو إلى القلق، لستُ قلقاً تماماً لكنّي منزعج، هو ذا، فقد كنتُ محتاراً أيّ ساق أرتكز عليها وأنا أمارس ألعابي البهلوانيّة، لنحاول التمعّن في المعضلة بوضوح، السّاق الصّلبة، أنصتوا إليَّ جيّداً، تؤلمني كما هو معلوم، وعلى الأخرى أن تقوم بدور المحور أو الدّعامة، لكن ها هي ذي الأخيرة وقد بدأت تؤلمني أكثر من شقيقتها، بلا شك بسبب تصلّبها الذي لا يمكن أن يحدث دون نوع من الارتجاج على مستوى أعصابي والأوتار، يا لها من حكاية شرط أن لا أكون طرفاً فيها، لأنّ الألم القديم، تفهمون، كنتُ على نحو ما قد اعتدتُه، نعم على نحو ما، لكنّ الجديد رغم أنّه من العائلة نفسها، لم أجد الوقت كي أهتدي إلى طريقة تجعلني أتلاءم معه، لا ننسى أنّه بوجود ساق تالفة وأخرى سليمة نوعاً ما، يمكنني إقناع الأخيرة بالتخفيض، أقلّ ما يمكن، أكثر ما يمكن من العذاب باستعمالها وحدها مستعيناً بالعكازين. لكنّي لا أملك هذا الامتياز! إذ لم

يعد لي ساق تالفة وأخرى سليمة تقريباً. في الوقت الحاليّ ساقاي الاثنتان معطوبتان، الأسوأ في رأيي هي التي ما لبثت أن تكون سليمة حتّى عهد قريب جدّاً، سليمة، حسناً تقريباً سليمة، والتي لم أتقبّل تلفها بعد بصورة ما، لو أردتم، كان لي دائماً واحدة تالفة وأخرى جيّدة، أو بالأحرى واحدة أقلّ تلفاً، مع فرق واحد هو أنّ التالفة في الوقت الحاضر لم تعد تلك التي نعرفها، هذا يجعلني أرغب أحياناً في الارتكاز على ساقي التالفة سابقاً كلّما ضربتُ بالعكازين، لأنّها وإن ظلّت حسّاسة جدّاً، فهي أقلّ حساسية من الأخرى أو مساوية لها على الأقل، إذا أردنا، غير أنّها لم تكن تسبّب لي المتاعب بسبب أقدميّتها، لكنّي لا أقدر! ماذا؟ أرتكز عليها؟ لا ننسى أنّها تقصر فيما الأخرى تتصلّب فقط ولم تبدأ بعد في التّضاؤل أو أنّها متأخّرة عن رفيقتها تماماً مثل، مثل، لقد تهتُ، لو أنّ في استطاعتي طيّها على مستوى الرّكبة أو حتّى الورك لأمكنني اصطناعياً جعلها قصيرة كالأخرى، الوقت الذي يسمح لي بالهبوط على القصيرة الحقيقيّة قبل أن أندفع، لكنّي لا أقدر! ماذا؟ طيّها؟ كيف أطويها وهي صلبة؟ اضطررتُ إذن إلى تشغيل السّاق نفسها كما في الماضي رغم أنّها أصبحت الأسوأ على أرض الواقع بين الاثنتين والأكثر تطلّباً وحاجة إلى العناية، صحيح أحياناً أنّي عندما أعثر بسرور على طريق مُحدّب كما ينبغي أو حين أغنم الفائدة من وجود خندق قليل العمق أو أيّ فارق آخر في الارتفاع قد يصلح لي، فإنّي أحتال كي أمدّ ساقي القصيرة القاسية لأستخدمها بدل الأخرى، لكن مضى وقت طويل على آخر مرّة عملتْ فيها ولم تعد تعرفُ كي تتصرّف، أعتقد أنّ عموداً من الصّحون كان سيصلح لي أفضل منها هي التي حملتني بعنفوان حين كنتُ كتلة من الحمم. هنا يتدخّل مُعطى آخر من عناصر فقدان التوازن، وأنا أستغلّ تضاريس الأرض لصالحي، أعني العكّازين لا بُدَّ أن يكون أحدهما قصيراً والآخر طويلاً كي أجتنب الميلان على الخطّ العموديّ، أليس كذلك؟ لا أدري، بقي أنّ دروبي، دروبي أنا، علينا أن ندرك، في أغلبها أزقّة في الغابة حيث تنحرف المستويات على كثرتها، كانت دائماً مُشوّشة

وتتبع خطوطاً أكثر انحرافاً من أن تساعدني، لكن في العمق هل ثمّة فرق بين أن تنعم ساقي بالبطالة وبين أن يتوجّب عليها العمل فيما يتعلّق بالألم؟ لا أتصوّرُ، لأنّ الآلام التي لا تفعل شيئاً كانت دائماً مستقرّة وعلى وتيرة واحدة بينما الأخرى التي يُزجّ بها في تفاقم الألم هذا المُتمثّل في العمل فجرّبت نقصان الألم المتمثّل في العمل المُعلّق للحظة على الأقلّ، لكنّي إنسان أظنّ، ويمكن التفطّن إلى تقدّمي بين كلّ هذه الأشياء، وهذا التحوّل المضني البطيء الذي ما انفكّ يرافقني والذي تمكّنتُ مع ذلك من وصفه، مع احترامي، تحوّل إلى صليب حقيقيّ لا نهاية لمحطّاته ولا أمل له في الصّلب، أقولها دون تواضع زائف ودون الحاجة إلى تزكية من سيمون[12]. نعم تقدّمي يضطرّني إلى التقدّم أكثر فأكثر أحياناً. كانت أفضل وسيلة للتقدّم هي أن أتوقّف، وكونها توجد ضمن نواياي المضطربة للقيام بتحليل عميق للحظات سياقيّة سحيقة كما ينبغي، فإنّي على الأقلّ سأبدع بعض الكلمات وسأكون طيّباً كفاية كي لا تكتمل روايتي الواضحة في العتمة، في عتمة الأدغال الشّائكة وأوراقها العملاقة حيث أعرج وأتمدّد وأنهض وأسمع وأعرج، مُتسائلاً بين الحين والحين هل علَيَّ التنصيص على ما إذا كنتُ سأشهد اليوم السيئ الذّكر غير المحبوب حيث سأكون شاحباً ومشدوداً بين آخر جذع وبين أمّي التي علَيَّ معالجة مسائلي معها، أو ما إذا كان من الأفضل أن أتسلّق غصناً وأتدلّى، ليس لديَّ أمل في أن أشهد ذلك اليوم، وأمّي هل من حقّي أن أطمع في انتظارها لي دائماً؟ وساقي، ساقَاي؟ غير أنّ أفكار الانتحار لا تراودني كثيراً، لم أعد أعرف لماذا. اعتقدتُ أنّي أعرف، لكن أظنّ بأنّي مخطئ، فكرة الاختناق رغم أنّها مغرية كنتُ دائماً أصل معها إلى طريق مسدود بعد معركة صغيرة، سأعترف لكم بأمر، لم أتعرّض

12 - سيمون: سيمون الكنعانيّ أو (شيمون)، واحد من بين الحواريين اليهود الاثني عشر المذكورين في إنجيل لوقا. يُذكَر أنّ المسيح أوصى بأن يتسلّموا المدينة لنشر الدّين وإشاعة المحبّة والسّلام. سيمون هو الحواريّ الذي إذا ذُكر في الأناجيل فهو يُذكر دائماً على رأس قائمة الحواريّين.

يوماً لشيء معيّن يتعلّق بقناتي التنفّسيّة عدا البؤس الذي يرتبط عادة بهذا الجهاز، نعم، يمكنني عدّ الأيّام التي يبدو فيها أنّ الهواء المُشبع بالأكسجين لا يريد النّزول داخلي أو يُطرد إذا نزل. كان في وسعي عدّها، آه نعم، كم مرّة حاولتُ وضع حدّ لضيق تنفّسي بقصّ شريان العنق أو القصبة الهوائيّة، لكنّي قاومتُ، يخونني الصّخب فيحول لوني إلى البنفسجي، ينتابني ذلك خاصّة في اللّيل حيث لا أدري ما إذا كنتُ سعيداً أم حزيناً. فكما أنّ اللّيل يقمع الألوان فإنّه على العكس يُضخّم الأصوات الخافتة ويجعلها مسموعة بشكل واضح بسبب سكونه، لكنّها مجرّد أزمات والأزمات لا تُعتَبرُ شيئاً مقارنة بما لا يتوقّف أبداً، بما لا يعرف لا تيّاراً ولا انحساراً على سطح الرّصاص، أو في الأعماق الجحيميّة، ولا كلمة! ولا كلمة في شأن الأزمات التي تقبض عليَّ وتقتلني، ثمّ بلطف يُرمى بي دون أن يُحكى عنّي للغير، وألفّ معطفي حول رأسي كي أخنق الصّوت الفاحش للاختناق أو أموّه عليه بخمس عطسات متتالية، وهي مُعتمدة كونيّاً، عيبها الوحيد هو أنّها قد تسبّب الشّفقة، وأظنّه الوقت المناسب كي أسوق الملاحظة التالية، الألوان لا تموت أبداً إذا أردنا أن نسوق ملاحظة، حين أقول إنّ تقدّمي أصبح وئيداً عقِب العطب الذي أصاب ساقي الجيّدة، فأنا لا أروي سوى قسم ضئيل من الحقيقة لأنّي في الواقع أملك نقاط ضعف أخرى هنا وهناك بدورها تفاقمت وأصبحت أضعف فأضعف كما هو مُتوقّع، غير المتوقّع فعلاً هو السّرعة التي تفاقم معها الضّعف منذ غادرتُ الشّاطئ. لأنّي ما دمتُ على حافّة البحر فإنّ نقاط ضعفي التي تتفاقم كما هو معلوم، لم تكن تتفاقم إلّا بشكل بطيء، إلى درجة أنّي، وأنا أتحسّس شرجي مثلاً، لم أكن عند ضرورة الصّراخ، آه تبّاً إنّ حالته ساءت كثيراً مُقارنة بالأمس كأنّه ليس الثقب نفسه، أعتذر إن عدتُ ثانية للحديث عن مخرجي المخجل، آلهتي تريد ذلك، ربّما تجدر الإشاحة عن العادة المُسمّاة أكثر من رمزها الذي أحاول إسكاته، ربّما ينهل نبله من مركزيّته وهيئته التي على شكل همزة وصل بيني وبين الخراب. في اعتقادي لا يحظى بالعرفان هذا الثقب الصغير، نسمّيه ثقب

الدّبر ونحقد عليه. لكن لم لا يكون هو بوّابة الإنسان حيث الفم ليس سوى باب الخدمات المتواري؟ لا شيء يدخل منه وحتّى إذا حدث ذلك، فنادراً ما لا يتمّ لفظه فوراً، يَقْرَفُ كلّ شيء آتٍ من الخارج، أمّا بالنسبة إلى ما يصل إليه من الدّاخل لا يمكن القول إنّه يتعامل معه في شكله الأصليّ، أليست هذه أشياء موحية؟ التاريخ هو الذي سيقول كلمته في هذا الشّأن، مع ذلك سأهيم به قليلاً في المستقبل وهذا سيكون يسيراً، إذ لن أتحدّث عن المستقبل بما أنّه غير معلوم، أمّا بالنسبة إلى ترك الضروريّ جانباً فأنا أعرف نفسي كفاية كي أتبنّى حول هذه الظاهرة أخباراً متضاربة، لكن بالعودة إلى نقاط ضعفي سجّلتُ أنّها تطوّرت بشكل طبيعيّ على حافّة البحر، لم ألاحظ أشياء غير طبيعيّة، إمّا أنّي لم أعرها اهتماماً خاصّاً بسبب تكريس اهتمامي كلّيّاً للتحوّل الذي طرأ على ساقي الرّائعة أو أنّ شيئاً لم يكن حقيقة يسترعي الانتباه في ذلك الشّأن، لكن ما إن غادرتُ حافّة البحر خوفاً من الاستيقاظ يوماً بعيداً عن أمّي وساقَاي متيبّستان كعكّازَيَّ حتّى قفزت نقاط ضعفي ومن الضّعف بدأت تموت رويداً في غيابي نقاط الحيويّة التي يُفتَرض أن تستبقيها، أذكر في تلك الفترة الاستسلام الجبان لأصابع قدَمَيّ، ستقولون لي، عُدتَ إلى حكاية ساقيك، وأنّها أشياء بلا قيمة ما دمتُ في كلّ الأحوال لا أضع ساقي على الأرض. صحيح لكن هل لديكم فكرة عن أيّ ساق أتحدّث قبلاً؟ لا. أنا أيضاً. انتظروني. سأخبركم. معكم حقّ. هذه ليس نقطة ضعف بأتمّ معنى الكلمة، كنتُ أظنّ أنّ أصابع ساقَيَّ في صحّة جيّدة، عدا بعض الأورام والبصل والأظفار التي تكاد تتجسّد والاعوجاج الذي يرافق التشنّج، إنّ نقاط ضعفي الحقيقيّة تكمن في أمكنة أخرى وكوني لا أدوّن في شأنها قائمة خلال حصّة كاملة فلأنّي لن أفعل أبداً، بالتّأكيد لن أدوّن إلّا إذا ـــــــ ثمّ إنّي لا أودّ تقديم فكرة مغلوطة عن صحّتي تلك التي حتّى لو لم نطلق عليها صفة المتألّقة أو المتحذلقة فهي في العمق قويّة بشكل مُذهل، إذ كيف نفسّر بلوغي هذا العمر الضخم الذي بلغتُه؟ بفضل خصالي الأخلاقيّة؟ عادات غذائيّة صارمة؟ الهواء النقيّ؟

سوء التّغذية؟ مشاكل النّوم؟ الوحدة؟ الاضطهاد؟ الصّراخ المكتوم الطّويل (الصّراخ خطير)؟ الرّغبة اليوميّة في أن تبتلعني الأرض؟ عنّي من فضلكم. دعكم. القدر حقود لكن ليس إلى هذا الحدّ. انظروا إلى أمّي، لماذا ماتت في الأخير؟ أتساءل. لا أستغرب في أنّ يكونوا قد دفنوها حيّة. البقرة! لقد عرفت كيف تنقل لي كرموزوماتها. مليئاً بالبثور كقنفذ منذ غضاضة سنّي، يا للجمال! القلب ينبض لكن كيف، بقناة المثانة، لا. ولكن ولا كلمة في هذا الموضوع، والحبوب هاه! وكيس البول والمجاري ورأس الذّكر. أيّتها العذراء «مريّا». سأخبركم بأمر. لم أعد أبول. بشرفي. إنّ غلافي يفوح بالبول ليلاً نهاراً، أظنّ أنّه البول، أشمّ رائحة كلية أنا الذي فقد حاسّة الشمّ منذ زمن. هل يجوز الحديث عن البول في هذه الظروف؟ لنرَ. عَرَقي أيضاً ــــــــــــ - وأنا لا أفعل شيئاً عدا التعرّق- لديه رائحة غريبة. ولعابي السّائل على الدّوام يمزح معي هو أيضاً، أنا أتخلّص من الفضلات ليس إلّا. لستُ مختلفاً عن أحد، يغمض البول عينيه عنّي وحدي. أنا أيضاً سأُدفَنُ حيّاً بعد اليأس من وجود دافع لذلك، هذا إذا كانت هناك عدالة. وقائمة نقاط الضّعف التي لن أُدوّنها أبداً خوفاً من أن أنتهي منها، سأنجزها ربّما يوماً يكون عليَّ فيه القيام بجرد لممتلكاتي وغنائمي، في ذلك اليوم، ولو أنّي سأكون أقلّ خشية من أن أنتهي كما هو الحال اليوم، فاليوم وإن كنتُ لأحسّ نفسي على وشك بدء الرّحلة لا أدّعي كذلك أنّي على مشارف الوصول، كان عليَّ إذن أن أجهزَ لأجل السّباق، عدم القدرة على خوض السّباق حين تدقّ السّاعة. لا شكراً. من الأفضل التخلّي. لكنّ التخلّي أو حتّى التوقّف لحظة ممنوعان. سأتقدّم إذن وأنا أنتظر أن يدقّ النّاقوس ويُقال مولوي دعك، لا تعد تزعج نفسك. هكذا أحلّل متوسّلاً صوري الخاصّة في وضعيّتي. ثمّة إحساس لا يُفارقني، لا أدري لماذا تقريباً، بأنّي سأتحدّث يوماً ما عمّا سيبقى من الأشياء التي كنتُ سأغنمها. لأجل ذلك يتوجّب عليَّ الانتظار حتّى أتأكّد تماماً من أنّي لن أحصل على شيء ولن أخسر شيئاً ولن أرمي أو أعطي شيئاً. في تلك الحالة يمكنني التحدّث دون

خشية من أن أخطئ عما بقي لي من ممتلكات في نهاية المطاف. لأنّها ستكون الحساب الأخير، من هنا إلى ذلك الحين يمكنني أن أفقر، أن أثرى. ليس إلى درجة أن تتغيّر وضعيّتي لكن ما يكفي ليمنع منذ الآن أن يكون ما يبقى هو ما سأحصل عليه، بما أنّي لم أحصل بعدُ على كلّ شيء، لكنّي لا أفهم شيئاً بخصوص هذا الإحساس المُبكّر وهو في الواقع حال كلّ الأحاسيس المبكّرة الجيّدة التي لا نعرف عنها شيئاً أظنّ. سيكون إذن إحساساً مبكّراً رائعاً يستحقّ أن يُفحَص. أظنّ أنّ الأشياء الخاطئة تستسلم للتضاؤل حسب قانون واضح ومختلف في كلّ مرّة، مختلف عن بقيّة القوانين أقصد. لكن ثمّة احتمال أن أكون مخطئاً، لم أكن يوماً كائن حدس، بل كائن إحساس فقط. ما وراء الإحساس، أتجرّؤ على القول، لأنّي أعرف سلفاً ما يُجنّبني الحدس. بل أذهب أحياناً أبعد من ذلك، ما الذي كان سيكلّفني، فأقول إنّي لا أعرف إلّا عن طريق التنبؤ لأنّي في لحظتها لا أعود أعرف، هذا يُلاحظ بقليل من المجهود البشريّ. ثمّ بعد اللّحظة لا أعود أعرف أيضاً، لأني أكون قد سقطتُ في الجهل المطبق. كلّ هذا مجتمعاً، لو جاز جمعه، يجب أن يفسّر أشياء كثيرة، بينها شيخوختي العجيبة الخضراء. في بعض المواضع كما لو أنّ صحّتي رغم ما قلتُه عنها لا تكفي لتقوم بالمهمّة. مجرّد فكرة بلا تأثير لكنّي أقول في هذه المرحلة التي وصلتُ إليها إنّ تقدّمي أصبح أبطأ وأكثر وجعاً، ليس فقط بسبب ساقَيّ، بل يعود ذلك إلى جملة من نقاط الضّعف كما يُقال. لأدخل لها بساقَيّ، إلّا إذا أسلمنا - ولا شيء يدعو - بأنّ ضعفي وساقَيّ لهما الأعراض المُعقّدة نفسها بصورة شيطانيّة. ما حصل هو أنّي سلّطتُ الضوء طويلاً على ساقَيّ طيلة الرّحلة على حساب البقيّة، هذا ما حدث. أنا نادم لكن لم يعد النّدم يفيد كما لم يعد هناك ما يمكن فعله لتدارك الأمر. لم أكن مجرّد كسيح فظّ. أبعدَ بكثير. عشتُ أيّاماً كانت فيها ساقَاي أفضل ما أملك، أو هو رسم تجريديّ قام به هذا العقل القادر على إصدار الأحكام، بتُّ إذن مُضطرّاً إلى التوقّف بوتيرة أكبر، لا أخجل من ذكر ذلك. أتمدّد غير مكترث بالقواعد. تارة على ظهري وتارة على

بطني، تارة على هذا الجانب وتارة على الآخر. أغلب الوقت كنتُ أمدّ قدَميّ أعلى من رأسي، كي يسيل الدّم المتخثّر، عندما يكون لك ساقان قاسيتان فإنّ مع النوم بقدمين أعلى من الرّأس آخر ما يمكن الحديث عنه هو الرّاحة. لكن لا تقلقوا، سأنجح. حين يكون الأمر متعلّقاً برفاهيّتي، فعادة لا أولي الألم بالاً. الغابة كانت تحيط بي. والأغصان تتمايل على ارتفاع يفوقني بشكل مدهش موفّرة لي الحماية من النّهار والعواصف، يحدث خلال أيّام أن لا أنجز سوى ثلاثين أو أربعين خطوة، أقسم، أتمايل في الظّلمة الحالكة المنيعة، هذا؟ هذا ما لن أقوله أبداً. ولو ترنّحتُ، ففي ظلمات غير محصّنة فقد كانت دائماً تسود ظلال زرقاء كافية أكثر من حاجتي البصريّة، يدهشني أنّ تلك الظلال لم تكن خضراء بل زرقاء، أراها زرقاء وربّما هي كذلك فعلاً. اللّون الأحمر للشّمس حين ينعكس على اللّون الأخضر للأوراق، ينتج عنه اللّون الأزرق، هكذا أحلّل. لكن من حين إلى آخر، من حين إلى آخر، يا لهذه العبارات الوحشيّة الجميلة، من حين إلى آخر أقع على ما يشبه المفترق، نجمة بعبارة أخرى، نجمة، نعم، كما في كلّ الغابات المجهولة. وأنا أستدير برفق نحو المسالك المضيئة، بلَستُ أدري أيّ أمل يحدوني، أقوم بلفّة كاملة حول نفسي أو أقلّ من لفّة أو أكثر، لشدّة تشابه تلك المسالك، في تلك الأماكن تكون الظلال أقلّ دكنة. أسرع الخطى كي أبتعد، أكره قتامة الظّلال، إنّها موحشة. في ذلك الدّغل من الطّبيعيّ أن تكون لي بعض اللّقاءات حيث لا ينبغي فيه أن تكون، لكنّها عموماً دون خطورة، فقد التقيتُ فحّاماً مثلاً، كان من الممكن أن أحبّه لو أنّي أكثر شباباً بسبعين عاماً. لستُ متأكّداً لأنّه سيكون بدوره مساوياً لي ليس تماماً، لكن ربّما أقلّ منّي بكثير، لم يكن لديَّ من العطف ما يُوَزَّعُ لكن على الأقلّ كان لي نصيبي منها، فقد كنتُ صغيراً وكنتُ أتّفق مع كبار السنّ من المُحَبّذ، بل أكثر من ذلك أذكر أنّي أحببتُ واحداً أو اثنين، لم يكن حبّاً طبيعيّاً لا صلة به للشّيخ. اسمها «روز». كلّا. حسناً فهمتم ما أعنيه، كيف تُقال الأشياء؟ كان حناناً كما يوعد أناس بأرض ما. آه كنتُ مبكّراً لأنّي في تلك الفترة

كنتُ صغيراً وما زلتُ كذلك إلى اليوم، اليوم يقزّزني، متعفّنون تماماً. كالخُضر النيئة. اندفع نحوي وطلب منّي أن أقاسمه كوخه، صدّقوني، إن شئتم، غريبٌ مثاليّ ومريض وحدة على الأرجح. أقول فحّاماً لكنّي في الأصل لا أعرف عنه شيئاً. أرى الدّخان لا أتيه عنه أبداً. حوار طويل دار بيننا قطعه القليل من الأنين، لم أستطع أن أسأله عن الطّريق المؤدّي إلى مدينتي التي ما زلتُ لا أذكر اسمها. طلبتُ منه أن يصف لي الطريق إلى أقرب مدينة. يجهله. أغلب الظنّ أنّه وُلد في الغابة حيث قضى حياته بأسرها، سألته أن يشرح لي طريقة الخروج من الغابة بأسرع ما يمكن، جاءت إجابته مُشوّشة جدّاً، لم أفهم شيئاً ممّا قاله. أو إنّه لم يفهم شيئاً ممّا قلتُه، أو إنّه لا يعرف شيئاً أو إنّه يريدني برفقته، أرجّح الفرضيّة الرّابعة لأنّه أمسكني من كمّ معطفي حين أردتُ الابتعاد. حرّرت إذن عكّازاً وسدّدت له ضربة مفاجئة على جمجمته، جعلته يهدأ. شيخ مقرف. نهضتُ وتابعتُ طريقي. بعد خطوات قليلة سرتُها، والخطوات القليلة في تلك الفترة كانت أمراً يُذكَرُ، استدرتُ وعدتُ إليه لأفحصه. لمّا لاحظتُ أنّه ما زال يتنفّس، وجّهتُ له ضربات بقدمي على ضلوعه، هكذا تصرّفتُ، اخترتُ مكاناً بعيداً عن الجثّة، وأنا أشيح بظهري ثمّ مستنداً إلى عكّازَيَّ، بدأتُ أتأرجحُ إلى الأمام والخلف، القدمان مضمومتان، متّحدتان بالأحرى. إذ كيف أضمّهما؟ وساقَاي على تلك الحالة؟ لكن كيف لساقَيَّ أن تلتصقا وهما على تلك الحالة؟ ضممتهما، هذا ما يسعني قوله. انتهى. أو إنّي لم أضمّهما. ما يغيّر؟ رحتُ أتأرجحُ باتّساع، هذا ما يهمّ. باتّساع أكبر فأكبر حتّى جاءت الآونة المُحدّدة فاندفعتُ بكلّ قوّتي إلى الأمام وتراجعتُ بعد لحظة إلى الوراء، عندها وقعت النّتيجة الحاسمة. من أين جاءني ذلك العنفوان؟ من ضعفي ربّما. الصّدمة جعلتني أسقط طبعاً، وتشقلبتُ. لا يمكن أن نحصل على كلّ شيء، لاحظتُ ذلك في مناسبات عديدة. ارتحتُ قليلاً ثمّ نهضتُ. جمعتُ عكّازَيَّ واتّخذتُ مكاناً محاذياً للجانب الآخر للجثّة ورحتُ بحرص أقوم بالتّمرين نفسه، عانيتُ دائماً من هوس التّناظر. لكنّي

صوّبتُ إلى الأسفل هذه المرّة. إحدى ركلات قدمي غاصت في الرّخاوة. في النّهاية كوني أخطأت الضّلوع بركلتي تلك فهذا يعني أنّي أصبتُ الكلية. أوه ليس بالقوّة الكافية لأجعلها تنفجر. لا أظنّ. يتخيّل النّاس أنّنا بوصفنا شيوخاً فقراء، مرضى وجبناء فإنّنا عاجزون بصورة عامّة عن الدّفاع عن أنفسنا. على نحو ما هذا صحيح. لكن في الظّروف الملائمة، معتدّ أحمق وصفيق في قامتك نفسها إضافة إلى مكان معزول، يُتاح له أن يُظهر لك أيّ حطب أشعلتَ. رويتُ الحادثة رغم أنّها بلا أهمّيّة ككلّ الحكايات التي تعظ وتحذّر لا لشيء بعينه إلّا لأذكر هذا الاحتمال الجائز والمهمل عادة. لكن هل كنتُ آكل من وقت إلى آخر؟ طبعاً بالضّرورة. توت وأحياناً عُلّيق، فطر من وقت إلى آخر وأنا أرتعش لعدم معرفتي به. ماذا أيضاً؟ آه صحيح، خرّوب ثمين لدى الماعز. عموماً ما أجده، الغابات تعجّ بالخيرات. سمعتُ يوماً أو قرأتُه في مكان ما حين كنتُ أظنّ أنّه من المهمّ التعلّم أو التّسلية أو التهوّر أو قتل الوقت، أنّنا ونحن نظنّ أنفسنا نمشي في خطّ مستقيم داخل غابة، فإنّنا في الواقع ندور في حلقة واحدة. حرصتُ إذن على الدّوران في حلقة مفرغة كي أتقدّم في خطّ مستقيم، لو شئتُ لأحجمتُ عن العته ولأصبحتُ ماكراً، لقد تعلّمتُ من كلّ ما يمكن أن ينفعني في الحياة. وحتّى لو لم أكن أتقدّم في خطّ مستقيم، وأنا أدور في حلقة واحدة، فعلى الأقلّ ما أفعله ليس دوراناً، وهذا يساوي الكثير في حدّ ذاته، كنتُ أقوم بذلك يوماً بعد يوم، اللّيلة تلو اللّيلة آملاً الخروج من تلك الغابة يوماً. فمنطقتي ليست غابة. أبعد عن ذلك بكثير. هناك السّهول والجبل والبحر وبعض البلدات والقُرى الموصولة فيما بينها بطرق ودروب. كنتُ على يقين تامّ أنّي سأخرج من الغابة يوماً وأنّي خرجتُ منها فعلاً، أكثر من مرّة، وأعرف الوعورة التي ينطوي عليها كوني لا أفعل ما فعلتُه من قبل. لكنّ الأمور اختلفت على ما يبدو. نعم، آمل أن أرى نفسي مرتعشاً بين الأطراف الهامدة كأنّها منقوشة على النّحاس والتي لا شيء يمكنه تحريكها تحت ضوء السّهول، حيث التموّجات الحادّة الشّاحبة، لكن حتّى ذلك اليوم

أهابه إلى درجة أنّي أشكّ في أنّه لن يأتي آجلاً أم عاجلاً. لأنّي لستُ سيّئاً جدّاً في الغابة. يمكنني التّعايش مع الأسوأ بشكل دائم دون ندم ودون أن أتحسّر على أيّام السّهول ومرافق الجهة الأخرى. فأنا أعرف مرافق جهتي وأتصوّر أنّ الغابة ألطف منها. ليست فقط ألطف بل إنّ لها مزيّة أخرى هي التالية، أنّي فيها الآن. إليكم طريقتي الغريبة في فهم الأشياء، ليس كما يبدو، هل يمنحني وجودي في الغابة الحقّ في تعداد المزايا رغم أنّها ليست أسوأ ولا أفضل من أيّ مكان آخر، وأنّ لي حرّية المكوث فيها؟ إلّا ـــــــ ليس بسبب ما هي عليه بل بما أنا عليه. في النّهاية أنا في الغابة، وبما أنّي فيها فلستُ مضطرّاً إلى الذّهاب إليها. وهذا أمر غير هيّن بالنّظر إلى حالة ساقَيّ وجسمي عموماً. هذا ما أردتُ قوله، وكوني لم أقله منذ الوهلة الأولى، فلأنّ هناك أشياء تمنعني، لكن لا يسعني البقاء في الغابة، هذا ليس مسموحاً. حسناً، أنا قادر على البقاء جسديّاً، لا شيء أيسر علَيَّ، إنّما لستُ جسداً فحسب، فلَديَّ إحساس أنّي لو بقيتُ في الغابة فعلى حساب تعليمات لا أريد تجاهلها، لدَيَّ انطباع بذلك على الأقلّ. ربّما أكون مخطئاً، ربّما من الأفضل أن أظلّ في الغابة، يمكنني. من يدري لعلّي أبقى دون إحساس بالنّدم أو الانطباع الشاقّ بأنّي أرتكب خطأ لا فرق بينه وبين الذّنب، فقد عرفتُ دائماً كيف أُضلّل. لقد ضلّلتُ عدداً كبيراً من المُلقّنين. وكوني لا أقدر على الاحتفال بأدب، لا أرى في المقابل سبباً يجعلني أتقمّص شخصيّة الكئيب، لكنّ الأوامر شيء آخر. لديَّ دائماً نزعة لأخضع إليها. لا أدري لماذا. إذ لم تفضِ بي إلى أيّ ضفّة. كانت الأوامر تقتلعني من الأماكن التي لو لم أكن فيها مطمئناً تماماً، لم أكن فيها قلقاً تماماً، ثمّ بعد ذلك خرست تاركة إيّاي أنحرف. أعرف الأوامر لذلك أمتثل إليها. أصبحت عادة، كلّها تصبّ في علاقتي بأمّي وحول ضرورة توضيح الأمور بأسرع ما يمكن. تهتمّ أيضاً بنوعيّة الوضوح الملائمة، وأساليب التدخّل بشكل ناجع ما أمكن. أوامر جليّة ومفصّلة أيضاً نجحت دائماً في جعلي أهتزّ. هزئت بي قبل أن تصمت تاركة إيّاي كالأبله الذي لا يعرف أين يذهب ولا لماذا. كلّها – وهذا قلتُه

أظنّ- تصبّ في المسائل الشّائكة نفسها، بل أكثر من ذلك لا أعرف واحدة بمقادير أقلّ، والأوامر التي تدفعني إلى مغادرة الغابة بأسرع وقت لا تختلف عن التي عرفتُها من قبل إذا نشدنا العمق، لأنّي - شكلاً- أحرزتُ اكتشافاً حصريّاً بخصوص التّفاصيل فبعد المقطع المعتاد يأتي التحذير الرسميّ التالي، لعلّ الأوان قد فات، باللّاتينيّة، نيميس سيرو، أظنّها اللّاتينيّة. كم هي وديعة الأوامر الافتراضيّة. لكن لا يجوز أن نلصق خطأ عدم تسويتي للمسائل مع أمّي إلى الصّوت الذي تخلّى عنّي قبل الأوان. له نصيبه من المسؤوليّة، هذا كلّ ما يمكن أن نعاتبه عليه، لأنّ الخارج اعترض على التّسوية أيضاً. قدّمتُ بعض الأمثلة باستخدام أساليب مختلفة وبالخداع أحياناً، كان في إمكان الصّوت أن يضايقني حتّى آخر الكتاب الذي قد لا أتمّه بسبب العوائق التي تقطع عليَّ الطّريق. بهذا الأمر الذي يتردّد ثمّ يموت كيف لا يكون هناك تلميح لمولوي، لا تفعل شيئاً. إنّه يحثّني على الانكباب على الواجب ليظهر لي سخافتي. هذا ممكن. لحسن الحظّ إنّه في المجمل، كي يعمّق سذاجتي لاحقاً لو أردنا، لا يفعل سوى الاحتفاء باستعداداتي التي لا تحتاج إلى فاصلة كي يُفهم بأنّها عن رغبة كبيرة من طرفي. يبدو أنّي وحدي ومنذ الأزل وأنا في طريقي إلى أمّي لننصّب المسائل على قاعدة غير متداعية. عندما أصل إلى بيتها وهذا حدث كثيراً فإنّي أغادرها دون القيام بشيء. وحين أكون بعيداً عنها، فإنّي أطمح بكلّ حماس للذّهاب إليها لأبلي أفضل. وحين يبدو أنّي صرفتُ النّظر، انشغلتُ بأمر آخر أو عَدَلتُ عن الانشغال بلاشيء، ففي الحقيقة أنا أذيع خططي وأبحث عن طريق يؤدّي إلى بيتها. فتأخذ الأمور منحى مضحكاً. إلى درجة أنّه حتّى في غياب الأمر الذي يُفتَرض تنفيذه فإنّه من الصّعب عليَّ البقاء في الغابة لأنّ أمّي ليست فيها. إنّما لا بأس من خوض المغامرة والإقامة بعض الوقت. ولكنّي أقول في نفسي، من هنا حتّى الوقت الذي سأركب فيه القاطرة المؤدّية إليها، لن أتمكّن من التنقّل إلّا إذا انتشلوني. لم أعد أمسك بزمام هذه اللّغة الصّريحة. وحين أقول، قلتُ في نفسي إلخ. أقصد فقط أنّي أعرف

بصورة مُشوّشة أنّ الأمور تسير على ذلك النّحو دون معرفة المعنى. وفي كلّ مرّة أقول فيها، قلتُ في نفسي كذا وكذا أو أتحدّث حديثاً باطنيّاً قائلاً، مولوي متبوعة بجملة جميلة نسبيّاً واضحة وبسيطة، أو حين أجد نفسي عند ضرورة إعارة الغير كلاماً ذكيّاً أو لدى الآخر نيّة أن يُخرج من فمي أصواتاً موقّعة جيّدة نسبيّاً، فإنّي لا أفعل شيئاً في الحقيقة سوى الرّضوخ إلى اتّفاق صارم يقضي بأن نكذب أو نصمت، لأنّ الأشياء تحدث بشكل مختلف، لم أقل قاطرة إذن ولا من هنا إلى حين إلخ. هذا فقط يشبه ما كنتُ سأقوله لنفسي لو كان في استطاعتي ذلك. في الواقع أنا لا أقول في نفسي شيئاً لو كان في استطاعتي ذلك. في الواقع أنا لا أقول في نفسي شيئاً لكنّي سمعتُ إشاعة. شيء ما تغيّر له السّكون فأصختُ السّمع على طريقة حيوان يرتجف ويتظاهر بالموت. أحياناً ينشأ في داخلي بصورة مُشوّشة نوع من الوعي. وما أعبّر عنه بالقول، قلتُ في نفسي إلخ. أو مولوي لا تفعل شيئاً أو هل هو اسم أمّك؟ قال المحافظ. فأنا في الحقيقة أسرد من ذاكرتي. أو أنّي أعبّر حريصاً على عدم السّقوط أسفل من الخطاب الدّقيق[13]. بل بواسطة أساليب أخرى كاذبة مثل، يبدو لي إلخ. أو لَدَيَّ الانطباع بـ إلخ، إذ لا يبدو لي أيّ شيء ولا يأتيني أيّ انطباع مهما كان نوعه. لكن هناك أشياء تغيّرت في مكان ما تجعلني أتغيّر بدوري، أو يجب على العالم أن يتغيّر كي لا يتغيّر شيء. إنّه التّعديل كما في زهريّة غاليلي[14] التي لا يمكنني شرحها إلّا إذا قلتُ أخشى أن. أو آمل أن. أو هل هو اسمك؟ قال المحافظ. والتي في إمكاني التّعبير عنها بشكل مختلف وأكثر جدوى لو أردتَ. ربّما فعلتُها يوماً أكون فيه أقلّ رعباً من الآن بخصوص بذل الجهد. على كلّ لا أظنّ. قلتُ إذن من هنا حتّى ذلك الحين الذي سأركب فيه القاطرة المؤدية إليها لن أتمكّن من التنقّل، حينئذٍ سأجد نفسي عند ضرورة البقاء، إلّا إذا أقلّني أحد الطيّبين. لأنّ

---

13 – وردت العبارة باللّاتينيّة.

14 – زهريّة غاليلي: محرار صمّمه عالم الفلك غاليلي مستفيداً من خاصّية الطفو واعتماداً على قانون تغيّر ثقل الأجسام بتفاوت حرارتها.

المحطّات باتت متقاربة واستراحاتي متكرّرة تبعاً لذلك. أضيف، مديدة لأنّ مسألة الاستراحة الطّويلة لا صلة لها بقصر المحطّات ولا بتكرارها لو فكّرنا جيّداً، إلّا إذا ألصقنا بالتّكرار معنى لا يناسبه، الأمر الذي لن أقترفه تحت أيّ ظرف. ويبدو لي مرغوباً أكثر أن أخرج من هذه الغابة بأسرع ما يمكن من أن يستحيل عليَّ بشكل دائم الخروج من أيّ مكان حتّى لو كان بستاناً. كان الفصلُ شتاءً. ينبغي أن يكون شتاءً، ليس فقط لأنّ الأشجار فقدت أوراقها، لكن أيضاً اسودّت الأوراق وأصبحت إسفنجيّة وصار العكّازان يغوصان أحياناً إلى حدّ فرجتيهما. أمر جدير بالملاحظة. لم أعد أشعر بالبرد إلّا من جهة الماضي. لعلّه الخريف. كنتُ دائماً قليل الحساسيّة من ناحية تغيّرات الطّقس. والظّلال التي ربّما فقدت من زرقتها ما زالت كثيفة كذي قبل. يقود ذلك للقول إنّها أقلّ زرقة لأنّ الأخضر قد تراجع. لكنّها كثيفة بفضل السّماء الرصاصيّة للشّتاء. ثمّ بسبب الأغصان السّوداء التي تنشر السّواد. شيء من هذا القبيل. أكوام الأوراق السّوداء الطينيّة تعيقني بشكل محسوس. لكن حتّى دونها كنتُ سأتخلّى عن المشي واقفاً كالبشر. أذكر ذلك اليوم الذي كنتُ فيه مُستلقياً على بطني، مُحتقراً التعليمات وصرختُ فجأة وأنا أضرب جبهتي، تبّاً هناك الزّحف، كيف لم يخطر لي ذلك؟ لكن كيف السّبيل إليه مع وضعيّتي جذعي وساقَيَّ؟ ورأسي. وقبل المضيّ بعيداً، كلمة في خصوص همسات الغابة، أسمع جيّداً رغم ذلك لم يتناهَ إلَيَّ أمر مشابه، لكن مع الكثير من الإرادة والقليل من الخيال من بعيد أسمع نقرة صنج[15]، النّفير في الغابة أمر جيّد ومتوقّع. إنّه الصّميم. لكنّ الصّنج! حتّى الطمطام مقبول ولم يكن ليصدمني، لكن الصّنج! أمر مخيّب أن يسعى المرء إلى الإفادة من وجوده في الغابة ليستمع إلى همسها فلا يصله إلّا صوت الصّنج من بعيد. يمكنني التّرديد بأنّ قلبي ما زال ينبض،

15 – الصّنج: آلة موسيقيّة إيقاعيّة وهي عبارة عن صفائح من معدن مطروق، تُقرع الواحدة على الأخرى.

لكن لبرهة فقط. لكنّ قلبي لا يحدث ارتطاماً، فقط في مجال الهيدروليك أين يجب أن نبحث لها عن ضجيج هذه المضخّة القديمة. أسمع الأوراق قبل سقوطها، أيضاً بانتباه شديد لكن عبثاً، إنّها جامدة خرساء كأنّها نحاس أصفر. أراهن أنّي لاحظتُ كلّ شيء. هذا كلّ شيء بالنّسبة إلى همسات الغابة. من حين إلى آخر كنتُ أشغّل بوقي من خلال قماش الجيب. يرتدّ صوت مختنق. نزعتُه من الدرّاجة. متى؟ لا أدري. الآن كفى، ممدّداً على بطني، رحتُ أستغلّ عكّازَيَّ كخطّافين. أرمي بهما على الأرض وحين أشعر أنّهما عالقان أسحب نفسي بقوّة المعصمين، لحسن الحظّ أنّهما قويّان كفاية رغم الضّمور والانتفاخ النّاجمين عن التهاب المفاصل، من النّوع المُشوّه على الأرجح. كانت هذه بعض الكلمات حول أدائي، أسلوب التنقّل هذا له مزيّة يعرفها متعاطوه وهي أنّك إذا أردتَ الرّاحة فإنّك تتوقّف، هذا كلّ ما عليك فعله حسب تجربتي ودون الحاجة إلى حيل أخرى. لأنّ الرّاحة معدومة في الوقوف وفي الجلوس على حدّ السّواء. ثمّة رجال يتحرّكون جالسين وحتّى جاثين على ركبهم، متنقّلين يميناً ويساراً، إلى الأمام وإلى الخلف بواسطة عقّافات، لكن في عرف الزّواحف، أن تتوقّف يعني البدء في أخذ قسط من الرّاحة. وحتّى العرف نفسه هو قسط من الرّاحة مقارنة بنظرائه. أتحدّث عن تلك التي أرهقتني، بهذه الطّريقة إذن تقدّمتُ في الغابة ببطء. لكن باستمرار. كنتُ أنجز خمس عشرة خطوة في اليوم دون تبذير للطّاقة. أقوم بذلك على ظهري أحياناً، ألقي بالعكّازين كما اتّفق ورائي، وأجعلهما يعلقان في الشّوك، يغمر عينَيّ نصف المغمضتين الأسود السّماويّ للأغصان. أنا ذاهب إلى أمّي. ومن وقت إلى آخر أقول، أمّي. ربّما ألتمس تشجيعاً. أفقد قبّعتي أحياناً بسبب الرّباط الذي تمزّق. إلى أن فقدتُ أعصابي وبحركة مزاجيّة غرستُ القبّعة في جمجمتي بعنف لم أعد أستطيع معه انتزاعها. ربّما التقيتُ نساءً لن يتسنّى لي تحيّتهنّ كما يجب. لكن ظلّ يرافق ذهني الذي يشتغل وإن ببطء ضرورة الالتفات. الالتفات بلا هوادة، كلّ ثلاث أو أربع محاولات كنتُ أغيّر المنعطف

كي أسير في شكل دائريّ، أو مُضلّع في أسوأ الحالات. نفعل ما في وسعنا.آملاً التقدّم في خطّ مستقيم إلى الأمام رغم كلّ شيء، في خطّ مستقيم ليلاً ونهاراً نحو أمّي. سيأتي يوم تنتهي فيه الغابة وأرى ضوء السّهل كما توقّعتُ تماماً. لكنّي لم أره من بعيد وأنا أرتعش وسط الجذوع الصّارمة كما توقّعتُ، بل فجأة فتحتُ عينيّ ولاحظتُ أنّي وصلتُ. وهذا يُفَسّر بلا شكّ كَوْني لم أفتح عينَيَّ فترة طويلة إلّا لأمر استثنائيّ، حتّى تغيير الوجهة كنتُ أقوم به في الظّلام بمجرّد التّرجيح. انتهت الغابة بخندق لا أدري لماذا. داخل هذا الخندق وعيتُ بما حدث لي، لا بُدَّ أنّي فتحتُ عينيَّ إثر سقوطي في الخندق وإلّا لِمَ كنتُ سأفتحهما؟ نظرتُ إلى السّهل المترامي أمامي حتّى انحسار البصر وبعيني المعتادة على النّهار أظنّني رأيتُ الأفق يتراقص في أحداقي، والأبراج والأجراس لمدينة لا شيء يدلّ بطبيعة الحال على أنّها مدينتي، حتّى إشعار آخر. بدا لي السّهل مألوفاً لكن في جهتي كلّ السّهول متشابهة ومعرفة واحد يغني عن معرفة البقيّة. مدينتي أم لا، ما الفرق؟ على كلّ حال، تحت هذا الدّخان المريض في مكان ما تتنفّس أمّي، أو هي تُنتِنُ الأجواء من حولها مئة ميل، إنّها أسئلة تافهة بشكل معجز بالنسبة إلى رجل في حالتي وإن كنتُ غير مختلّ عقليّاً، إذ كيف أمكنني أن أتجوّل في هذه الأحراش الشّاسعة حيثُ عكّازَاي يجوسان كما عنّ لهما، بالدّحرجة ربّما. ثمّ ماذا بعدُ؟ هل سيُسمح لي بالدّحرجة حتّى أصل إلى بيت أمّي؟ لحسن الحظّ في هذه الظّروف العويصة التي توقّعتها بشكل عامّ دون مرارة، سمعتُني أقول بأنّه لا يجب التلفّظ بعبارة أنجدوني، حرفيّاً. تلك الكلمات ما انفكّ رنينها يصخب في أذني بصفاءٍ كعبارة الشّكر التي قالها لي الطّفل الذي التقطتُ له كجّتَه. لعلّي أبالغ. لا عليك مولوي لقد وصلنا. أخيراً ينبغي أن أكون عشتُ كلّ شيء بما في ذلك النّجدة كي تكتمل صورة كوكبهم في مُخيّلتي. تركتُ نفسي أتدحرج نحو عمق الخندق، يجب أن يكون الفصلُ ربيعاً، صباحاً ربيعيّاً، هُيئ لي فيه أنّي أستمع إلى العصافير، إلى القبّرات، مضى وقت طويل لم أستمع إليها. كيف لم أستمع إلى قبّرات

في الغابة؟ ولا رأيتها. لم يبدُ لي الأمر غريباً إذن. يبدو لي غريباً الآن. هل سمعتُها على حافّة البحر؟ نوارس؟ لا أذكر. أذكر أصوات خرخرة مسافرين يعودان إلى ذاكرتي، أحدهما لديه سلاح قديم، نسيتهما. أرى النّعاج. الآن أقول هذا. لا تزعجني المشاهد التي تعود إلى ذاكرتي. أذكر أنّ الشّمس والمطر يتناوبان. جوّ ربيعيّ بامتياز. أرغب في العودة إلى الغابة. أوه! ليست رغبة حقيقيّة. مولوي يمكنه المكوث حيث يوجد.

مكتبة
t.me/t_pdf

إنّه منتصف اللّيل. حبّات المطر تجلد زجاج النّافذة. أشعر بالهدوء. نائم، مع ذلك أنهض وأذهب إلى مكتبي. ليس لديَّ نعاس. المصباح يضيء لي. يبعث نوراً ثابتاً وناعماً. سيُرافقني حتّى الصّباح. أسمع البوم الكبير. يا له من صوتٍ حربيّ مرعب. قديماً كنتُ أسمعه بلامبالاة. ابني ينام. ليَنَمْ. ستأتي عليه ليلة لن يتمكّن خلالها من النّوم ويجلس إلى طاولة عمله. حينها يكون قد طواني النّسيان.

سيكون تقريري طويلاً. لن أتمّه على الأرجح. اسمي هو «موران جاك»، هكذا ينادونني. لقد هلكت. ابني أيضاً. لا يجب أن تساوره الشّكوك، يعتقد أنّه في ذروة الحياة. الحياة الحقيقيّة، ذلك صحيح. اسمه «جاك» مثلي. لا يجب الخلط. أذكر ذلك اليوم الذي تلقّيتُ فيه الأمر بالاشتغال على مولوي. كان يوم أحد، صيفاً. كنتُ جالساً على أريكة القصب في حديقتي الصّغيرة. كتاب أسود مغلق فوق ركبتي. كان ذلك حوالي الحادية عشرة. ولم يحن بعدُ موعد الذّهاب إلى الكنيسة، أتلذّذ يوم الرّاحة المُقدّس متأسّفاً على الأهمّيّة التي يولونها إليه في بعض الأديرة الأبرشيّة. أن تعمل أو حتّى تلعب لم يكن أمراً يُخلّف ذنباً من وجهة نظري. هذا متعلّق بالحالة الرّوحيّة للعامل أو للذي يلعب وبطبيعة العمل والألعاب، في رأيي.

أفكّر بنوع من الرّضا في طريقة التوسّع المتحرّرة نوعاً ما والتي تقضي حتّى بين رجال الدّين المتشدّدين بأنّ السّبت، شرط أن نذهب إلى الصّلاة ونؤدّي ما علينا من ضرائب للكنيسة، يمكن اعتباره يوماً كبقيّة الأيّام من

جوانب مُعيّنة. المسألة لا تعنيني لأنّي أحببتُ دائماً عدم القيام بأيّ عمل. سأرتاح عن طيب خاطر خلال الأيّام المفتوحة أيضاً. لستُ كسولاً إيجابيّاً. لا. الأمر مختلف تماماً. وأنا أراقب نفسي وأقوم بما وددتُ القيام به، لو أردتُ، والذي كنتُ دائماً سأنجزه على أفضل وجه في كلّ مرّة أقرّر فيها ذلك، يغمرني انطباع بأنّي أقوم بمهمّة ما من نشاط يمكنه أن يعلّمني إيّاها. لكنّي لا أحظى بهذا النّعيم، إلّا في أوقات نادرة طيلة الأسبوع. الطّقس رائع، أتفقّد نحلي، مداخل الخلايا ومخارجها. أسمع خطوات ابني حثيثة على الحصى. فخوراً بلا أدري أيّ وهمٍ كرٍّ وفرّ. أصرخ في وجهه كي لا يُلوّث ملابسه. لا يجيبني.

كلّ شيء كان هادئاً. ما من نفس واحد. دخان أزرق مستقيم يتصاعد من مداخن جيراني، أصوات تشي بالسّلام، خشخشة المدقّات والكرات، مشط يُجرُّ على رمل الحجارة والشّحرور وطائر الدجّ بنشيدهما المتباعد. للأسف بسبب الحرارة التي تجعلها تغادر الأغصان العالية للفجر إلى ظلال الأحراش. أستنشق بمتعة شذا زهور القوارص خاصّتي. في هذه البيئة أقضي آخر أوقات سعادتي وهدوئي. رجل يلج الحديقة ويتقدّم نحوي. أعرفه. أن يأتي أحد الجيران ليُلقي عليَّ تحيّة الصّباح يوم الأحد، إن كان هذا يسُرُّه، أقبله على مضض مُفضّلاً عدم رؤية أحد. لكنّه لم يكن جاراً. علاقتنا تحكمها المصلحة فحسب. لقد أتى من بعيد، قابلتُه بالبرود الذي يستحقّه شخص يتجرّأ على المجيء إلى حيث أجلس. تحت شجرة التفّاح. لا أرى بعين الاحترام الأشخاص الذين يمنحون أنفسهم هذه الحرّيّة. إذا أراد أحدهم التحدّث إليَّ فما عليه إلّا أن يطرق بابي. «مارتا» لديها توصياتها. لكنّي استدرتُ على صوت البوّابة مُتهيّجاً ورأيتُ خلف هذا الوجه المُلطّف بسبب الأوراق وجهاً طويلاً يخطو نحوي من خلال المرج. لم أقم ولم أدعه إلى الجلوس. وقف أمامي ورحنا نحدّق في بعضنا بصمت. كان مُثَقّلاً بالملابس القاتمة. ما جعلني أنقم عليه أكثر. هذا الظّاهر الفاحش فيما الرّوح ترفل في الخِرق، بدا لي دائماً أمراً بغيضاً. أرى القدمين الضّخمتين اللتين داستا

زهوري الصّفراء. كان من الضّروريّ أن أطرده بالسّوط لو لم يكن هو. اجلس، قلت مستأنساً إلى فكرة أنّه لا يقوم، في الأخير، سوى بعمله كوسيط. نعم فجأة شعرتُ بالشّفقة تجاهه. لاح لي ابني يراقبنا من خلف الشّجيرات. عمره ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً في تلك الفترة. كان طويل القامة قويّاً مقارنة بسنّه. ذكاؤه متوسّط في بعض الأوقات. هو ابني في النّهاية. أناديه، وآمره بأن يحضر لنا البيرة. أجدني أحياناً مضطرّاً إلى القيام بممارسات المتلصّصين أنا أيضاً. ابني يُقلّدني بالفطرة. بعد وقت وجيز عاد وفي يده كوبان وقارورة جعة من ذات اللّتر. فضّ السدّادة وخَدمنا. يعشق فضّ السدّادة. قلتُ له بأن يغتسل ويرتّب هندامه. في كلمة أن يجهز ليظهر أمام النّاس فبعد قليل سيكون موعد الصّلاة. يمكنه البقاء، قال «چابر». لا أريده أن يبقى، قلت. واستدرتُ مرّة أخرى ناحية ابني وقلت له ثانية بأن يستعدّ. لم يكن هناك شيء أمقته في تلك الفترة أكثر من الوصول متأخّراً إلى الصّلاة. قال «چابر»، كما تريد. حاولنا رفع الكلفة بيننا لكنّنا أخفقنا. لم أقل ولا أقول أنتَ إلّا لشخصين. ابتعد «جاك» متأفّفاً. إصبعه في فمه. عادة كريهة وغير صحّيّة. لكنّها أفضل على الأقلّ من إدخال الأصابع في الأنف حسب رأيي. إن كان هذا يبعده عن إدخال إصبعه في أنفه أو في أيّ مكان آخر فهو محقّ من هذا الجانب. هاهي تعليماتك، قال «چابر». أخرج مفكّرة من جيبه واسترسل يقرأ. كان يغلق المفكّرة من وقت إلى آخر تاركاً إصبعه داخلها ليُعلّق بكلام وشروط علَيَّ التقيّد بها لأنّي أعرف عملي جيّداً. عندما أَتمّ القراءة قلت له إنّ هذا العمل لا يستهويني وطلبتُ منه أن ينقل لسيّده أنّ عليه العثور على موظّف آخر. يريدك أنتَ، قال. الله وحده يعلم لماذا، أجاب «چابر». أحسستُ بإطراء كنتُ دائماً ضعيفاً أمامه، فقُلتُ، مؤكّد أنّه أخبرك لماذا. قال إنّك الوحيد القادر على القيام بهذا العمل، أجاب «چابر». مع أنّ الأمر بسيط وفي متناول طفل، قلت. ثمّ راح «چابر» ينتقد بفظاظة رئيسنا الذي اضطرّه إلى الخروج من مخدعه وقد تهيّأ لمضاجعة زوجته. لأجل أمر تافه، أضاف. قال لك إنّه لا يثق إلّا بي؟ قلت. لا يعي ما يقول، ردّ «چابر»، ولا ماذا يفعل. عدّل قبّعته وهو يفحصها بحرص كأنّه يبحث في داخلها عن

شيء. يصعب الرّفض، قلت. أنا على يقين تامّ أنّ الرّفض مستحيل. الرّفض! لكن نحنُ المُستَخدَمون كنّا نتسلّى في ما بيننا أحياناً بالاعتراض متظاهرين بأنّنا رجال أحرار. اليوم ترحل! قال «چابر». صمتُّ. سادت الجدّيّة فصمتنا. أقفل «چابر» المفكّرة وأعادها إلى جيبه الذي زرّره أيضاً. نهض. أجال يده فوق صدره. أشرب المزيد، قال. اذهب إلى المطبخ وستعتني بك الخادمة، قلت. إلى اللّقاء «موران»، قال. تأخّر الوقت على الذّهاب إلى الصّلاة. لستُ في حاجة إلى إلقاء نظرة على ساعتي كي أدرك ذلك. أشعر أنّ الصّلاة بدأت دوني، أنا الذي لا يغيب عن الصّلاة أبداً، أغيب عنها هذا الأحد وأنا في أمسّ الحاجة إليها لأبدأ رحلتي. قرّرتُ المطالبة باستقبال خاصّ خلال الظّهيرة. لم أهتمّ بالغداء. مع الأب «أمبرواز» ثمّة مخرج دائماً. دعوتُ «جاك» دون جدوى. قلتُ في نفسي، ربّما ذهب إلى الصّلاة خلال اجتماعي بـ «چابر». اتّضح لاحقاً أنّي كنتُ على صواب. وأضفت، كان عليه المجيء لرؤيتي قبل الذّهاب. كنتُ أحلّل محاوراً نفسي وكان من السّهل دون تدقيق رؤية شفتَيّ تتحرّكان. لقد خشي، بلا شكّ، أن يزعجني فأقبض عليه. إذ يحدث أن أتجاوز الحدود مع ابني عندما أقبض عليه لذلك هو يخافني قليلاً. أمّا أنا فلم يؤدّبني أحد كفاية. لم يدلّلني أحد. أهملوني ببساطة. ممّا خلّف لدَيَّ عادات سيئة لا علاج لها، حتّى الورع الأكثر نقاءً لا يفلح معها. وددتُ لو أنّ في استطاعتي جعل ابني يزهد بإعطائه صفعة من حين إلى آخر مبرّراً له ذلك بحكمة. ثمّ أتساءل هل يجرؤ على الإجابة بأنّه كان في الصّلاة فيما هو مثلاً يُلاحق رفاقه خلف المسلخ. وقطعتُ عهداً بأن أنتزع من الأب «أمبرواز» رأياً في هذا الشّأن. إذ لا يجوز أن يتوهّم ابني من القوّة ما يجعله يكذب دون عقاب. وإن لم أجد ما يُقنع لدى الأب «أمبرواز» فسأتوجّه إلى القسّ الذي لم يكن ليتخيّل أن يمرّ حضور ابني الصّلاة أو غيابه مرور الكرام. لأنّي أعرف عن يقين أنّ لدى القسّ قائمة بأسماء المخلصين وأنّه بحكم موقعه بمحاذاة الماء المُقدّس كان دائماً يصوّب نظراته علينا أثناء الوضوء. تجدر الملاحظة أنّ الأب «أمبرواز» يجهل كلّ شيء يتعلّق بهذا الهرج. نعم كلّ ما كان له صلة بالمراقبة كان بغيضاً بالنّسبة إلى الأب الطيّب «أمبرواز» ومن المؤكّد أنّه كان

سيطرد القسّ فوراً لو علم بقدرته على الإقدام على وقاحة مماثلة. حتماً هذا يعني أنّ القسّ يعمل لصالحه الخاصّ بحرصه على تسجيل قائمة محيّنة بهذا القدر من الانضباط. أعرف فقط ما يحدث خلال صلاة منتصف النّهار. إنّها قضيّة مفهومة بما أنّي لا أملك تجربة في مراكز أخرى لم يسبق أن وطئتها قدماي. لكنّي خلصتُ إلى القول بأنّ تمرين الرّقابة ذاته الذي يمارسه القسّ يقوم به أبناؤه الكثيرون في أماكن أخرى أبرشيّة غريبة، المكفولون فيها أبعد نظراً من القسّ في شؤون تبدو في صالحه أكثر ممّا هي في صالحهم. هذا ما كنتُ أهجس به في انتظار عودة ابني ورحيل «چابر» الذي لم أكن قد سمعتُه بعدُ يغادر. في ذلك المساء بدا لي غريباً أن أفكّر في ابني. في قلّة تربيتي وفي الأب «أمبرواز» والقسّ «جولي» وسجلّه في تلك الآونة بالذّات. ألم يكن لَدَيَّ ما أشغل به نفسي بعد الذي سمعتُه؟ في الواقع لم أكن قد أخذتُ المسألة مأخذ الجدّ بعد. كنتُ مندهشاً من تسلّل تهوّر مماثل إلى طبيعتي. أو أنّي أردت الإتاحة لنفسي مزيداً من لحظات السّلام التي كنتُ غريزيّاً أتجنّبها. وإن كان مع تلاوة «چابر» لتقريره بدت لي القضيّة لا تستحقّ أن أتبنّاها فإنّ إصرار الزّعيم على تكفّلي بها، أنا «موران» دون غيري وخبر مرافقة ابني لي، يُفترض أن يُنبّهاني إلى أنّه عمل خارج عن العادة. وبدل تسخير مواردي وتجربتي برمّتها فوراً للمهمّة، رحتُ أفكّر في فقر دمي وفرادة محيطي. مع ذلك فإنّ السمّ بدأ يؤتي عمله. السمّ الذي دُسَّ لي للتوّ. كنتُ أتحرّك دون توقّف في أريكتي. أجعل وجهي بين راحَتَيَّ. أضع ساقاً فوق ساق. أُخليهما إلخ. لقد غيّر العالم من ألوانه ووزنه. يجب أن أعترف الآن بأنّي قلق. أذكر بأسف الجعة التي احتَسيتها. لن يسألني أحدٌ شيئاً. لكن الله. الله سيعرف ذلك آجلاً أم عاجلاً. سيسامحني ربّما. لكن هل للقربان المقدّس المفعول نفسه لو شربتُه بعد الجعة. هل اعتُصر في مارس؟ يمكنني دائماً أن أحاول. أين ذهبت تربية الكنيسة إن كنتُ سأرتكب دنساً؟ وقرّرتُ أن أمتصّ قطعاً من حلوى النّعناع وأنا في طريقي إلى بيت الكاهن. نهضتُ وذهبتُ إلى المطبخ. سألتُ إن كان «جاك» قد عاد. لم أره، أجابت «مارتا». تبدو في مزاج سيّئ. والآخر؟ قلت. أيّ آخر؟ قالت. ذاك الذي جاءك من طرفي يطلب البيرة،

قلت. لم يطلب منّي أحد شيئاً، قالت «مارتا». حسناً، لن أتناول غدائي اليوم، قلت ذلك دون نبرة خاصّة. سألتني إن كنتُ مريضاً لعلمها بأنّ شهيّتي بلا حدود عادة، خصوصاً غداء يوم الأحد، أحبّذ أن يكون روتينيّاً حتّى أصغر التّفاصيل. الرّائحة زكيّة في المطبخ. سأتغدّى لاحقاً، هذا كلّ ما في الأمر، قلت. رمقتني «مارتا» بغضب. لنقل عند الرّابعة، قلت. خلف تلك الجبهة الرّماديّة أعرف كلّ الأشياء التي تركض وتصهل وتقف على قوائمها الخلفيّة. لن تخرجي اليوم، قلت ببرود، أنا آسف. اندفعتْ نحو أوانيها محتقنة في صمت. حاولي قدر مستطاعك ترك الأكل ساخناً، قلت. لك الغد بأكمله إن كان هذا يرضيك، أضفتُ وأنا على علم بأنّها قادرة على تسميمي. خرجتُ. اتّخذتُ الطّريق. رحل «چابر» إذن دون احتساء المزيد من الجعة. كان مع ذلك راغباً في ذلك بشدّة. نوعيّة جيّدة الوانشتاين[16]. رحتُ أرقب عودة «جاك». إن كان قادماً من الكنيسة فسيعترضني من جهة اليمين ومن اليسار إن كان عائداً من المسلخ. جارٌ من أولئك المفكّرين الأحرار مرّ بجانبي. إذن لا مزاج لنا اليوم؟ يعرف جيّداً عاداتي، عاداتي الدينيّة أقصد. الجميع يعرفها والرّئيس يعرفها أفضل من أيّ كان رغم أنّه بعيد. يبدو أنّك مدبر، قال الجار. لا تصادفني إلّا وأنت مُدبر، قلت. قفلتُ وابتسامة إخلاص قبيحة تُسوّط ظهري. وتخيّلتُه يركض نحو محظيّته قائلاً، تعرفين ذلك الأحمق «موران». آه لو رأيت كيف سلخته، لم يجد ما يقوله فهرب. عاد «جاك» بعد قليل. لا يحمل علامات التّهذيب. قال إنّه ذهب إلى الكنيسة بمفرده. طرحتُ عليه جملة من الأسئلة المناسبة حول سير الطّقس. أجاب دون انقطاع. طلبتُ منه أن يغسل يديه ويجلس إلى الطّاولة. رجعتُ إلى المطبخ أغدو وأروح. يمكنك وضع الطّعام، قلت. بَكت «مارتا». تفقّدتُ الأواني قليلاً. أواني الإريش ستيو[17]، أكلة مغذّية ومقتصدة وعسيرة الهضم. الشّرف للبلاد التي نشرت الاسم. سآكل عند الرّابعة، قلت. لم أكن في حاجة إلى التلفّظ بحرف

16 – الوانشتاين: ذُكرت هنا على أنّها نوع من أنواع البيرة.

17 – الإريش ستيو: أكلة شعبيّة إرلنديّة، وهي عبارة عن مرق بلحم الضّأن تقدّم مع البطاطا والبصل والجزر.

إضافيّ. أحبّ الدقّة. كلّ الذين يحتمون بسقفي عليهم أن يحبّوها أيضاً. صعدتُ إلى غرفتي. ممدّداً على فراشي، السّتائر مسحوبة، قمتُ بأولى المحاولات للتركيز على ملفّ مولوي. في البداية اهتممتُ فقط بالمشاكل الفوريّة والاستعداد الذي سأضطرّ إلى اتّخاذه في شأنها. العقدة في قضيّة مولوي ما زلت أستبعدها من دائرة تفكيري. أحسستُ بتشويش كبير يجتاحني. كان لديَّ دائماً نمط تفكير منهجيّ ولا أخوض أبداً مهمّة قبل تفكير طويل يتعلّق بالطّريقة الأمثل للمشروع. ذاك كان أوّل إشكال تحتّم علَيَّ حلّه في بداية كلّ بحث، وأبداً لا أتحرّك قبل أن أحلّه حتّى أرضى. أحياناً آخذ درّاجتي الناريّة، وأحياناً القطار أو الحافلة، ويحدث أن أبرح سيراً على الأقدام، أو على درّاجتي الهوائيّة. بصمت أثناء اللّيل، وحين نكون محوطين بالأعداء كما هو حالي، لا يمكن الرّحيل بدرّاجة ذات محرّك ليلاً دون أن نثير الانتباه من حولنا. إنّه جنون، ومن عاداتي أوّلاً أن أحسم مسألة التنقّل الحسّاسة، بل العميقة، كفاية ما يجعلني أدرس كلّ النقاط المرتبطة بها. إذ كيف نقرّر الوسيلة التي ستقلّنا ونحن لم نحدّد بعد الوجهة التي نقصدها، لكن هذه المرّة عالجتُ مسألة التنقّل غيرَ متسلّح سوى بتمكّني التام بما جاء في نصّ «چابر». يمكنني التوصّل فيه إلى أدقّ التفاصيل متى شئتُ لكنّي لم أكن بعدُ قد وصلتُ إلى تلك المرحلة، قائلاً، إنّها قضيّة سخيفة. إصراري على مسألة التنقّل كان جنوناً، مع ذلك قمتُ به. فقدتُ عقلي قبل الشّروع في أيّ شيء. أهوى السّفر بالدرّاجة الناريّة. أحبّ طريقة التنقّل تلك. وهكذا وجد مبدأ المتعة المهلك طريقه إلى ملفّ مولوي، أشعّة الشّمس تخترق شقوق السّتائر فتجعل سحابة الغبار مرئيّة، استنتجتُ أنّ الطّقس ما زال جميلاً فانتشيتُ. يجب أن يكون الطّقس جميلاً لو قرّرنا السّفر بدرّاجة المحرّك. أسأت التقدير لأنّ الطّقس أخذ يسوء، غشت الغيوم السّماء وبعد قليل ستمطر. لكن في الوقت الحالي، السّماء ما زالت صافية والشمس مشرقة. هذا ما بنيتُ عليه بخفّة وبصورة سطحيّة إذ لم يكن لديَّ علامات أخرى أستأنس لها في أخذ القرار.

ثمّ وفقاً لمنهجيّتي كرّستُ اهتمامي لمسألة مصيريّة ألا وهي النّتائج التي علَيَّ تحمّلها. في هذا الباب اتّخذتُ قراراً تافهاً جدّاً دون أن أقحم ابني الذي سألني إن كان يمكنه الخروج. ضبطتُ أعصابي. مسح بيده على فمه. لا أحبّ أن أرى ذلك. إنّما لدَيَّ فكرة عن سلوكيّات أفظع.

تخرج؟ قلت، إلى أين؟ خروج! يا لها من ريح شرّيرة. بدأتُ أجوع بشدّة. إلى «الأرمو»[18]، أجاب. هكذا كنّا نكنّي حديقتنا العامّة رغم أنّها لا تحتوي على شجرة أذن بحر واحدة. أكّدوا لي ذلك. لماذا؟ قلت. لأعتني بنباتاتي، أجاب. منذ فترة صرتُ أشكّ في أنّ ابني خبيث. إنّها مناورة. وددتُ لو قال إنّه يريد استنشاق الهواء أو التفرّج على البنات. المأساة هي أنّه يفوقني معرفة بالحدائق والنّبات. وإلّا لكنتُ أمطرتُه بأسئلة أكشف بها مكره. أنا أحبّ الخضر، هذا كلّ شيء. بل أرى فيها أحياناً دليلاً قاطعاً على وجود الله. هيّا اذهب، لكن على أن تكون هنا عند السّاعة الرّابعة والنّصف. لَدَيَّ ما أحدّثك به. حسناً أبي، قال. حسناً أبي! آه! نمتُ قليلاً. لنختصر. شيء ما استوقفني وأنا مارّ أمام الكنيسة. تأمّلتُ البوّابة. النّمط المسيحيّ الرّائع. بدا لي بشعاً. غذّيتُ الخطى نحو الكاهن. الأب نائم، قالت. الخادمة. سأنتظره، قلت. هل الأمر مستعجل؟ قالت. نعم ولا، قلت. رافقتني إلى الصّالون ببرود مقيت. دخل الأب «أمبرواز» يفرك عينيه. هل أزعجك أيّها الأب؟ قلت. تلمّظ علامة الاحتجاج. لن أصبغ سلوكَيْنا. له طبيعته ولي طبيعتي. قدّم لي سيجاراً قبلتُه بكلّ سرور. دسستُه في جيبي بين قلمي وقلم الرّصاص. يغُرُّ الأبَ «أمبرواز» أنّه يتصرّف بنبل ويحترم البروتوكول، هو الذي لا يُدخّن أبداً. يقول عنه النّاس إنّه واسع. سألتُه إن كان لاحظ وجود ابني في صلاة منتصف النّهار. طبعاً، قال، بل لقد أنشدنا أيضاً. أبديتُ اندهاشاً. نعم، قال، لم أرك جالساً في مقعدك في الصفّ الأوّل للمُقدّسين وخشيتُ أن تكون مريضاً فدعوتُ الابن العزيز وطمأنني. تلقّيتُ زيارة في الوقت الأقلّ ملاءمة

18 – الأرمو: تُسمّى شجرة أذن البحر بسبب فاكهتها التي تُشبه الصّدفة وهي شجرة عملاقة يمكن أن تبلغ من الطّول من 30 إلى 35 متراً.

على الإطلاق، قلت. شرح لي ابنك ذلك، قال. لكن لنجلس أوّلاً، ما من معرض على الجسر[19]. ضحك وجلس وهو يشمّر ثوبه الثّقيل. القليل من النّبيذ؟ قال. احترتُ، هل لمّح «جاك» لموضوع البيرة؟ قادر على فعلها. جئتُ أطلب منك فضلاً، قلت. منحتُك إيّاه، قال. تبادلنا النظرات. إنسان بلا قربان هو بالنّسبة إليَّ كـــــــــــ. رفع يده. لا مقارنات مدنّسة من فضلك. لعلّه فكّر في قُبَلٍ بلا شوارب أو لحم مشويّ بلا خردل. لا أحبّ أن يُصادَر رأيي أو أن تتمّ مقاطعتي. عبست. أراك قد جئت، قال، هل ترغب في أن تناجي؟ أجب. طأطأتُ رأسي. ليس هذا من النّظام في شيء، قال. تساءلتُ إن كان قد أفطرَ. أعرف أنّه ملتزم بصوم طويل بهدف تطهير نفسه من الخزي. ثمّ لأنّ طبيبه قد نصحه بذلك كحجر واحد يصيب هدفين. لا تُخبرُ أحداً، قال. ليظلّ الأمر بيننا. وصَمتَ رافعاً إصبعه وعينيه للسّقف. حسناً، قال، ما هي هذه المهمّة؟ نظرتُ إلى السّقف بدوري. أثر رطوبة، قلت. تاتا، قال، كم هذا مملّ. كلمة تاتا تبدو لي خرفة بشكل لا يوصف. هناك أوقات، قال، نستسلم فيها للإحباط. نهض. ذاهب لأحضر حقيبتي، قال. يسمّي ذلك الشّيء حقيبة. ضممتُ يديَّ إلى حدّ تمزّق المفاصل ودعوتُ النّصح من الربّ. بلا نتيجة. لعلّي اهتديتُ. أمّا الأب «أمبرواز» بالنّظر إلى طريقة انكبابه على حقيبته بدا واضحاً أنّه لم يشكّ في شيء بعينه. أو أنّه يتسلّى باكتشاف ما سيبدر عنّي أو أنّه يتسلّى بإقحامي في الإثم؟ ألخّص الموقف في المعادلة التالية. إنّ كان على علم بأنّي احتسيتُ البيرة مع ذلك يُصرّ على الاستماع إلى مناجاتي فهذا يعني أنّه مذنب مثلي تماماً. هذا إن كان هناك ذنب أصلاً. لا شيء جسيماً في انتظاري إذن. عاد ومعه حقيبة كالوعاء. فتحها. وأشار إليَّ دون تردّد. نهضتُ وشكرتُه بحرارة. إيه! قال، ترّهات، الآن لندردش.

---

19- ما من معرض على الجسر: تعبيراً عن غياب سبب وجيه للتوتّر أو العَجَلة. وأصل العبارة يعود إلى القرون الوسطى عندما كان التجّار الأفارقة والشرقيّون لا يجدون مكاناً لعرض بضائعهم في مدينة بوكير الفرنسيّة خلال معرضها السنويّ في جويليه من كل سنة فيضطرون إلى الانتصاب بسلعهم فوق جسر على نهر الرون والجسر يصل المدينة بالضفة التي يأتي منها المشارقة.

لم يكن لدَيَّ المزيد لأقوله، لا شيء يحدوني سوى الرّغبة في العودة إلى منزلي وحشو نفسي بالـ«ستيو». روحي آمنة. أشعر بجوع قاتل. لكن كان لَدَيَّ ثماني دقائق تفصلني عن الموعد، لذا قرّرتُ أن أمنحه إيّاها. بدت لي طويلة جدّاً. أخطرني بأنّ السيّدة «كليمون» صيدلانيّة زوجة صيدلانيّ، سقطت في مؤسّستها من أعلى السلّم فكسرت رقبتها. الرّقبة! صرخت. العظم، قال. ألا تتركني أكمل! أضاف بأنّه أمر كان لا بُدَّ أن يحدث. إحساسي بأنّي مدين له بشيء جعلني أهتف، دجاجاتي يسبّبن لي الإحباط. خصوصاً الرّماديّة فهي لا تبيض ولا تحضن منذ أكثر من شهرين إنّها تظلّ باركة منذ الصّباح حتّى المساء بمؤخّرة في الغبار. كـ«-جوب»، قال، ها ها. أنا أيضاً قهقهت. كم أنّ الضّحك باعث على السّعادة من وقت إلى آخر، قال، أليس كذلك؟ قلت. إنّه جوهر الإنسان، قال، لاحظتُ ذلك. صمتٌ قصير ساد بيننا. ماذا تطعمها؟ قال. الذّرة بشكل خاصّ، قلت. مغليّة أم حبّاً؟ قال. أضفتُ بأنّها لم تعد تأكل. الحيوانات لا تضحك أبداً، قال. نحن فقط من يضحك للتّسلية، قلت. ماذا؟ قال. نحن فقط نضحك لنتسلّى، قلت بحزم. استغرق يُفكّر. المسيح أيضاً لم يضحك أبداً، قال، على حدّ علمنا. رمقني بنظرة. ماذا تقصد؟ قلت. بالطّبع، قال، نحن نبتسم بحزن. هل هي مُصابة في فمها؟ سأل. أجبتُ بأنّها مُصابة في كلّ شيء عدا الفم. هذا مؤكّد. فكّر وقال، هل جرّبتَ البيكربونات من قبل؟ لا لم أفعل، قلت. جرّبه، قال مُحمَرّاً من النّشوة. اجعلها تبتلع منه بعض ملاعق التّحلية مرّات عديدة في اليوم. وواظب على ذلك مدّة أشهر وسترى كيف ستصبح صحّتها حديد. هل هو مسحوق؟ قلت. لا بل أقراص، قال. شكراً، قلت. سأجرّبه بدءاً من اليوم. دجاجة جميلة. دجاجة بيض جيّدة، قال. حسناً، بدءاً من الغد، قلت. نسيتُ أنّ الصّيدليّة مقفلة ولا تفتح إلّا لسبب قاهر بالطّبع. والآن القليل من النّبيذ، قال. شكرتُه.

حواري مع الأب «أمبرواز» ترك في داخلي انطباعاً شاقّاً. إنّه الرّجل العزيز على قلبي نفسه، مع ذلك لم يعد. يُخيّل إليَّ بأنّي رصدتُ على

وجهه نقصاً. كيف يُقال ذلك. تدنّياً في النُّبل. يجدر القول إنّ رقائق الخبز والبسكويت لا تُبتَلَع. في طريق العودة إلى بيتي تملّكني شعور بأنّي رجلٌ ابتلع مُسكّناً. يندهش أوّلاً ثمّ يحسّ بالعار لأنّه ما زال يتنفّس بصورة طبيعيّة. كنتُ فعلاً على وشك إدانة الأب «أمبرواز» متّهماً إيّاه، لعلمه بالتّجاوز الذي قمتُ به في الصّباح، بأنّه دسّ لي خبزاً غير مبارك أو أنّه نوّمني ذهنيّاً بكلمات سحريّة. وبمزاج سيّئ للغاية وصلتُ إلى بيتي تحت مطر يجلد جلداً. خيّب الـ«ستيو» ظنّي. أين البصل؟ صرخت. لقد تقلّص، قالت «مارتا». هرعتُ إلى المطبخ بحثاً عن البصل فقد ساورتني الشّكوك بأنّها تخلّصت منه لعلمها بأنّي أحبّه. فتّشتُ في القمامة. لا شيء. كانت تراقبني أتصرّف بملامح لئيمة.

صعدتُ إلى غرفتي. فتحتُ السّتائر على سماء كارثيّة واستلقيت. لا أفهم ما الذي يحدث معي. كان شاقّاً في تلك الفترة أن لا أفهم أمراً كهذا. قمتُ بمجهود خاصّ كي أتمالك نفسي. أخفقت. حتماً إنّ حياتي تتسرّب لا أدري من أين. حاولتُ أن أغفوَ لكن كان من الصّعب أن أفلح مع تفاقم السّوء الذي أشعر به. سرّني أنّي تمكّنتُ من النّوم عند الغسق لمّا دخل ابني دون استئذان. إن كان ثمّة أمر أمقته فهو أن يدخل أحدهم غرفتي دون أن يطرق. كان من الممكن أن أكون في وضعيّة استمناء أمام مرآتي الـ«ألبروت». مشهد لا يُحتذى كثيراً بالنّسبة إلى ولد أنا والده. القضيب صلب والعينان جاحظتان وأنا بصدد انتزاع لذّة غامضة وعنيدة. بلطف ذكّرتُه باللّياقة. احتجّ قائلاً إنّه طرق مرّتين. كان عليك أن تطرق مئة مرّة، أجبت، لا يحقّ لك الدّخول قبل أن يُؤذن لك. لكن، قال. لكن ماذا؟ قلت. دعوتني الرّابعة والنّصف، قال. ثمّة ما هو أهمّ من دقّة المواعيد في هذه الحياة، أعد، قلت. في هذا الفم المستهتر بدت لي جملتي مخجلة. شعرَ بالإهانة. ماذا رأيتَ، قلت. الزّنابق يا أبي، ردّ. الزّنابق يا أبي! إنّ لديه طريقة خاصّة جدّاً في التّلفظ بكلمة أبي، يجرحني بها عندما يرغب في ذلك. الآن اسمعني جيّداً قلت. اتّخذ وجهه سحنة انتباه قلق. سنرحل هذا المساء، قلت، بنبرة متقطّعة، سنسافر، سترتدي بدلة المدرسة الخضراء. لكنّها زرقاء يا أبي، قال. زرقاء أو خضراء، ستلبسها،

قلت بعنف. واستأنفتُ، تضعُ أغراض الحمام والقميص وتسعة ملابس داخليّة وزوج جوارب في حقيبة الظّهر التي أعطيتُك إيّاها في حفلك. هل فهمت؟ أيّ قميص يا أبي؟ قال. لا يهمّ أيّ قميص، صرخت، قميص وكفى. وأيّ حذاء ألبس؟ قال. لديك زوجا أحذية، قلت. حذاء الأحد وحذاء سائر الأيّام، وتسألني أيّ حذاء ألبس؟ قلت. قدّمتُ لابني تعليمات دقيقة لكن هل هي صائبة؟ هل قاوَمَت التّفكير؟ ألن أجد نفسي مضطرّاً إلى التّراجع عنها؟ أنا الذي لم يسبق أن غيّرتُ رأيي البتّة أمام ابني. كان كلّ شيء رهن التحسّب. أين سنذهب يا أبي؟ كم مرّة قلت له بأن لا يسألني. لكن حقّاً أين سنذهب. افعل ما طلبته منك، قلت. أنا على موعد مع السيّد «بي» قال. تراه يوماً آخر، قلت. لكنّي أتألّم، قال. هناك أطبّاء أسنان كثيرون غيره، قلت، السيّد «بي» ليس الطّبيب الوحيد في النّصف الشّماليّ للكوكب. وأضفتُ بحذر، لن نذهب إلى الصّحراء على أيّ حال. لكنّه طبيب أسنان جيّد، قال. كلّ الأطبّاء مرموقون، قلت. كان في وسعي أن أقول له، اغرب عن وجهي أنت وحكاية طبيب الأسنان هذه. لكن لا، لقد حلّلتُ معه الأمور بلطف وحدّثته ندّاً لندّ. كان في إمكاني أيضاً أن أواجهه بكذبه حين يقول إنّه يتألّم. لم يعانِ منها. «بي» نفسه أخبرني بذلك. لقد عالجنا الضّرس، قال لي، من المستحيل أن يعاني ابنك منها مستقبلاً. أذكر حوارنا جيّداً. لديه أضراس سيّئة بطبيعتها، قال «بي». بطبيعتها؟ قلت، كيف بطبيعتها؟ إلى ماذا تلمّح؟ وُلد بأضراس سيّئة، قال، وسيظلّ لديه دائماً أضراس سيّئة. طبعاً سأقوم بما سأقدر عليه. أي إنّي وُلِدتُ مُسخّراً للقيام بما يمكنني فعله. سأقوم دائماً بما يمكنني فعله. وُلِد بأضراس سيّئة! أمّا أنا فلم يبقَ لي سوى النّابين العُلويّين، اللّذَين يلقمان. هل تمطر؟ قلت. أخرج ابني قطعة صغيرة من مرآة يحتفظ بها في جيبه وراح يفحص فمه من الدّاخل مُبعداً شفته العلويّة بإصبعه. واه! قال دون أن يقطع فحصه. كفى، توقّف عن العبث بفمك! صرخت. اذهب إلى النافذة وانظر إن كان المطر ما زال ينزل، قلت. اتّجه إلى النّافذة وقال لي، ما زال ينزل. السّماء مُغشّاة بالكامل؟ قلت. نعم، أجاب. لا أثر للبرق، قلت. لا، قال. أغلقِ السّتائر، قلت. لحظات لذيذة قبل أن تعتاد العين على

الظّلام. ما زلت هنا؟ قلت. ما زال هناك. سألتُه ماذا ينتظر لينفّذ ما طلبتُه منه. لو كنتُ مكان ابني لانصرفتُ منذ مدّة. لا يستحقّني. لسنا من قماش واحد. لم أفلح في طرد هذه الخلاصة. شعور رديء بالرّضا أن تحسّ التفوّق على ابنك وغير كافٍ لإخماد النّدم لأنّك أتيتَ به إلى هذه الدّنيا. هل في إمكاني أن أحمل معي مجموعة الطّوابع البريديّة؟ قال. لدى ابني ألبومان، واحد كبير يحتوي على مجموعة بمعنى الكلمة، وآخر صغير يضمّ النّسخ. سمحتُ له بأخذ الألبوم الصّغير. عندما يكون في استطاعتي أن أسديَ خدمة لمبادئي دون استخدام العنف فإنّي أفعل عن طواعية. انسحب. نهضتُ وذهبتُ إلى النّافذة. لا يسعني البقاء هادئاً. أمررتُ رأسي بين السّتائر. رذاذ وسماء مسدودة. لم يكذب عليَّ. يتمّ الحديث عن صحو مرتقب. عند الثّامنة أو الثّامنة والنّصف. غروب جميل. غسق، ليل. قمر يتناقص، يطلع حوالي منتصف اللّيل. أدقّ الجرس لـ«مارتا» وأنام. العشاء سيكون في البيت، قلت. حدّقتْ فيَّ بذهول. ألسنا نتناول العشاء دائماً في البيت؟ قالت. لم أخبرها بعدُ بأنّنا راحلان. سأطلعها في آخر دقيقة. القدمان في الرّكاب كما يُقال. ثقتي فيها محدودة. سأناديها في آخر دقيقة وأقول لها، «مارتا» نحن ذاهبان. يوماً أو يومين أو ثلاثة أيّام، ثمانية أيّام، خمسة عشر يوماً، لا أدري، وداعاً. لم ألفت انتباهها إذن. لِمَ أزعجها؟ كانت ستقدّم لنا العشاء في كلّ الحالات كما تفعل عادة. ارتكبتُ خطأ وضع نفسي في مكانها. ولِمَ حرمتها من ساعات بعد الظّهيرة؟ هذا يمكن فهمه بشكل أو بآخر. لكن أن أقول لها بأنّ العشاء اللّيلة سيكون في البيت. يا له من لسان أخرق. هي تعرف ذلك. تظنّ أنّها تعرف ذلك. بل تعرفه فعلاً. إثر التّفصيل المجانيّ الذي قدّمتُه ستتوقّع الأغرب وستضعنا تحت الرّقابة لتُحاول الإلمام بما يجري. خطأ أوّل. ثانٍ، لأنّ الأوّل في الزّمن كان عندما تغافلتُ عن توصية ابني بعدم ترديد ما دار بيني وبينه. لم يكن ذلك ليمنع شيئاً. لا بأس، لا ألوم إلّا نفسي. كان عليَّ القيام بذلك. أنا الماكر في العادة صرتُ أرتكب الحماقات. في محاولة منّي لتدارك أمري، قلت لها، بعد الموعد بقليل، لنقل عند السّاعة التاسعة ليس أقلّ. غادرتْ «مارتا» بوجدان فظّ يغلي. لستُ هنا لأجل أحد،

قلت. أعرف ما تنوي فعله. سترمي بكيس على كتفها وستنزلق نحو الحديقة. ستنادي «حنّا» طبّاخة الأخوات «السنر» العجوز، سيثرثران مدّة معتبرة من خلال القضبان. «حنّا» لا تخرج أبداً. تكره الخروج. والأخوات «السنر» جارات طيّبات في الواقع. ما أعتبه عليهنّ مبالَغتهنّ في عزف الموسيقى. هذا ما أجده لهنّ من عيب. إن كان هناك أمر يدمّر نظامي فهي الموسيقى. ما أؤكّده وأنفيه وأشكّ فيه، ما زلتُ قادراً على التمسّك به حتّى اليوم. لكن سأستعمل أشكال صرف الأفعال في الماضي لأنّي غير متأكّد أغلب الوقت. لم تعد الأشياء على أصلها، أظنّ. ما زلتُ لا أدري. لا أدري فحسب. لن أدري أبداً ربّما. أفكّر في الأخوات «السنر». لا بدّ من ترتيب الأشياء والتّفكير في الأخوات «السنر». كان لديهنّ (أبردين)[20] اسمه زولو! ويأتي ليلقيَ التحيّة عبر القضبان. لكن ينبغي أن أكون سعيداً كي أفعل. لا أحبّ الحيوانات. أمر يدعو إلى الفضول. لا أحبّ البشر ولا أحبّ الحيوانات، أمّا الربّ فبدأ يثير اشمئزازي. أقرفص وأشرع في إغاظته بقرصه من أذنه من خلال القضبان وأنا أقول له كلمات مداعبة. لا يعي أنّه يزدريني. ينتصب على قائمتيه الخلفيّتين ويستند بصدره على القضبان فأرى عضوه الأسود الذي ينتهي بخصلة وبر هزيلة مبلّلة. يشعر بعدم الاتّزان. عضلات ركبته ترتعش. قائمتاه تبحثان لهما عن مكان، الواحدة بعد الأخرى. أنا أيضاً وأنا أترنّح جالساً بوزني على كعبَيَّ. أمسك بالقضبان بيدي الحرّة. أنا أيضاً أسبّب له القرف ربّما. أجد صعوبة كبيرة في التخلّص من أفكاري الجوفاء.

أتساءل في حركة تمرّد ما الذي يجعلني أوافق على القيام بهذا العمل. لكنّي قبلتُه وانتهى الأمر. لقد أعطيتُ كلمتي. فات الأوان. الشّرف. لقد سارعتُ إلى إبداء عجزي. لكن ألا يمكن أن أُرجئ الرّحيل إلى الغد؟ أو الذّهاب وحدي؟ مناورات غير مجدية. لن نرحل إلّا في الدّقائق الأخيرة قبل منتصف اللّيل بقليل. إنّه قراري النّهائيّ، قلت لنفسي. شكل القمر يبرّر لي ذلك. أتصرّف كما لو أنّي لا أفلح في النّوم. أتجوّل داخل عقلي برويّة راسماً

20- أبردين: كلب قويّ ومرح لا يتجاوز وزنه العشرة كيلوجرامات، من أصل اسكتلندي.

كلّ تفاصيل المتاهة، الدّروب المألوفة في حديقتي والتي ما زالت تبدو لي حديثة عهد، صحاري كما يتمنّى المرء وأخرى مأهولة بلقاءات غريبة. وأسمع من بعيد صوت الصّنوج. لديَّ متّسع من الوقت. لديَّ الوقت، لكنّ الدّليل على النّقيض هو أنّي أتوقّف عن الخيال شارداً، خاوياً لأحاول التّفكير مجدّداً في قضيّة مولوي. روح غريبة. بحرٌ تارة، ومنارة تارة أخرى.

نحن المُخبرون لا نتلقّى شيئاً عن طريق الكتابة. «چابر» لم يكن مخبراً بالمعنى الذي كنتُه. «چابر» رسول. كان له الحقّ في مفكّرة. لتكون رسولاً يجب أن تجتمع لديك خصلات استثنائيّة. الرّسل الجيّدون هم دائماً أكثر ندرة من المخبرين الجيّدين. أنا مثلاً، المخبر المتميّز، لم أكن لأؤدّيَ سوى دور رسول سيّئ. أحياناً أتأسّف على ذلك. «چابر» كان محمياً من زوايا عدّة. كان يعتمد مبادئ غير مفهومة لا تخصّ غيره. على الرّسل قبل أن يتمّ انتدابهم الإدلاء بخصالهم لدى المديريّة. «چابر» لم يكن يفقه شيئاً من الرّسائل التي كان يحملها. كان يفكّر ثمّ بصورة مذهلة يخرج بخلاصات لا تمتّ للواقع بصلة. لا يكفي أن لا يفهم شيئاً، ينبغي فوق ذلك أن يصدّق بأنّه يفهم كلّ شيء. ليس هذا فحسب، فذاكرته منخورة إلى درجة أنّ رسائله لا توجد في رأسه بل فقط في المفكّرة. إذ يكفي أن يغلقها ليصبح بعد دقائق بريئاً تماماً ممّا جاء في مضمونها. وحين أقول إنّه يفكّر ثمّ يخرج بآراء حول رسالته فلا يعني أنّه يفعل كما كنتُ سأفعل أنا وأنتَ بمفكّرة مغلقة وعينين مغمضتين أيضاً. بل كان يفكّر وهو يقرأ. وحين يرفع رأسه ويشرع في سرد التّعاليق فدون إضاعة ثانية واحدة، يكون قد نسيَ كلّ شيء، نصّاً ونقداً. أتساءل ما إذا كانوا يُخضعون الرّسل إلى عمليّات جراحيّة تجعلهم يفقدون الذّاكرة إلى هذا الحدّ. لكن لا أعتقد. لأنّ لهم ذاكرة جيّدة في كلّ ما ليس له أيّ علاقة بالرّسائل. وسمعتُ «چابر» يتحدّث عن طفولته وعن عائلته بشكل معقول جدّاً. أن يكون الوحيد القادر على قراءة ما كتَب، مُحافظاً على جهله بالأمر في ما يخصّ الرّسائل وعاجزاً عن الإمساك بها لحظات وجيزة. مواهب نادرة قلّما اجتمعت في شخص واحد. مع ذلك هذا ما يُطلب من رُسلنا.

الدّليل على أنّهم يَحظَوْن بتقدير أكبر من أفضل المخبرين العتاة المتألّقين هو أنّهم يتقاضون ثمانية جنيهات في الأسبوع فيما لا نتقاضى نحن سوى ستّة ونصف. يُستَثنى من هذه الأرقام كلّ العلاوات ومصاريف التنقّل. لكن وأنا أتحدّث بصيغة الجمع عن المخبرين والرّسل فهذا يظلّ كلاماً تنقصه الضّمانات، لأنّي لم أصادف أبداً رسولاً غير «چابر» ولا مخبراً سوايَ. لكنّي أفترض أنّنا لم نكن بمفردنا، و«چابر» يجب أن يفترض الأمر ذاته. إذ لو نَشَأ لدينا وعي بأنّ كلامنا هو الوحيد في اختصاصه فلن نتحمّل، أظنّ. ينبغي أن يكون طبيعيّاً في نظري أن يكونوا قد تعهّدوا بمخبر لرسول واحد. وفي نظر «چابر» أن يكونوا قد سخّروا رسولاً لمخبر واحد فقط. هكذا عندما سمحتُ لنفسي بالقول لـ«چابر»، ليُكلّفوا غيري بالمهمّة، لا أرغب فيها، أمكنه بدوره أن يردّ، إنّهم لا يريدون غيرك. وهذه الكلمات الأخيرة، لو فرضنا أنّ «چابر» لم يبتدعها ليغيظني متعمّداً، فلا بُدَّ أنّ الرّئيس نطق بها فعلاً ربّما بهدف المحافظة على الصّورة المُشوّشة لدى كلينا عن الآخر، إن كان فعلاً هناك غموض من أيّ نوع. كلّ هذا غير واضح تماماً. أن يذهب في اعتقادنا بأنّنا ضمن شبكة ضخمة لَهُوَ بلا ريب فضل إضفاء إحساس إنسانيّ سام يُراد به أن يُسهم التّشارك فيه بالتّقليص من الشّعور بالإفلاس. لكن بالنّسبة إليَّ على الأقلّ، بوصفي خبيراً في الإنصات إلى صوت الحكمة، من البديهيّ أن نكون بمفردنا من يقوم بهذا العمل. نعم في لحظاتي الأكثر موضوعيّة أعتبر ذلك ممكناً. حتّى لو أنّ موضوعيّتي أحياناً تبلغ من الحدّة منزلة أشكّ معها في وجود «چابر» نفسه. ولو لم أغرق مرّة أخرى بقوّة في الظّلمات لكنتُ ربّما وصلتُ بالتّفكير إلى حدّ إلغاء الرّئيس والاعتقاد بأنّي الوحيد المسؤول عن وجودي التّعيس. أعرف أنّي تعيس بستّة جنيهات ونصف في الأسبوع، يُضاف إليها علاوات ومصاريف مزيّفة. ولو نفيتُ وجود «چابر» والرّئيس (اسمه يودي) هل كان في وسعي أن لا أفكّر في النّعيم الذي يمنحه ـــــــ فهمتموني. لكنّي لم أُخلق للنور العظيم القاتل. لم يجهّزوني سوى بمصباح صغير وصبر كبير أمضي بهما في ظلّ الفراغ. كنتُ مُجرّد قويّ بين عدة أقوياء آخرين.

نزلتُ إلى المطبخ. لم أتوقّع وجود «مارتا». لكنّي وجدتها. كانت تتأرجح عابسة على كرسيّها الهزّاز قرب المدفأة. على حدّ قولها، هذا الكرسيّ الهزّاز هو أغلى ما تملك وهي غير مستعدّة لاستبداله بإمبراطوريّة. تجدر الملاحظة بأنّها لم تضعه في غرفة نومها بل في المطبخ في ركن قريب من المدفأة. كانت تنام متأخّراً وتستيقظ باكراً وكانت أوقاتها المُفضّلة هي تلك التي تقضيها في المطبخ. الرّؤساء كثيرون وأنا واحد منهم، لا أحبّذ أثاث الرّفاهية في مقرّ العمل. تريد الخادمة أن ترتاح؟ لتنسحب إلى غرفتها. ليكن أثاث المطبخ برمّته قاسياً وأبيض. حريّ بي التّنويه بأنّها اشترطت عليَّ قبل تسلّم العمل أن تظلّ محافظة على كرسيّها الهزّاز في المطبخ. رفضتُ بسخط ثمّ حين لاحظتُ أنّها صامدة أذعنتُ. لَدَيَّ قلب رحيم. تصلني مؤونتي من الجعة كلّ سبت. ما يعادل نصف دزّينة من قوارير بسعة اللّتر. لا أقربها إلّا في اليوم الموالي، فمن الأفضل أن ترتاح الجعة بعد نقلها. من بين القوارير الستّ أفرغتُ واحدة أنا و«چابر». بقي خمس. إضافة إلى قاعٍ في قارورة الأسبوع الماضي. رحتُ إلى المعمل. وجدتُ القوارير الخمس مسدودة ومختومة وأخرى مفتوحة وفارغة حتّى ثلاثة أرباعها. «مارتا» كانت تلاحقني بعينيها. غادرتُ دون أن أوجّه إليها كلمة. صعدتُ إلى الطّابق العلويّ. لا أفعل سوى الغدوّ والرّواح. دخلتُ غرفة ابني. كان جالساً إلى طاولته يرمق طوابعه بإعجاب. الألبومان أمامه، الكبير والصّغير. لدى اقترابي أغلقهما بحركة واحدة. فهمتُ فوراً ما يخطّط له. لكنّي قلت أوّلاً، هل جهّزتَ أغراضك؟ نهض. تناول حقيبته وسلّمها إليَّ. نظرتُ في داخلها. قلّبتُ محتوياتها بيدي وبعينين ساهمتين. لا شيء ينقص. أعدتُها إليه. ماذا تفعل؟ قلت. أتأمّل طوابعي قليلاً، أجاب. تسمّي هذا تأمّل طوابع؟ قلت. طبعاً، قال بجسارة لا يمكن تخيّلها. اخرس أيّها الكذّاب الصّغير! صرخت. هل تعلمون ماذا كان يفعل؟ كان يحوّل إلى ألبوم النّسخ الصّغير الطّوابعَ النّادرة الثّمينة التي كان يمعن فيها النّظر بتولّه كلّ يوم والتي لم يكن ليقدر على فراقها حتّى لأجل أيّام

قليلة. أرني الـ «تِيمُورْ»[21] الجديد، الخمس رِيّيس الأصفر[22]، قلت. تردّد. أرني إيّاه! صرخت. أعطيتُه إيّاه بنفسي، لقد كلّفني العملة الهولنديّة. فرصةٌ لا تُفَوّت في تلك الفترة. وضعتُه هنا، قال بإشفاق وهو يرفع ألبوم النّسخ. هذا كلّ ما أردتُ معرفته. أن يُقرّ على ذلك بنفسه، لأنّي على علم. حسناً، قلت. وقفتُ بجانب الباب. حسناً، ستترك الألبومين، قلت. الصّغير والكبير. ولا كلمة عتاب واحدة. مجرّد محاكاة تنبّئيّة مُستقبليّة من النّوع الذي يستخدمه «يودي». (سيرافقك ابنك). خرجتُ بخطوات هشّة مبتسماً بتكلّف وأنا أهنّئ نفسي على الموكيت اللّين الذي أملكه. سرتُ في الممرّ نحو غرفتي وخطرت لي فكرة اضطرّتني إلى العودة إلى غرفة ابني. كان جالساً في مكانه. لكن في وضعيّة مختلفة قليلاً. الذّراعان على الطّاولة والرّأس على الذّراعين. حزّ في نفسي لكنّ الواجب يحتّم الحزم. لم يتحرّك. لمزيد من الأمان سنضع الألبومين في خزنة الحديد إلى حين عودتنا، قلت. ظلّ ساكناً. نهض بقفزة قلبت الكرسيّ ونطق بكلماته الحانقة، اصنع ما يحلو لك! لم أعد أرغب في رؤيتهما! يجب أن نترك سحابة الغضب تمرّ، هذا رأيي. على المرء أن يعالج الأمور ببرودة أعصاب. أخذتُ الألبومين وخرجتُ دون أن أتفوّه بكلمة، لقد قلّل من احترامه لي، لكن هذا ليس الوقت المناسب لنتّفق حول ذلك. في الممرّ وقفتُ دون حراك فسمعتُ صوت سقوط وارتطام. شخص آخر غيري ليس سيّد نفسه مثلي كان حتماً سيدخل. لكن هذا وبصورة إيجابيّة لا أكرهه، أعني أن يُسلّط ابني لومه على نفسه بحرّية. هذا يُطهّر. علينا أن نخشى الألم المكتوم في نظري.

دخلتُ غرفتي متأبّطاً الألبومين. لقد جنّبتُ ابني فتنة خطرة. دسُّ الطّوابع التي يعشقها في جيبه ليتغذّى عليها أثناء رحلتنا. أن يضع طوابع بريديّة في جيبه هذا ليس بغيظ في حدّ ذاته. لكن خلفها هناك عصيان. سيكون عليه الاختباء عن والده كي يراها. وعندما يفقدها كما هو وارد جدّاً، فسوف يلجأ

---

21- تِيمُور: إحدى جزر الأرخبيل الأندونيسي.

22- الرّيّيس: لقب يُسند إلى أصحاب المناصب السامية في الدولة العثمانيّة.

إلى الكذب ليُبرّر لي ضياعها. إن كان حقّاً لا يطيق فراق قصاصاته المفضّلة كان من الأجدر أن يأخذ الألبوم كاملاً. لأنّ احتمال ضياع الألبوم يظلّ قائماً بحظوظ أقلّ من ضياع طابع واحد. كنتُ حكماً أفضل منه فيما يتعلّق بما يطيقه وما لا يطيقه. لأنّي أعرف أشياء ما زال لا يُدركها. ليكن هذا الدّرس مفيداً له. أن يحرم نفسه[23]، هذا هو الدّرس الذي وددتُ دائماً أن ألقّنه إيّاه منذ كان صغيراً غضّاً. كلمات سحريّة لم أتخيّل يوماً حتّى سنّ الخامسة عشرة أنّ في وسع المرء تبنّيها. وهذه المؤسّسة هل سأبدو ملعوناً في نظرها. هل تماديتُ في جعله يكره ما يحبّ فوق طاقتي وخلافاً لما هي عليه شخصيّتي. لقد طالت فكرةَ الأب. لن أُرخي الحبل. سأشدّ بكلّ قوّتي. وبين موتي وموته فكّرتُ، لحظة توقّفتُ فيها عن تعذيب ذاكرتي، إن كانت هناك برهة خاطفة كالبرق يخطر له فيها أنّي مُحقّ. كان ذلك سيكفيني ويعوّضني عن الألم الذي سببتُه لنفسي وما زلتُ أفعل. في البداية سيتلقّى الأمر بصورة سلبيّة حتماً. وسينفث لعناته. لكنّ بذرة الشكّ لا بُدَّ أنّها أودعت في داخله. سيثير المسألة مُجدّداً، هكذا كنتُ أحلّل.

بقيت ساعات قليلة على موعد العشاء. قرّرتُ أن أستغلّها، لأنّي سأغفو بعد العشاء دون شكّ. لبستُ سترتي وحذائي. زرّرتُ بنطلوني ودخلتُ تحت الأغطية. ممدّداً في الدّفء والظلام أكون مؤهّلاً بشكل أفضل لأستشعر الاضطراب الذي في الخارج وأُنزل المخلوق الذي عهدوا لي به منزلته وأتنبّأ بالخطوة القادمة وأحسّ بالخفّة التي يمنحها خطر الآخرين، بعيداً عن العالم وضجته، سلوكه وعضّه وصفائه الكئيب كما أراه، والذين هم مثلي غارقون فيه بلا دواء، عالم ينتظر أن أحرّره أنا الذي لا يسعه تحرير نفسه. كلّ شيء معتم لكنّها العتمة السّطحيّة التي تجد امتدادها في الشظايا الكبيرة. حشود تتزعزع عارية كالقوانين، لا أحد يدري ممَّا تكوّنت. الإنسان أيضاً هنا في مكان ما بين الآخرين وسط كتل معجونة من كلّ السّلطات، بسيط ووحيد بين الآخرين، عارٍ وجاهل تماماً للمفاجآت كصخرة. في تلك

23- وردت العبارة باللّغة الألمانيّة.

الكتلة في موضع ما يُدفن الزّبون ظنّاً منه أنّه نجا. في وسع أيّ كان القيام بالمهمّة. لكنّهم لا يدفعون لي لأجل البحث. أَصِلُ فيُقلت. لم يتمنَّ طيلة حياته سوى أن يحدث له ذلك. أن يصير المفضّل. الملعون، ثريّاً، أن يتخيّل بأنّه بليد دون كلّ الناس، تماماً كما يحدث لي أحياناً جراء الصمت والحرارة والظلال وروائح فراشي.

أنهض. أخرج فيتغيّر كلّ شيء. رأسي يجفّ من الدّم، من كلّ ناحية تهاجمني أصوات الأشياء وهي تتنافر وتتّحد وتحلّق منفجرة، عيناي تبحثان عن تشابه ما لكن عبثاً. كلّ ذرّة في جسمي تصرخ برسالة مختلفة، أتقلّب في رذاذ الظّواهر.

فريسة لكلّ هذه الأحاسيس التي لحسن الحظ أعرف أنّها وهميّة، أُضطرّ للعيش والعمل، بفضلها أجد لنفسي المعنى، وهكذا تستيقظ في داخلي مرارة مفاجئة.

*يتجمّد، يسحبُ نفساً، ينتظر ويقول في نفسه إنّه حلم مزعج أو توتّر عصبيّ، يتنفّس بعمق، يخلد إلى النوم ثانية وهو يرتعش، مع أنّه ليس سيّئاً تماماً أن ينغمس في هذا العالم الكبير البطيء حيثُ كلّ شيء يتحرّك بثقل ثور كئيب، بصبر عبر دروب قميئة أو حيث غالباً يكون التّحقيق أمراً مستحيلاً.*

لكن في هذه الحالة، أقول جيّداً في هذه الحالة، لديَّ أسباب أتمنّى أن تكون جادة أكثر، أدنى إلى الضرورة منها إلى الإمتاع، بأن أحرّكه في هذا الجوّ... كيف أعبّر. جوّ النهاية اللّامتناهي لِمَ لا، فقط يمكنني أن أتجرّأ على الانكباب على العمل، فحيثُ مولوي الآن، «موران» لا يوجد طبعاً. في وسع «موران» إذن أن يعكف على مولوي، وإن لم يتمخّض شيء خصب بشكل خاصّ عن هذا الاختبار أو على الأقلّ مفيد لتنفيذ الحكم، ففي المقابل يمكنني دائماً أن أرفع ما يشبه التقرير، تقريراً خالياً من المغالطة نسبيّاً. لأنّ اختيار الكلمات لا يؤدّي بصورة حاسمة إلى سوء تقدير للعلاقة فيما أعلم.

ليس هذا فحسب، بل لعلّي كنتُ سأمنح صاحبي صفة الأسطوريّ. لاحقاً سيساعدني ذلك كثيراً في عملي. حدسي يُخبرني.

خلعتُ سترتي وحذائي. فككتُ أزرار بنطلوني وانزلقتُ تحت الأغطية بضمير مرتاح، واثقاً تماماً من إلمامي بما علَيَّ القيام به.

مولوي أو «مولوز» لم يكن نكرة بالنسبة إليَّ. لو كان لي زملاء لكنتُ اشتبهتُ في ما إذا كان سيخطر لي الخوض معهم في شأنه كما لو أنّه شخصٌ كُلّف بأن يشغلنا آجلاً أم عاجلاً وبشتّى السُّبل، لكن ليس لي زملاء ونسيت كلّيّاً الظروف التي حفّت بمعرفتي بوجوده، لعلّي ابتدعته، أعني أنّي وجدتُه في رأسي مكتملاً. مؤكّد أنّنا نلتقي أحياناً أناساً نعرفهم لكنّهم ليسوا كذلك فعلاً، لأنّ لهم دوراً عليهم أن يلعبوه في بعض المقاطع الدماغيّة. لم يسبق أن حدث لي أمر مشابه. لا أصدّق أنّي الرّجل المناسب لتجارب مماثلة، حتّى ظاهرة اللقطات المُكرّرة على بداهتها تبدو لي بعيدة عن متناولي، لكن أظنّ أنّي أتعرّض إلى ذلك أيضاً. إذ من حدّثني عن مولوي ومن حدّثتُ عنه بدوري؟ لا أعثر على إجابة، لأنّي عادة في محادثاتي النادرة مع الناس أتجنّب الخوض في هذه المواضيع. لو أنّ أحدهم حدّثني عن مولوي لرجوتُه بأن يصمت، بالمثل لم أكن لأخبر أحداً بوجوده، مع زملائي كنتُ سأتصرّف بشكل مغاير طبعاً، فنحنُ نحدّث زملاءنا في العمل عن أشياء نخفيها عن الآخرين، لكن ليس لدَيَّ زملاء، هذا ما يُفسّر الأزمة التي أُصبتُ بها منذ بدء القضيّة. ليس هيّناً بالنسبة إلى رجل ناضج يعتقد أنّه لم يعد يُفاجأ أن يجد نفسه مقذوفاً في مسرحيّة مذلّة بهذا الشّكل، إنّه نذير شؤم.

الأمّ مولوي أو «مولوز» لم تبدُ غريبة عنّي، لكنّها كانت دائماً أقلّ اختلافاً عن ابنها، الله وحده يعلم إن كان كذلك فعلاً، أقصد مختلفاً. في النهاية لستُ أعرف شيئاً ربّما عن الأمّ مولوي أو «مولوز» عدا أنّ لها ابناً يحمل منها آثاراً كأسمال في غطاء رأس. بين الاسمين مولوي و«مولوز» يبدو لي أنّ الأخير هو الأصوب، لكن بقليل. ما يتردّد في داخلي وأنا أحيل الحكم إلى ضميري هو بلا شكّ تلك النغمة الرّديئة، المقطع الأوّل مول، صافٍ جدّاً مشفوعاً

بمقطع آخر من بين أكثر المقاطع قطنيّة على الإطلاق، ابتلعه الأوّل وكان من الممكن أن يكون أوي أو أوز، هذا لأنّ لديَّ ضعفاً حيال هذه التتمّة، أمّا البقيّة فهيّ لا تهزّ لديَّ أيّ وتر. لكن ابتداءً من الآونة التي نطق فيها «چابر» اسم مولوي ليس مرّة واحدة بل عدّة مرّات وفي كلّ مرّة بالوضوح نفسه، فإنّ قوّة جعلتني أقرّ بأنّ علَيَّ أنا أيضاً أن أقول مولوي وأنّي لو قلتُ «مولوز» أكون أخطأت. من هنا فصاعداً إذن، متهاوناً في شأن رغبتي، أجبرتُ نفسي على القول مولوي مثل «چابر» تماماً، مولوزي أنا أم مولوي التحقيق، لم تعد الفكرة تداعب خيالي ولو فَعَلَت لطردتُها كما تُطرَدُ ذبابة أو دبّور. إلهي كم أنّ الإنسان في خصام مع نفسه، أنا المُغترُّ بكوني متّزناً وبارداً كالكريستال ونقيّاً في أعماقي. كنتُ إذن مُلِمّاً بمولوي رغم أنّي لا أعرف عنه الكثير، سأذكر باختصار القليل الذي أعرفه عنه. في المناسبة نفسها وبالعودة إلى معلوماتي عن مولوي سأشير إلى ثغراته الصادمة.

لا يملك من الحيّز سوى القليل، وقته أيضاً مضبوط. يسارع دون توقّف فيما يشبه اليأس للوصول إلى أهداف قريبة جدّاً. سجيناً تارة، لاجئاً إلى حدود ضيّقة وملاحقاً تارة، يطلب المأوى في المركز.

يلهث ولا ينقصه سوى أن يشرق في داخلي كي أمتلئ انبهاراً. حتّى في البادية القاحلة يبدو كأنّه يفسح طريقاً. يُحمّل على نفسه أكثر ممّا يمشي. بيد أنّه يتقدّم ببطء، يترنّح يميناً وشمالاً على طريقة دبّ.

يعتصر رأسه نافثاً كلمات غير واضحة.

كان ضخماً وعريضاً ومُشوّهاً، ومُظلماً في غير سواد في البشرة.

ابن طريق دائماً، لم أره يرتاحُ أبداً، كان أحياناً يتوقّف برهة ليلقي حوله نظرات ساخطة. هكذا كان يزورني خلال فترات متفرّقة جدّاً. عندها لم أكن سوى مجرّد حطام، ثقل، غضب، اختناق، جهد لا ينتهي، مُتعصّب وتافه. عكسي تماماً.

هذا يُغيّر طبعي، أراه يختفي في ما يشبه جسداً يصرخ. مؤسف.

أمّا ما الذي ينشده فليست لديَّ عنه أدنى فكرة.

لا شيء قد أستدلّ به عن سنّه، الهيئة التي أضفيها عليه ولا بُدَّ أنّها كذلك فعلاً، كان عليها دائماً، وسيظلّ عليها حتّى النهاية، نهاية البقيّة التي ما زلتُ لم أكوّن عنها صورة واضحة. لا أتبيّن ما الذي أدى به إلى تلك الحالة. لا أتبيّن أيضاً كيف سيتمكّن من وضع حدّ لمعاناته، مُهملاً أعزل إلّا من وسائله الخاصّة. لا يبدو لي احتمال نهاية طبيعيّة له قائماً لا أدري لماذا. لكنّ نهايتي الطبيعيّة التي قرّرتها أليست في الوقت ذاته نهايته. إنّها أشياء هشّة ولا يمكن التعويل عليها. إذ هل توجد نهايات غير طبيعيّة. أليست كلّ النهايات تحدث في الطّبيعة التي لا يمكن إنكار وداعتها وسوئها (كما يُشاع) على حدّ السّواء؟ ألسنا تائهين في ظروف تافهة؟

لا أملك علامة واحدة على وجهه، أتخيّله أشعثَ، صخريّاً ومُكشّراً. لا شيء يُرخّص لي ذلك.

أن يستسلم للتردّد والأحلام رجل موسوس إلى حدّ كبير مثلي، هادئ في المجمل ميّال إلى الخارج بصبر كما إلى أصغر التفاصيل الشّريرة. مخلوقات بيته، حديقته، ممتلكاته الحقيرة، ينجز بمهارة عمله القذر، مُسخّراً تفكيره للحسابات لشدّة خوفه من الطّوارئ، أن يفعل ذلك رجل مثلي يجب أن يبدو لي غريباً، بل أكثر من ذلك يجب أن يدفعني إلى إعادة ترتيب لائحة اهتماماتي التي لم تكن شيئاً في الواقع سوى حاجتي إلى العزلة. حاجة لا أحد ينصح بها حتماً، لكنّ إرضاءها أمر ضروريّ لو أردتُ أن أعيش وحيداً بحماس ضعيف أمنحه فقط لدجاجي أو إيماني، لكن بتبصّر كبير. على كلّ هذا لا يشغل حيّزاً كبيراً في النجارة التي لا يُروى والذي اسمه وجودي ولا يُشكّل تهديداً حقيقيّاً كما هو الشّأن بالنسبة إلى أحلامي. عموماً من السّهل نسيان كلّ ذلك بسرعة. إضرام نصيبي من النّار قبل نشوب الحرب بدا لي دائماً أمراً لا يخلو من الحكمة. وكان في استطاعتي أن أروي حياتي التي لم أكن لأشوّشها بهذا الحضور وبحضور المُفلس مولوي، بإقبال أقلّ ممّا كنتُ سأروي به حياة آخرين. لأنّ هناك الكثير من القصص الأخّاذة لأناس آخرين.

لكنّ الإرادة لا تعثر على تلك الصّور إلّا باللّجوء إلى العنف. تحذف منها وتضيف إليها. وهذا المولوي الذي أنوي ضخّه بالحياة في هذا الأحد الذي لا يُنسى لم يكن بين الذين تَعجّ بهم قرارة نفسي لسبب وحيد هو أنّ ساعته لم تحن بعدُ.

لكن في ما يتعلّق بالملامح العامّة فقد كنتُ مطمئناً. الشّبه موجود. والفرق كان من الممكن أن يتبيّن بأنّه كبير إلى حدّ لا يترك لي المجال للتذمّر. لأنّ ما أقوم به لا أفعله لأجل مولوي الذي أسخر منه ولا لأجل نفسي التي أستقيل منها. لكن لصالح العمل لو فرضنا أنّه في حاجة إلينا كي ننجزه. هذا الذي لا صفة له في جوهره والذي سيدوم وسيسكن وجدان الناس عندما يزول مبدعوه البؤساء.

أعتقد بأنّه لن يُقال عنّي، لقد استهان بعمله. في المقابل سيُقال، آه هؤلاء الرّفاق القدامى، لقد انطفأت سلالتهم وانكسر قالبهم.

ملاحظتان،

المولوي الذي أقترب منه بحذر لا يمكن أن يشبه مولوي الحقيقيّ ذاك الذي سأمسك به قريباً بصورة بعيدة ضبابيّة، سالكاً الجبال والوديان.

ربّما استأنستُ دون أن أشعر لمولوي الذي جمعتُه في داخلي من عناصر مولوي التي وصفها «چابر» . في المُجمل هناك ثلاثة، لا أربعة مولوي. مولوي الذي في أحشائي ، الكاريكاتير الذي رسمتُه له، الخاصّ بـ «چابر»، ذاك الذي هو من لحم وعظم ينتظرني في مكان ما. أضيف إليهم مولوي الخاصّ بـ «يودي»، النّسخة المُذهلة التي قدّمها «چابر» حفاظاً على عمولته. تحليل رديء، إذ هل يجوز القطع بأنّ «يودي» أوحى إلى «چابر» بكلّ ما يعرفه عن مولوي، ما يظنّ أنّه يعرفه (سيّان بالنسبة إلى «يودي») عن مؤتَمنه؟ بالتّأكيد لا. لم يخبره سوى بما يعتقد أنّه مفيد لتنفيذ جيّد وسريع لأوامره. أضيف إذن مولوياً خامساً. الخاصّ بـ «يودي». لكن هذا المولوي الخامس ألا يمكن الجمع بينه وبين الرّابع، الحقيقيّ كما يُقال، أي ذاك الذي يُرافقُ ظلّه؟

كنتُ سأدفعُ بسخاءٍ لمعرفة ذلك. حتماً ثمّة آخرون. لكن لنظلّ إن شئتم في دائرتنا الصّغيرة الأولى. لا أعتقد أنّه من الملائم التطفّل على معرفة ما إذا كان الخمسة مولوي ثابتين أو متذبذبين. لأنّ من طبيعة «يودي» تغيير رأيه بيسر عجيب. هكذا أكون قد قدّمتُ ثلاث ملاحظات في حين إنّي خطّطتُ لذكر اثنتين.

الآن وقد انكسر الجليد، أعتقد أنّي قادر على اعتماد تقرير «چابر» والدخول في صميم المعطيات الرسميّة. بدا لي أنّ التحرّي سينطلق أخيراً. في تلك الآونة تردّد في البيت صوت صنج يقرع بعنف. كانت السّاعة التاسعة، نهضتُ، سوّيتُ ملابسي ونزلتُ مُسرعاً.

الإعلام بأنّ الحساء جاهز، كيف أقول، وفي طريقه ليتخثّر، كان دائماً انتصاراً صغيراً واعتزازاً بالنّسبة إلى «مارتا». لأنّي عادة أتّخذ مكاني إلى الطّاولة بمنديل معقود حول عنقي، أقطّع الخبز وأتسلّى قبل دقائق من موعد العشاء بقرع الأواني، وألهو بمحمل السكّين في انتظار أن يقدّم لي الطّعام. بدأتُ بالحساء. أين «جاك»؟ قلتُ. رفعت كتفيها. حركة قذرة لعبد. قولي له أن ينزل فوراً، قلت. الحساء أمامي لا ينبعث منه البخار. هل كان ساخناً أصلاً؟ عادت. قالت إنّه لا يريد النزول. وضعتُ ملعقتي. قولي مارتا، قلت، ما هذه الأكلة؟ ذكرت لي اسمها. هل أكلتها من قبل؟ قلت. أكّدت لي بالإيجاب. لستُ في صحني إذن، قلت. هذه السّياقات تعجبني، إنّها تضحكني إلى حدّ أُصابُ معه بالحازوقة. تاهت «مارتا» وراحت تنظر إليَّ بغباء. لِينزل! قلت أخيراً. ماذا قلت؟ قالت «مارتا». أعدتُ على مسامعها الجملة. كان لديها دائماً سحنة ارتباك صادقة. نحن ثلاثة في هذه الـ«تريانون»[24] الصّغير، قلت، أنتِ وابني وأخيراً أنا. قلتُ لينزل! لكنّه مريض، قالت «مارتا». عليه أن ينزل حتّى لو كان يُحتَضر، قلت.

يدفعني الغضب أحياناً إلى فجوات اللّغة التي لا أندم عليها. أعتقد أنّ كلّ

24- تريانون: مساحة في مقاطعة الإيڤلين الفرنسيّة، فيها قصر محوط بالحدائق وينتمي إلى المجال الجغرافي لحدائق فرساي.

لغة هي هوّة في اللّغة. على كلّ سأناجي بها طبيعيّاً. أحياناً من الضروريّ أن أسوَدَّ بعض الشّيء.

كان «جاك» أحمر كـ«الفاوانيا»[25]. هيّا تناول حساءك، لديَّ ما أخبرك به، قلت. لستُ جائعاً، قال. تناول حساءك، قلت. فهمتُ أنّه لن يأكل. ممَّ تشكو؟ قلت. لستُ على ما يُرام، قال. الشّباب، يا له من أمر بغيض. حاول أن تكون واضحاً. قلت. استخدمتُ هذه العبارة متعمّداً. أعرف أنّها عويصة على الشّباب الصّغار لكنّي كنتُ قد شرحتُه له قبل أيّام. كان لديَّ أمل أن يقول لي لم أفهم. لكنّه كان ماكراً على طريقة «مارتا»! هتفتُ. ظَهَرَتْ. الطّبق الرّئيس، قلت. كنتُ أراقب النّافذة بانتباه، لم يتوقّف المطر فحسب، هذا أعرفه، بل من جهة الغرب لاح شريط أحمر بديع يومض ويزداد علوّاً في كلّ لحظة. حزرتها أكثر من كوني رأيتها من خلال هضبتي. سعادة كبيرة. لعلّي بالغتُ قليلاً غارقاً في هذا القدر من الجمال والوعد. عدتُ من شرودي بتنهيدة، لأنّ السّعادة التي يمنحها الجمال ليست مجرّد عادة. ورأيتُ أمامي ما أسمّيه بتعقُّل، الطّبق الرّئيس. ماذا أيضاً؟ قلت. في العادة مساء الأحد نحن نأكل بارداً ما بقي من نهار السّبت من دجاج وفراخ بطّ وإوز وديك رومي ولا أدري. نجح الأمر معي دائماً في ما يتعلّق بالدّيكة الروميّة. إنّها أهمّ من البط من ناحية التربية حسب رأيي. حسّاسة أكثر ربّما، لكن مردودها أفضل للذي يُطري عليها ويعتني بها، باختصار للذي يحبّها ويعرف كيف يجعل غيره يحبّها. إنّه طبق الرّاعي، قالت «مارتا». ذقت الطّبق. وماذا صنعت بدجاج الأمس؟ قلت. مالت ملامح «مارتا» إلى تعابير النّصر. كانت تنتظر سؤالي. حتماً لقد راهنت عليه. فكّرتُ أنّه من الأفضل لك أن تتناول عشاءً ساخناً قبل رحيلك، قالت. ومن قال لك إنّي مسافر؟ قلت. اتّجهت نحو الباب على نحو لا يدع مجالاً للشكّ في أنّها سترمي سهماً. لا تجيد السبّ إلّا وهي تهرب. لستُ عمياء، قالت. فتحت الباب وأوصدته دونها.

---

25- الفاوانيا: نباتٌ يُسمّى أيضاً عود الصّليب وهو نبات عشبيّ شبه متخشّب له زهرة حمراء وأوراق خنجريّة.

نظرتُ إلى ابني. كان فمه مفتوحاً وعيناه مغمضتين. لقد خُنتَنا، قلت. تظاهر بالغياب. هل أطلعت «مارتا» برحيلنا؟ قلت. لا، أجاب. لِم لمْ تفعل؟ قلت. لم أرها، قال بسخرية. لكنّها صعدت للتوّ إلى غرفتك، قلت. كان الطّبق إذّاك جاهزاً، قال. أحياناً يبدو لي أنّه يستأهلني لكنّه أخطأ حين لجأ إلى الطّبق. كان صغيراً وعديم تجربة فصرفتُ النّظر عن إحراجه. حاول أن تقول لي بدقّة ماذا تحسّ؟ قلت. بطني يؤلمني، قال. آلام في البطن! هل لديك حُمّى؟ قلت. لا أدري، قال. استقم! قلت. كان يبدو كالمخبول. لحسن الحظّ أنا من بين الذين يحبّون وضع النّقاط على الحروف. اذهب وابحث عن محرار الدّقيقة، قلت، في الدّرج الثاني على يمين المكتب من الجهة العلويّة. قس حرارتك وأعطني المحرار. انتظرتُ بضع دقائق ثمّ أعدتُ كلمةً كلمة وبأناة جملتي الطّويلة المُعقّدة التي تضمّ ليس أقلّ من ثلاثة أفعال أمر. لمّا ابتعد مُدركاً المهمّ بلا شكّ أضفتُ بمرح، تعرف في أيّ فم ستضعه؟ أنساقُ إلى مزاح طوعيّ بطعم الشكّ مع ابني لغايات تعليميّة. غالباً هي دعابات لا يتذوّق مِلحها في الحال وهي كثيرة في الواقع. يمكنه دائماً تمحيص معانيها براحة بال أو محاولة التوصّل إلى تأويل معقول لها مع أقرانه الصّغار. إنّه تمرين ممتاز في حدّ ذاته. وفي الآن نفسه أَحِزُ روحه الغضّة لتنتبه إلى المسار الأكثر خصوبة، أعني التفاصيل المُرعبة للجسم ووظائفه. لكنّي أخطأتُ صياغة الجملة، كان يجدر بي القول، لا تُخطئ المدخل. راودني هذا النّدم وأنا أفحص طبق الرّاعي من قريب. أرفع القشرة وألقي نظرة على ما في داخله. أغوص فيه بشوكتي، أنادي «مارتا» وأسألها إن كان كلبها لا يرغب. استحضرتُ ذلك مُبتسماً في مكتبي الذي لا يحتوي سوى على ستّة أدراج، ثلاثة من كلّ جانب فارغ حيث أمدّ ساقَيَّ. بما أنّ عشاءكِ غير قابل للأكل، لتتكرّمي بتحضير صندوق سندويشات بما زاد عن حاجتك من الدّجاج. عاد ابني أخيراً. من الضّروريّ أن يكون لدى المرء محرارَ الدّقيقة. سلّمني إيّاه. هل نظّفتَه على الأقلّ؟ قلت. لمّا لاحظ أنّي أجتهد في قراءة مؤشّر الزّئبق راح إلى الباب وأضاء النّور. كم كان «يودي» بعيداً في تلك اللّحظة. أحياناً في الشّتاء أعود منهكاً متعباً بعد يوم طويل من التسوّق غير النّاجع فأجد نعلَيَّ

قرب النّار مستقبلاً اللّهب بمقدّمته. كان لديه الحُمّى. أنت بخير، قلت. هل يمكنني أن أصعد؟ قال. لماذا؟ سألتُه. لأنام، قال. هنا ألستُ إزاء ظرف قاهر يتشكّل رويداً؟ دون شكّ لأنّي لا أجرؤ على التّفكير في ذلك. لن أجلب لنفسي الصّواعق على أيّ حال لسبب بسيط هو أنّ ابني لديه الإسهال. لو مرض في الطّريق بصورة جادّة فسيكون أمراً مختلفاً. لن أدرس الوصايا القديمة لأجل الخوخ. هل خرأت بُنيّ، قلت بحنان. حاولت، قال. لديك الرّغبة؟ قلت. نعم، قال. لكن لا شيء يخرج، قلت. لا، قال. ريح فقط، قلت. نعم، قال. ذكّرني فجأة بسيجار الأب «أمبرواز». أشعلته. سنجرّب هذا، قلتُ وأنا أنهض. صعدنا السلّم. حقنته في شرجه بالماء المالح. قاوم لكن ليس طويلاً. سحبتُ الإبرة. حاوِل الحفاظ عليه، قلت، لا تظلّ جالساً على الوعاء، تمدّد على بطنك. كنّا في الحمّام. تمدّد على الأرضيّة. مؤخّرته الكبيرة في الهواء. دعه يتغلغل، قلت. يا له من يوم. تأمّلتُ رماد السّيجار. كان أزرق وصارماً. جلستُ على حافّة الحوض. الخزف والمرايا والكُروم تُنزل في داخلي سكينة كبيرة. هذا إذا كانت هي التي جعلتني أحظى بذلك. لم تكن سكينة كبيرة في الواقع. نهضتُ. وضعتُ سيجاري وغسلتُ أنيابي وأضراسي أيضاً غسلتها في العمق. نظرتُ إلى نفسي. الشّفتان مُكمّشتان. في الرّاحة شفتاي تدخلان في فمي. كيف أبدو؟ تساءلتُ. منظر شاربَيّ يثير أعصابي. كالعادة نافران وفوضويّان. يلائمني الشّاربان. دونهما أنا غير معقول. لكن كان يُفترض أن يليقا بي أكثر. يكفي أن أغيّر القَصّة. لكن أيّ قصّة، ليس ثمّة قَصّات كثيرة. الآن، قلتُ دون أن أتوقّف عن تفحّص ملامحي، عُد إلى الوعاء وادفع جيّداً! ثمّ، أليس بسبب لونهما؟ صوتُ إفراغ عاد بي إلى هموم أقلّ حدّة. نهض مرتعشاً. أطللنا معاً على الوعاء. برهة ثمّ أخذته من مقبضه ورُحتُ أميله على الجانبين، رقاقات مفتولة قليلة تسبح في سائل أصفر. كيف تريد أن تخرأ وبطنك خاوية؟ قلت. نوّه إليّ بأنّه أفطر. لم تلمس شيئاً، قلت. صمت. لقد سدّدتُ جيّداً. هل نسيت أنّنا سنرحل خلال ساعة أو اثنتين؟ قلت. لا أستطيع، قال. هذا يعني، قلت، أنّ عليك أكل شيء ما. ألم خفيف وخز ركبتي. ما بك أبي؟ قال. تركتُ نفسي أهوي على

السُّلّم. شمّرتُ بنطلوني، ونظرتُ إلى رُكبتي. طويتها ومددتها مرّات عديدة. الإيودكس[26] بسرعة، قلت. أنت قاعد فوقه، قال. نهضتُ فسقط البنطلون إلى مستوى كاحلَيّ. في الجاذبيّة هناك ما يقود إلى الجنون الكلّي. أطلقتُ زئيراً لا بُدَّ أنّه تناهى إلى الأخوات «السنر». لا بُدَّ أنّهنّ توقّفن عن القراءة، رفعن رؤوسهنّ وتبادلن النظرات. لا شيء. صرخة في اللّيل. يدان هرمتان بخواتم، تبحثان عن بعض في عَجَل. رفعت بنطلوني ثانية، لففتُه حول الفخذ. رفعتُ غطاء المقعد حيث الإيودكس ودلّكتُ ركبتي. ركبتي مليئة بعظام دقيقة تتحرّك. اجعله يدخل عميقاً، قال ابني. سيدفع ثمن ذلك لاحقاً. لمّا انتهيتُ من الدّواء أعدتُه إلى مكانه. سوّيتُ البنطلون، جلستُ على المقعد وأصختُ السّمع. لا شيء إلّا إذا كنتَ تريد أن نحاول مع مِقيَعٍ آخر، قلت، كأنّ شيئاً لم يحدث. أشعر بالنّعاس، قال. ستذهب إلى النّوم، قلت، سأحمل لك وجبة خفيفة إلى الفراش، ستعجبك، سننام قليلاً ثمّ سنرحل سويّاً. ضممتُه إلى صدري. ما رأيك؟ قلت. قال نعم أبي. هل كان يحبّني أكثر ممّا كنتُ أحبّه في تلك اللّحظة؟ لا أحد يدري مع هذا الخبيث الصّغير. اذهب إلى النّوم بسرعة، قلت، تدثّر جيّداً، سألحق بك حالاً. نزلتُ إلى المطبخ، جهّزتُ كوب حليب ساخن وزبدة ومعجوناً في طبق البرنيق الجميل. يريد تقريراً. سيحصل على تقريره. «مارتا» تراقبني دون أن تنبس بكلمة. كانت تتأرجح على كرسيّها الهزّاز. إنّها تبدو كحائكة أقدار[27] يعوزها الخيط. أعدتُ كلّ شيء إلى طبيعته واتّجهتُ نحو الباب. هل يُمكنني الذّهاب إلى النّوم، قالت. انتظرت حتّى أنتصب واقفاً بطبق في يدي كي تسألني هذا السّؤال. خرجتُ. وضعتُ الطّبق على كرسيّ أسفل السُّلّم وعدتُ إلى المطبخ. هل جهّزتِ السندويشات؟ قلت. في الأثناء كان الحليب يبرد وقشرة مقزّزة بدأت تتكوّن على سطحه. جهّزتها، قالت، والآن أنا ذاهبة إلى النّوم لأنّ النّاس ينامون.

---

26- الإيودكس: مستحضر طبّي وهو عبارة عن مرهم مُطهّر.

27- حائكة الأقدار: كلمة من أصل لاتيني وتعني في الدّيانة الرومانيّة أو الأسطورة الرومانيّة سيّدات الأقدار والمصائر الإنسانيّة، ويُرمز إليهنّ بنساء حائكات يدويّات بالإبرة والخيط، يقسن أعمار الناس ويقرّرن مصائرهم.

عليكِ الاستيقاظ خلال ساعة أو ساعتين، قلت. هي وحدها من يقرّر في هذه الظّروف إن كان النّوم مجدياً. سألتني عن الفترة التي سأتغيّبها. هل لديها علم بأنّي لن أرحل وحدي؟ بلا شكّ. عندما صعدتْ لتطلب من ابني النّزول، لا بُدَّ أنّها لاحظت حقيبة الظّهر. لا أدري، قلت. ثمّ وأنا أفكّر في شيخوختها بل أفظع، في مُضيّها نحو الشّيخوخة، وحيدة وكئيبة قلتُ، لا بأس لن يطول ذلك. وحدّثتها بعبارات حارّة في نظري. طلبتُ منها أن ترتاح جيّداً خلال غيابي. وأن تسرّيَ عن نفسها بزيارة الصّديقات واستقبالهنّ. لا تدّخري الشّاي أو السكّر ولو حدث واحتجتِ إلى المال فما عليكِ سوى اللّجوء إلى السيّد «سافوري»، واسترسلتُ في طقس الودّ إلى درجة أنّي صافحتها. مَسحتها بمنديلها حالَما فهمت نواياي. ولمّا انتهيتُ من مُصافحتها لم أترك تلك اليد الحمراء الطريّة. بل ظللتُ أمسك بإصبع سحبتُه ناحيتي وتأمّلته. لو أنّ لي دموعاً لكنتُ ذرفتها بغزارة مدّة ساعات. تساءلتْ حتماً ما إذا كنتُ سأدعوها إلى أمر مُخزٍ. تركتُ يدها. أخذتُ السندويشات وغادرتُ.

مضى وقت طويل و«مارتا» في خدمتي. كنتُ في سفر دائم. لم يسبق أن ابتعدتُ عنها بهذه الطّريقة. كان يحدث ذلك بعفويّة حتّى لو كانت المدة التي سأغيبها طويلة. وهو ما لم يحدث في ذلك الأحد.

أحياناً أرحل دون أن تسمع منّي كلمة واحدة. قبل دخول غرفة ابني دخلتُ غرفتي. كنتُ لا أزال أحافظ على السّيجار في فمي. لكنّ الرّماد الجميل كان قد سقط في مكان ما. لمتُ نفسي على قلّة الحرص. ذوّبتُ في الحليب مسحوقاً منوّماً. لن أسمح له بشيء. رحتُ إليه بطبقي حين وقعت عينَاي على الألبومين موضوعين على مكتبي. تساءلتُ ما إذا كان مناسباً أن أتراجع في شأن التّحجير. أقصد على الأقلّ الألبوم الصّغير. منذ قليل قدم إلى هنا ليجلب المحرار. أطال المكوث. هل يُعقل أن يكون قد انتهز الفرصة ليستولي على بضعة طوابع من تلك التي يُفضّلها؟ لم يكن لَدَيَّ الوقت الكافي لأحقّق. وضعتُ الطّبق واستغرقتُ أبحث عشوائيّاً عن بعض الطّوابع ، الطوغولي

القرمزي من فئة المارك بسفينته الجميلة النياسا[28] من فئة العشرة ريّيس لسنة 1901 وأخرى. أحبّ النياسا كثيراً. كان أخضر ومرسوماً عليه زرافة تأكل من قمّة نخلة. جميعها كانت في أماكنها. غير أنّ هذا لا يُثبت شيئاً. إنّه لا يثبت سوى أنّ تلك الطّوابع بالذّات كانت في أماكنها. وثبتَ لي أنّي لن أتراجع عن قراري الذي اتّخذتُه بحرّيّة وأعلنتُ عنه بوضوح إلّا إذا انتقص شيء من نفوذي، الأمر الذي لم يكن قائماً ولا هو قابل للتحمّل. لديَّ ندم. ابني ينام. أيقظتُه. أكل وشرب. سحنته تُقزّز. كانت تلك هي طريقته ليشكرني. انتظرتُ حتّى اختفت آخر قطرة وآخر فتات خبز. استدار إلى الحائط وغطّيتُه. كنتُ على وشك تقبيله. لم ننطق بحرف. لسنا في حاجة إلى كلام في الوقت الحالي. على كلّ كان من النّادر أن يبادرني بالكلام. وإذا حدّثتُه فإنّه عادة يجيبني بثقل وبطريقة يبدو معها مرغماً على الردّ. بينما حين يكون مع رفاقه ظنّاً منه أنّي بعيد فإنّه يستمتع بشكل لا يُصدّق. كوني أطفئ مرحه بوجودي هو أمر أضعف بكثير من أن يزعجني. أن تصمت وتصغي، ما من أحد في المئة من البشر قادر على القيام بذلك، إنّه حتّى عاجز عن فهم ماذا يعني أن تصمت وتصغي. مع ذلك وراء الضجّة الغبيّة يكمن الصمت الذي انبثق منه الوجود. أدّخر هذا الكنز لابني ليبقى في منأى عن أولئك الذي يفتخرون بأنّهم يحسنون فتح أعينهم على اتّساعها. لم أقاوم وأتعذّب وأعاني وأخلق ظرفاً معيّناً وأعيش كبابينچا[29]، ليقترف ابني عملًا مشابهاً في نهاية الأمر. انسحبتُ على أصابع قدمي. سأؤدّي دوري عن طواعية حتّى آخر رمق.

ما دمتُ قد أخّرتُ المهلة، هل علَيَّ أن أعتذر وأنا أعلن ذلك؟ أصرف النّظر وأترك هذا المقترح للصّدفة دون أن أهتمّ بأيّ تدبير آخر. لأنّي وأنا أسرد

---

28 – النياسا: وردَت معرّفة باللّسان الفرنسي، يُقصَد بها هنا الطّوابع البريديّة المعتمدة سنة 1901 في دولة الموزمبيق تحت الاحتلال البرتغالي. والريّيس عملة برتغاليّة.

29 – بابينچا: قبائل أفريقيّة لا يتجاوز عدد أفرادها خمساً وثلاثين ألف نفر، تعيش القبيلة في الجنوب الغربي للكونغو وجنوب الكاميرون وفي أماكن من الغابون. وهي قبائل ما زالت تعيش حياة البرّيّة في الغابات محافظة على نمط عيش أجدادهم الأوائل، ويعتمدون في البقاء على الصّيد والقطف.

وقائع تلك اللّيلة أعيشها من جديد وأحشوها بالحياة القلقة العميقة، لسبب واحد هو أن أثمل وأفلح في عدم القيام بما علَيَّ فعله. هكذا رفض تفكيري مولوي. ريشتي أيضاً، في تلك اللّيلة. منذ فترة وهذا الاعتراف يشغلني. لا يُخفّف عنّي أبداً. أفكّر بنوع من الرّضا المشحون بالمرارة في ابني، ماذا لو مات في الطّريق. مؤكّد أنّي لستُ من أراد ذلك. لكلّ منّا مسؤوليّاته.

أقرّ بأنّها لا تمنع من النّوم، قلتُ في نفسي، وإنّ شيئاً ما في هذا البيت يمنع المرء من القيام بأيّ عمل. رجلٌ مثلي لا يمكنه أن ينسى خلال تهرّبه مِمَّا كان يهرب. نزلتُ إلى الحديقة أتنزّه في العتمة الكاملة تقريباً. الحديقة لم تكن مألوفة بالقدر الذي هي عليه بنايتي أو خليّة نحلي. انطفأ سيجاري دون أن أتفطّن. حرّكتُه وأدخلته في جيبي في نيّة رميه في المنفضة أو في مهملات الأوراق لاحقاً. لكن في اليوم الموالي على عكس الحشيش وجدتُه في جيبي بصورة لا تخلو من الرّضا، الحقّ يُقال. لأنّ في استطاعتي سحب بعض الأنفاس. أن أحسّ برودة السّيجار تحت أسناني، بصق التّبغ، البحثُ عنه في الظّلام، التقاطه، التّساؤل عمّا يجدر فعله، وضعه في الجيب، إحضار المنفضة وسلّة مهملات الأوراق، كلّها ليست سوى الحلقات الرّئيسة لمتتالية أجعلها تدوم ربع ساعة على الأقلّ. آخرون قد يعوّلون في ذلك على الكلب «زولو» أو على العطر الذي ستضاعف المطر من انتشاره والذي أجد متعة في البحث عن مصدره. على الضّوء عند ذاك الجار، على الصّخب عند الآخر وهكذا دواليك. نافذة ابني كانت بالكاد مُضاءة، يحبّ النّوم وعلى جانبه سهّارة تضيء. عاتبتُ نفسي قليلاً على تجاوز طيش كهذا. مضى وقت منذ لم يعد قادراً على النّوم إلّا إذا احتضن دبّه المخمليّ بين ذراعيه. يوم ينسى الدبّ (جانو) سأزيل عنه السهّارة. ماذا كنتُ سأفعل في ذلك اليوم دون نزق ابني؟ واجبي ربّما.

لمّا أدركتُ أنّي لستُ حريصاً على حديقتي مثلما هو الشّأن بالنّسبة إلى البيت، حدّثتُ نفسي قائلاً، لا البيت والحديقة ينتميان إلى مخلوقات الإبادة التي أنتمي إليها، إلّا إذا كان علَيَّ أن أوجّه أسهمي إلى جميع ما أملك.

انطلاقاً من هذه الفرضيّة يجب أن أعتذر عن كلّ ما فعلتُه من قبل وعن كلّ ما سأفعل لاحقاً وصولاً إلى رحيلي الوشيك. إنّها تمنحني ما يشبه العفو ولحظة حرّيّة زائفة. لذا تبنّيتها.

من بعيد لاح لي المطبخ عائماً في الظّلام، على نحو ما كان ذلك صحيحاً. لكن من ناحية أخرى لم يكن ذلك صحيحاً تماماً. لأنّي حين ألصقتُ عينَيَّ على البلّور لاحظتُ ضوءاً أحمرَ خافتاً لا يمكن أن يكون مصدره الفرن، فأنا لا أملك فرناً بل موقدَ غاز، لو شئتم هو فرن، لكنّه فرن غاز. في الحقيقة أملك فرناً فعلَيّاً، غير أنّه مهمل. ماذا نصنع؟ منزل ليس فيه فرن غاز لا أشعر فيه بالراحة. أحبّ اللّيل. أقطع جولتي. أقترب من النّوافذ مضاءة أم غير مضاءة. ألقي نظرة على الغرف كي أرى ماذا يحدث. غطّيتُ وجهي براحتَيَّ ونظرتُ من خلال أصابعي. باغتُّ أكثر من جار بهذه الطّريقة. يسرع لاستطلاع الأمر فلا يجد أحداً. الحُجرة الأكثر عتمة وتكتّماً تفصح لي عن نفسها من الظّلّ خارجة من ضوء النّهار الذي لا يزال يغمرها أو من مصباح يُطفأ للتوّ لأسباب نسبيّاً لا يجوز إفشاؤها. لكن وميض المطبخ كان من نوع آخر ومصدره السهّارة ذات الكرة الحمراء التي كانت دائماً وأبداً تضيء في غرفة «مارتا» تحت مجسّم خشبيّ للعذراء مُعلّق على الجدار. لمّا سئمت من التّأرجح غادرت المطبخ إلى فراشها تاركة باب غرفتها مواربا حتّى لا تفوتها أصوات البيت. لكن لعلّها نامت. صعدتُ إلى الطّابق، توقّفتُ أمام باب ابني، انحنيتُ وألصقتُ أذني على القفل. أدهشني أنّي لم أسمع شيئاً. فابني ينام مفتوح الفم ويشخر. طردتُ فكرة فتح الباب لأنّ هذا الصّمت سيشغل بالي مدّة طويلة. ذهبتُ إلى غرفتي. هكذا إذن جرت الأمور على نحو غير مسبوق. «موران» يتأهّب للرّحيل جاهلاً كلّ شيء عن المغامرة التي ينوي خوضها، لم يستأذن الورق[30] ولا المؤشّرات ولم يدرس الطّريق والمراحل غير عابئ بأحوال الطّقس غير متسلّح سوى ببعض الأفكار المُشوّشة حول الأدوات التي عليه اصطحابها معه نسبة إلى المدّة التي سيستغرقها الاكتشاف،

30 – الورق: يُشار بالورق هنا إلى قراءة الطالع بالورق.

والأموال التي سيحتاج إليها وطبيعة العمل الذي عليه أن يؤدّيه والمسائل التي سيستخدمها. أخذتُ أصفرّ وأنا أرتّب داخل جرابي أشياء تشبه تلك التي أمرتُ ابني بأخذها. أعدتُ ارتداء بذلة الصّيد الرّقشاء القديمة وكيلوت قصيراً تُقفل أزراره تحت الرّكبة بقليل وسروالاً داخليّاً منسجماً وحذاءً قويّاً أسودَ بقصبة صاعدة. ملتُ واضعاً يَديَّ على مؤخّرتي أنظر إلى ساقَيّ، باردتين ومُصابتين بالصّدف[31]، غير متكيّفتين جيّداً مع هذا اللّباس الهزليّ الذي لا أحد يعرفه في القرية. لكن حين أخرج في اللّيل صوب وجهة بعيدة فإنّي ألبسه بإرادتي كنوع من التبرّز في الفراش[32]. لا تنقصني سوى شبكة فراشات لأبدو بشكل صارخ كمعلّم ريفيّ في إجازة نقاهة. الجزمة الثّقيلة بلونها الأسود البرّاق التي تتراءى كأنّها تتضرّع للبنطلون الصوفيّ الأزرق البحري، جاد بفضله على المجموعة. لولاه لبدا لباسي للنّاس سيئ الذّوق. كغطاء أضعه على رأسي، قرّرتُ وضع قبّعة تبن الأرزّ المُصفرّ من المطر. فَقَدَتْ سفيفتها فبدت طويلة جدّاً. وراودتني رغبة في أخذ الوشاح الأسود. لكنّ ابني فضّل أخيراً المطريّة الشتويّة ذات المقبض الضّخم. الوشاح لباس عمليّ ولديَّ منه الكثير. إنّه يترك لليدين مُطلق الحريّة وفي آنٍ هو يخفيهما. ثمّة مناسبات يكون فيه الوشاح لازماً. للمطريّة أيضاً ما يُميّزها. لو أنّ الفصل شتاء أو حتّى خريفاً بدل الصّيف لكنتُ حملت كليهما معي. حدث ذلك من قبل، والحقّ أنّي ما زلتُ أهنّئ نفسي على ذلك. معاً لم أكن لأحافظ على سرّيتي، أكره ذلك. أن تلفت الانتباه في مهنتنا هو طفولة الفنّ، علينا أن نثير مشاعر الشفقة والصّفح ونبعث على البهجة والسخرية. إنّه أمر محتّم. كم من الثّقوب اللّولبيّة في ساق الأسرار. لكن شرط أن لا تتحرّك عاطفتنا أو ننتقد أو نضحك. راقت لي وضعيّتي تلك. ثمّ هاهو اللّيل.

ابني لا يصنع شيئاً سوى مُضايقتي، يشبه ألف ولد في سنّه ووضعه. الأب

31- الصّدف: من فعل صَدَفَ، وصدف الرّجل أي أقبلت إحدى ركبتيه على الأخرى.

32- التبرّز في الفراش: العبارة في العاميّة الفرنسيّة يُلمّح بها إلى الانفلات والهمجيّة والفوضى.

أكثر جدّيّة من الأبناء. حتّى لو كان فظّاً فهو يظهر نوعاً من الاحترام وحين نراه في نزهة مع ولده الصّغير ذي الوجه الآخذ بالطّول، عندها لا يعود هناك مجال للعمل. سيذهب في الظنّ أنّه أرمل، الألوان الزّاهية لن تزيد سوى من تأزّم موقفه، فقد تُعزى إليه زوجة ماتت منذ زمن بحفّاظات على الأغلب. ولن يجدوا في شذوذي سوى نتيجة طبيعيّة لترمّلي الذي تسبب لي في خفّة العقل. انتابني إحساس بالغضب إزاء الذي فرض عليَّ إعاقة مماثلة. كانوا يفضّلون أن أفشل على أن يبلوا البلاء الحسن، لو كانوا مكاني. لو استطعتُ التّفكير بدمي البارد المعتاد في العمل الذي طُلب منّي لكنتُ ربّما حكمتُ بأنّه من النّوع الذي يسهل كثيراً بوجود ابني أكثر من كونه بسبب العذاب. لكن لن نعود إلى تلك النّقطة.

ربّما قدّمتُه على أنّه مساعدي أو ببساطة ابن أختي. سأمنعه من مناداتي أبي. أو أن يُظهر عاطفة تجاهي أمام الآخرين بغية الاحتماء بي من أصواته التي يخافها جدّاً.

وكوني أصفّر بعض النوتات من وقت إلى آخر وأنا أدير هذه الأفكار الكئيبة في رأسي فلأنّي سعيد في أعماقي بمغادرة المنزل والحديقة والبلدة، أنا الذي عادة لا أغادرها إلّا مغموراً بالأسف. هناك أناس يصفّرون دون سبب. لستُ منهم. وبينما أروح وأجيء في غرفتي أجري النّظام، أرتّب ملابسي في الخزانة والقبّعات في صناديقها بعدما كنتُ قد أخرجتها لأختار واحدة من بينها بكلّ حرّيّة وأقفل الأدراج بالمفتاح. أثناء ذلك الوقت كنتُ سعيداً وأنا أتخيّل نفسي بعيداً عن ضيعتي وعن الرّؤوس المألوفة وعن المراسي التي تشدّني، جالساً على حافّة في ركن مظلم، الساقان متقاطعتان، يد على فخذي، وهي تحضن مرفقي والذّقن على يدي الأخرى. العينان تحدّقان في الأرضيّة كما لو أنّها رقعة شطرنج، أضع خططي ببرود، خطّة للغد وأخرى للذي يليه راسماً المُستقبل، ناسياً أنّ ابني سيكون إلى جانبي مضطرباً شاكياً مُحتجّاً على الأكل والنوم، مُلوّثاً ملابسه الداخليّة. فتحتُ درج المنضدة وأخذتُ أنبوباً كاملاً من أقراص المرفين. مُسكّني المُفضّل.

حافظة مفاتيحي هائلة، تزن أكثر من رطل. ما من باب أو درج في منزلي إلّا ومفتاحه يرافقني حيثما ذهبت. أحملها في الجيب الأيمن لبنطلوني وفي جيب الكيلوت في حالات مُعيّنة. سلسلة كبيرة مشدودة إلى حمّالة بنطلوني تمنعها من أن تضيع منّي. هذه السّلسلة أربع أو خمس مرّات أطول ممّا ينبغي، تستقرّ مفتولة في جيبي فوق الحافظة. الوزن يجعلني أميل إلى اليمين حين أكون مُتعباً أو حين أنسى أن أعوّضه بمجهود عضليّ.

ألقي نظرة أخيرة حولي. يخطر لي أنّي أهملتُ بعض الاحتياطات فأتداركها. آخذ جرابي، كدتُ أكتب قيثارتي، وقبّعة البحريّة والمطريّة. آمل أن لا أكون قد نسيتُ شيئاً. أطفأ النّور، أخرج إلى الممرّ وأقفل الباب بالمفتاح. الأشياء واضحة هكذا. أسمع صوت اختناق. إنّه ابني ينام. أيقظتُه. لا نملك لحظة واحدة نُضيّعها، قلت. انتشل نفسه من النّوم بيأس. هذا طبيعيّ. ساعات قليلة من النّوم حتّى لو كان ثقيلاً كالرّصاص لا تكفي جسماً بالكاد بلغ. نال منه عسر الهضم. هززتُه وساعدتُه على النّهوض من الفراش ساحباً إيّاه من ذراعيه في البداية ثمّ من شعره. أفلت منّي واستدار إلى الحائط مسعوراً وغرز أظفاره في الحاشية. كان علَيَّ استدعاء كلّ ما أملك من قوّة لأسيطر على مقاومته لي. لكن ما إن نجحت في إخراجه من الفراش حتّى استلقى على الأرض وراح يتدحرج صارخاً بغضب وثورة. ها قد بدأت المشاكل. أمام هذه القوّة المارقة التي أبداها وجدتُني عند ضرورة استخدام مطريّتي مُمسكاً إيّاها بكلتا يديّ. لكن، كلمة بخصوص قبّعتي البحريّة البيضاء قبل أن أنسى. الحوافّ مثقوبة من الجهتين بالطّبع. قمتُ بذلك وحدي بواسطة مثقاب. في كلّ ثقب ثبّتُّ طرف خيط مطّاطي طويل كفاية ليتخطّى ذقني. أسفل فكّي بالأحرى، لكن ليس طويلاً جدّاً فقد كان عليه أن يوائم أسفلَ فكّي على نحو يجعل القبّعة ثابتة دائماً في مكانها الذي هو رأسي مهما كانت تشنّجاتي العضليّة وحركة عظامي. ألا تستحي، صرخت؟ عديم تربية مقرف! كنتُ سأنزلق في الغضب لولا أنّي انتبهتُ أخيراً. الغضب رفاهية لا أسمح بها لنفسي. لأنّي عندما أُصاب به

أصير أعمى. ستارة من الدّم تحجب عنّي النّظر كما هو الشّأن بالنسبة إلى غوستاف العظيم[33]. أسمع صرير المقاعد في محكمة الجنايات. أوه، أن نكون لطفاء ومُتأدّبين وصبورين يوماً بعد يوم سنة بعد أخرى دون أن نتّخذ إجراء عقوبة في إحدى المرّات. رميتُ مطريّتي وأسرعتُ خارج الغرفة. في السلّم اعترضتني «مارتا» تصعد، لم تكن تضع غطاءً على رأسها، شعرها متناثر وملابسها فوضويّة. ماذا يحدث؟ صرخت. حدّقتُ فيها. عادت إلى مطبخها. ركضتُ مرتعشاً نحو المكان الذي أودع فيه الأدوات. أخذت الفأس وخرجتُ إلى السّاحة، هناك رحتُ بذراع مُتردّدة أضرب جذعاً قديماً يقف هناك في سلام، اعتدتُ خلال الشّتاء قطع الخشب فوقه على أربعة أجزاء. غاص الفأس في الجذع عميقاً حتّى لم أستطع فكّه. الجهود التي قمتُ بها إضافة إلى الإنهاك منحتني الهدوء. صعدتُ إلى الطّابق. كان ابني يلبس ثيابه باكياً. الكلّ يبكي. ساعدتُه على حمل حقيبة ظهره. قلتُ له بأن لا ينسى معطفه الواقي من المطر. وضعه في الحقيبة. طلبتُ منه أن يتركه فوق ذراعه في الوقت الحالي. إنّه منتصف اللّيل تقريباً. أخذتُ مطريّتي. إنّها سليمة. تقدّم، قلت. خرج من الغرفة ورحتُ أتأمّلها برهة قبل اللّحاق به. فوضى عارمة خَيّمت. في الخارج الجوّ جميل حسب رأيي المتواضع. الهواء مُحَنّط. الحصى يطقطق تحت أرجلنا. لا، قلت، من هنا. اتّخذنا دربنا في البستان، خلفي ابني يتعثّر ويجعلني أرتطم بالأغصان. لا يُحسن المشي في السّواد. كان لا يزال شابّاً وعبارات اللّوم ماتت على شفتي. توقّف. خذ يدي، قلت. كان في وسعي القول هات يدك. قلتُ خذ يدي. غريب. لكنّ المسلك ضيّق جدّاً كي يمرّ فيه كلانا مُتقدّمَين بوجهينا. أحطتُ ظهر ابني بيدي إذن. أمسك به بامتنان، أظنّ. وصلنا إلى بوّابة الحديقة، كانت الكوّة مُغلقة بالمفتاح. فتحتها وانزويتُ كي يعبر ابني أوّلاً. استدرتُ إلى المنزل. كان البستان يُغطّي جزءاً منه. القمّة المُسنّنة للسقف، المدخنة الوحيدة ذات

---

33 – غوستاف العظيم: هو ملك السويد وُلد سنة 1594 ومات مقتولاً. استطاع غوستاف المُكنّى بالكبير خلال حكمه تحويل السّويد بفضل عبقريّته وحكمته العسكريّة إلى قوّة أوروبيّة مهيبة.

الأنابيب الأربعة، تبدو كأنّها تحرّرت معانقة سماءً ذات نجوم غارقة وأخرى سائلة. سلّمتُ وجهي لهذه الكثافة النباتيّة السّوداء المُعطّرة التي هي ملكي والتي في وسعي دائماً أن أصنع فيها ما أشاء دون أن يجرؤ أحد على التّعليق بكلمة. كانت مليئة بالعصافير الشّادية، برؤوسها تحت أجنحتها. لا تخشى شيئاً فهي تعرفني. أظنّ أنّي أحبّ أشجاري وشجيراتي ونباتاتي والعشب القصير. إن كنتُ أحياناً أقلّم بعض الأغصان من هنا وزهرة من هناك فلفائدتها كي تنمو قويّة وسعيدة. لكنّي لا أفعل إلّا بقلب منقبض. أساساً لم أكن أفعل بل أجعل «كريستي» تفعل. لم أكن أزرع الخضروات. وقنّ الدّجاج لم يكن بعيداً. كذبتُ في شأن الديك الرومي إلخ. لا أملك سوى بعض الدّجاجات. الدّجاجة الرّماديّة كانت دائماً هناك. ليست فوق العمود مع الأخريات. بل على الأرض في ركن وسط الغبار تحت رحمة الجرذان. الدّيك لم يكن يقفز فوقها باعتداء. يكاد النّهار يطلع. إن لم تستجمع قواها وتلتحق ببقيّة الدّجاج سيتّحدون لقتلها ضرباً بالمناقير والمخالب.

صمتٌ مطبق يلفّ المكان. سمعي حادّ جدّاً. لكنّي لستُ موسيقاراً. ألتقط هذا الصّخب اللذيذ للوطء والأجنحة العصبيّة والحَضن المُختنق الخفيف الذي يضجّ به القنّ ليلاً والذي ينتهي بانبلاج الصّبح. كم من المساءات استغرقتُ أسمعه بمتعة كبيرة قائلاً في نفسي، غداً أنا حرّ. هكذا استدرتُ للمرّة الأخيرة إلى ممتلكاتي الصّغيرة قبل أن أفارقها آملاً الحفاظ عليها في ذاكرتي. لمّا خرجنا إلى الطّريق، أقفلتُ البوّابة بالمفتاح، وقلتُ لابني، على اليسار. منذ وقت طويل توقّفتُ عن اصطحاب ابني في جولة رغم الرّغبة الملحّة أحياناً. النّزهة معه حتّى لو كانت قصيرة، كانت بالنّسبة إليَّ نوعاً من التّعذيب، لشدّة خلطه بين الاتّجاهات، لكن حين يكون بمفرده فإنّه على الأرجح يعرف الطّرق المُختصرة. عندما أرسله إلى البقالة أو إلى السيّدة «كليمون» أو أبعد على الطّريق V ليأتيني بالحَبّ، فإنّه يعود قبل انقضاء نصف الوقت الذي أنجز فيه المسافة نفسها، دون أن يجري. لا أحبّ أن يُلاحَظ ابني وهو يلهو في الطّريق كالأوغاد الذين يخالطهم خلسة عنّي.

كلّا. أريده أن يمشي مثلي بخطوات متلاصقة سريعة، مرفوع الرّأس، بأنفاس مقتصدة متساوية، وهو يؤرجح ذراعيه ولا ينظر إلى اليمين ولا إلى اليسار، كأنّه لا يرى شيئاً فيما في الواقع يكون منتبهاً ولا تفوته أدقّ التّفاصيل في الطريق. لكن معي هو دائماً يتّخذ المسار الخطأ. لا شيء يتغيّر. إذ يكفي أن نصل إلى مستوى مفترق أو تقاطع طرق كي يحيد عن الخطّ الصّحيح الذي رسمتُه. لا أظنّه يفعل متعمّداً. وبما أنّه يُعوّل عليَّ فهو يتخلّى عن الانتباه لما يفعل، لا ينظر إلى وجهته، يتقدّم فقط كالآلة غارقاً في ما يُشبه الحلم. إلى حدّ يبدو معه أنّه يمضي مستسلماً للمسارب التي تجعله يختفي. حتّى إنّنا اعتدنا أن يتنزّه أحدنا دون الآخر. الجولة الوحيدة التي تجمعنا بانتظام هي التي تقودنا يوم الأحد من البيت إلى الكنيسة ومن الكنيسة إلى البيت بعد انتهاء الصّلاة مأخوذاً إذن بالمدّ الطّويل للمخلصين لا يعود ابني وحيداً بصحبتي، بل واحداً من قطيع منصاع يذهب مرّة أخرى ليشكر الربّ على نعمه ويتضرّع طالباً الصّفح والرّحمة ثمّ بعد ذلك يعود بروح مطمئنّة نحو تلبيات أخرى.

انتظرتُ عودته على أعقابه والنطق بالكلمات الخاصّة بهذه المواقف. ستتّخذ لك مكاناً خلفي وستتبعني، قلت. كان حلّاً مناسباً من عدّة أوجه لكن هل كان قادراً على المشي إثري؟

ألن تأتي اللّحظة الفظيعة التي سيرفع فيها رأسه ليجد نفسه وحيداً في مكان مجهول، وحيثُ عائداً من أفكاري أستدير فلا أجده؟ خطر لي لوهلة بنوع من اللّهو بالأفكار أن أربطه إليَّ بحبل طويل، طرفاه معقودان حول خصرَينا. ثمّة العديد من طرق لفت الانتباه ولستُ متأكّداً ممّا إذا كانت هذه واحدة من بين أنجعها. وربّما فكّ العقدة في صمت ليتيه في المدى تاركاً إيّاي أواصل الطّريق وحدي متبوعاً بحبل طويل أثير به الغبار من خلفي وأنا أجرّه كبرجوازي من الـ «الكاليه»[34]. إلى أن تحين اللّحظة التي يعلق فيها الحبل بشيء ثابت أو ثقيل فيقطع اندفاعي، هذا يعني أنّه من الضّروريّ

34 - الكاليه: مقاطعة شمال فرنسا.

استخدام سلسلة بدل الحبل الرّخو الصّامت. الأمر الذي لا ينبغي التّفكير فيه. لكنّي فكّرتُ فيه. أمرٌ مسلٍّ للغاية، تصوّروا ذلك. تخيّلتُ نفسي في عالم أقلّ شرّاً ممّا هو عليه وأنا أبحث عن الوسيلة الأفضل لأكبّل ابني بالسّلاسل حتّى لا يتيه عنّي أثناء مسيرنا، وليس في حوزتي سوى سلسلة بسيطة بلا قيد أو طوق أو أصفاد أو حديد من أيّ نوع. كان مجرّد إشكال متعلّق بالعُقد وكنتُ سأحلّه لو لزم الأمر. لكن سرعان ما لاحت لي صورة ابني يمشي، إنّما ليس خلفي بل أمامي. هكذا سيكون في وسعي أن أجعله أمام عينيَّ وأن أتدخّل عند أدنى حركة في غير محلّها. لكن فضلاً عن الأدوار التي علَيَّ القيام بها سيكون بين واجباتي خلال هذه الرّحلة أن ألعب دور الحارس أو مرافق المريض. لن أقبل مجرّد فكرة أن لا أتقدّم خطوة قبل تفقّد هذا الجسم الصّغير الكئيب البدين. تعالى إلى هنا! صرخت. إذ بمجرّد سماعي أقول بأنّنا سنتّجه يساراً اتّجه ناحية اليسار كأنّه يكنّ رغبة في الإلقاء بي خارج نفسي. متّكئاً على المطريّة، رأسي مائل كأنّي أرزح تحت لعنة، أصابع يدي الحرّة مرّت بين ظلفَتَي البوّابة، لا أتحرّك كأنّي تمثال. عاد أدراجه. قلتُ لك اتبعني وها أنت ذا تسبقني، قلت. كانت العُطلَةَ الكبيرةَ. قبّعته التّلمذيّة مُطرّزة من الأمام باللّون الذهبي. أحرف اسمه الأولى ورأس أيل أو خنزير. كانت موضوعة فوق رأسه الأشقر الضّخم بدقّة غطاء قارورة. هكذا يحلو له حملها. ثمّة لا أدري ماذا في هذه الأغطية التي توضع بثقة هكذا. ما يكسبها من موهبة إحباطي الكثير. أمّا بالنسبة إلى معطفه الواقي من المطر فبدل أن يحمله مطويّاً على ذراعه، لفّه ككرة وضمّه إلى بطنه بكلتا يديه. كان أمامي، قدماه الكبيرتان منفرجتان. الرّكبتان مثنيّتان، بطنُه إلى الأمام، صدره إلى الوراء، ذقنه في الهواء وفمه مفتوح كغبيّ حقيقيّ كبير. أنا أظهر كأنّي أقف بفضل المطريّة وأصابعي المرتكزة على البوابة. الآن يمكنني التحرّك. هل أنت قادر على السير خلفي؟ لا يُجيب. لكنّي قرأت أفكاره كأنّه نطق بها فقد قال في نفسه، وأنت هل أنتَ قادر على قيادتي؟ دقّت أجراس منتصف اللّيل في كنيستي العزيزة. لا يهمّ. لستُ في بيتي. أفتّش داخل عقلي حيث يوجد كلّ ما أحتاج إليه. لا بُدَّ أنّه حمل معه جميع الأشياء المُحبّبة إليه. أتمنّى

أن لا تكون قد نسيت سكّين الكشّافة. قد نحتاج إليه، قلت. هذا السكّين عدا الشفرات الخمس أو الستّ ذات الاستخدام الأوّلي يحتوي على فاتح سدّادات وفاتح علب ومثقاب ومفكٍّ ومطرقة ولا أدري أيّ تفاهات أخرى. أنا من أعطيتُه إيّاه بمناسبة حصوله للمرّة الأولى على الجائزة الأولى في مادّتي التّاريخ والجغرافيا. مجالان مقترنان لأسباب غامضة في المدرسة التي يذهب إليها. وهو آخر الفاشلين في الآداب والعلوم الصحيحة كما يُقال. لم يكن أحد يجاريه في ما يخصّ تواريخ المعارك والثورات وإعادة الإعمار وإنجازات بشريّة عظيمة أخرى. في ارتقاء النور ببطء ورسم الحدود وارتفاعات القمم. يستحقّ ذلك سكّين كشّافة. لا تقل لي إنّك نسيته في البيت! قلت. بالطّبع لا، قال وهو يضرب على جيبه برضا وفخر. هاته! قلت. لم يجب بطبيعة الحال. لم يكن ضمن عاداته أن يوليَ الإنذار الأولّ اهتماماً. أعطني السكّين! صرخت. أعطاني إيّاه. ماذا توقّعتم أن يتصرّف معي بمفرده في اللّيل دون شهود؟ لصالحه فعلت ذلك لأجنّبه الانحراف. لأنّه حيث يوجد السكّين يوجد قلب الكشّاف، إلّا إذا أمكنه بوسيلة ما اقتناء سكّين آخر. لم يكن وضع ابني يسمح. لأنّه لا يحمل نقوداً أبداً. لا يحتاج إليها. لكنّه يضع كلّ قرش يقع في يده، وهذا لا يحصل دائماً، في حصّالته الإيطاليّة أوّلاً ثمّ في دفتر ادّخار أحتفظ به عندي. كان حتماً سيذبحني ببرودة دم بهذا السكّين الذي أصبح الآن في جيبي، لكن ابني كان لا يزال ناعماً بعدُ للقيام بأعمال كبيرة متعلّقة بالعدالة. لكنّ الوقت في صالحه، من وجهة نظري إنّه يجد المواساة لشدّة غبائه. مهما يكن من أمر، لقد أمسك دموعه بإرادة كاملة هذه المرّة. استقمتُ. وضعت يدي على كتفه وقلت، صبراً بنيّ، صبراً. المرير في مواقف كهذه هو أنّه عندما يكون لدينا الرّغبة فإنّ الوسائل تخوننا والعكس صحيح. لكن ابني لا يشكّ في الأمر حاليّاً. المسكين، يعتقد أنّ السّعار الذي يسيطر عليه ويجعله يرتعد ويُعكّر ملامحه لن يدَعَه وشأنه إلّا عندما يشرّفه بعمليّة ما. لعلّه يعتقد أيضاً أنّه روح دانتيس الصّغير[35]، ذاك

35 – دانتيس الصّغير: شخصيّة خياليّة في رواية الكونت موني كريستو لألكسندر دوما.

الذي اعتاد حماقات القردة كما سمحت منشورات «هاتشيت» لنفسها بأن تظهرها. ثمّ بضربة لا بأس بها على الكتف الضّعيف قلت، هيّا إلى الطّريق. وفعلاً مضيتُ في الطّريق وابني يتعثّر ورائي. لقد سافرتُ برفقة ابني كما جاء في التّعليمات.

ليس في نيّتي أن أروي المغامرات التي خضتها أنا وابني معاً أو كلّ على حدة قبل وصولنا إلى مولوي. سيكون ذلك رتيباً في هذه الحكاية التي فُرِضت علَيَّ. لكنّي سأتقدّم بها بإرادتي نحو نقطة معيّنة، حتّى لو لم تنل رضا المُتعهّد في صورة عثر فيها على فقرات لا تعنيه كثيراً هو وشركاؤه. لا يهمّ، ليذهب إلى الجحيم، إذ ليس هناك أفظع بالنّسبة إليَّ. أي لكي أكوّن فكرة واضحة عن هذا الأمر أحتاج إلى خيال أكثر بكثير مما أملك. رغم أنّ مخيّلتي اتسّعت عن ذي قبل. ومهنة الكاتب الحزينة هذه التي أنسجم معها رضختُ لها لأسباب يصعب تصديقها. ما زلتُ أطيع الأوامر، إن شئنا. لكن ليس من باب الخوف. بلى، أنا خائف على الدّوام لكن فقط بحكم العادة. والصّوتُ الذي سمعتُه لم أكن في حاجة إلى «چابر» لينقله إليَّ. لأنّه في داخلي يحثّني على لعب دور الخادم المخلص الذي كنتُه دائماً في قضيّة ليست قضيّتي والقيام بدوري بصبر حتّى الحدّ الأقصى للمرارة. إنّه جزء من الحقد الذي يملأ رأسي والازدراء الذي تقتضيه خطّته. كما تلاحظون هو صوت غامض ليس من السّهل دائماً اقتفاؤه في تأويله وقراراته. لكنّي أتبعه على الأقلّ. نسبيّاً أتبعه من الناحية التي أفهمه بها. من هذه الناحية يمكنني القول إنّي أطيعه. والأصوات التي يُقال في شأنها هذا نادرة جدّاً. ولديَّ انطباع بأنّي سأتبعه من هنا فصاعداً. لكنّي لا أنكر بأنّه يبهجني وحين يصمت تاركاً إيّاي نهباً للشكّ والظّلام فإنّي قبل القيام بأيّ شيء أنتظر العالم بأسره (وإن يكن) ليُسدي إليَّ أوامره، عبر نفوذه وحيله التي لا تنتهي متّحدة ومُجْمَعاً عليها كأنّي أقضي عقوبة على مجمل جرائمي التي لا توصف، لكن هذا المساء شربتُ أكثر من المعتاد ومن المرجّح أن أغيّر رأيي غداً. يقول لي الصّوت أيضاً، هذا الذي بدأت فعلاً تربطني به ألفة غامضة، إنّ ذكرياتي التي تركها لي

عملي الذي أنجزتُه دائماً بحرص ودقّة وحتّى آخر رمق هي التي ستساعدني على تحمّل أهوال الحرّية والتشرّد، هل سيعني هذا أنّي سأُطرد من بيتي يوماً، من حديقتي وأشجاري ومساحاتي المُعشّبة وطيوري التي ألفتني وألفتها، تلك التي تشدو وتطير كلّ منها على طريقتها، وعلى طريقتها أيضاً تقترب منّي أو تجفل لدى اقترابي منها. هل سأفقد السّخافات الصّغيرة السّابحة في وجداني الذي يعرف كيف يُرتّب الأشياء كلّ في موضعه، حيث لدَيَّ ما يلزم كي أكون إنساناً. وحيث لا يمكن لأعدائي الوصول إليَّ. هل سيعني أنّي لأجل فقدان كلّ هذا بنيتُ حياتي وزخرفتها وجوّدتها وحافظتُ عليها؟ أنا مُسنّ جدّاً كي أفقد كلّ هذا، كي أبدأ من جديد، أنا مُسنّ جدّاً! هيّا «موران» اهدأ، ولا تنسق وراء العاطفة من فضلك.

قلتُ إنّي لن أروي كلّ التقلّبات التي صادفتها في الطّريق المؤدّي إلى بلاد «مولوي» لسبب بسيط هو أنّ ذلك ليس في نيّتي. وأنا أكتب هذه الأسطر، أعرف حجم الظّلال التي أنشرها فوق الكائن الذي ليس لديَّ مصلحة في تنظيم أوضاعه أكثر من مصلحتي معه. بيد أنّي مع ذلك أكتبها بيد حازمة. أيَّ طواف جامح يلتهم صفحتي بلامبالاةٍ كارثة. لكنّي سأروي القليل منها بإيجاز، لأنّ ذلك يبدو لي مرغوباً ولكي أعطي نبذة عن نضجي العميق. إنّما قبل الشّروع في ذلك سأروي، وأنا أغادر البيت، القليل الذي أعرفه عن بلاد «مولوي» المختلفة جدّاً عن بلادي. لأنّها إحدى دعائم التّحليل المنهجيّ الذي فُرِض علَيَّ والذي لا يُسمح لي معه بالتقدّم دون تعليل مقنع. لكن قبل ذلك علَيَّ أن أجهل مرّة أخرى ما لم أعد أجهله، وأن أظنّ مرّة أخرى بأنّي أعرف أشياء معيّنة كنتُ أظنّ وأنا أغادر بيتي بأنّي فعلاً أعرفها. ولو حِدتُ عن هذه القاعدة من حين إلى آخر فبسبب تفاصيل لا قيمة لها. لكن عموماً أنا أطبّق القاعدة جيّداً. وبحرارة لا أبالغ إن قلتُ معها بأنّي مُكتشف أكثر من كوني راوياً. اليوم أيضاً وجلّ الوقت. في صمت غرفتي والقضيّة محسومة في ما يخصّني، كنتُ على علم أين أتّجه وما الذي ينتظرني أكثر من تلك السّاعة اللّيليّة التي انتُزعتُ فيها من بوّابتي أنا وابني المعتوه لنجد أنفسنا

في الزّقاق، ولن أندهش إن تنحّيتُ في الصّفحات التالية من السير الصارم والحقيقيّ للوقائع. لكن حتّى «سيزيف» لا أعتقد بأنّه أُرغِمَ على الخدش أو الأنين أو الاختيال على غرار مجاراة موضة ذهنيّة دون أن يبرح مكانه. لسنا نركب الحصان المناسب بالضّرورة ونحن نقتفي أثره، ونتّخذ الطّريق الذي سار فيه والذي ربّما أفضى به إلى الميناء الصّحيح في الآجال المُحدّدة. ومن يضمن عدم ظنّه بأنّها محاولته الأولى؟ سيبقيه ذلك على أمل الوصول. الأمل، تلك الوضعيّة الجهنّميّة بامتياز عكس ما نتصوّر إلى يومنا هذا. في حين إنّ الانزلاق والقيام إلى ما لانهاية يملؤكم راحة. بلاد مولوي تعني لي الحدود القويّة التي لم يتخطّاها ولن يفعل أبداً. الحدود الإداريّة كانت وما زالت مستحيلة بالنّسبة إليه. إمّا لأنّه لا يرغب في تجاوزها أو لأنّهم يحجّرون عليه ذلك أو بسبب حادث حظّ طبيعيّ خارق. إنّها في الشّمال غير بعيد عن أرضي الأكثر فتنة، تجدر الإشارة. أرضي حيثُ أعيش. هو تجمّع يتكرّم عليه البعض بوصفه مدينة ولا يرى فيها البعض الآخر سوى قرية محوطة بالأرياف. هذه المدينة أو القرية، لنذكر ذلك فوراً، اسمها «بالي» وتمتدّ إضافة إلى الأراضي التابعة لها على مساحة خمسة أو ستّة أميال مربّعة على أقلّ تقدير. في البلدان المتقدّمة نسمّيها بلدة، أظن، أو مقاطعة لا أدري، لكن في بلادنا ليس ثمّة عبارة جنيسة مجرّدة، نصف بها هذا النوع من المقاسم الإقليميّة. ولنشير إليها لدينا نظامنا الخاص، إنّه مذهل وبسيط بشكل لافت، وينطلق من فكرة قول «بالي» لأنّها فعلاً «بالي» حين نريد القول «بالي» و«باليبا» لو أردنا الإشارة إلى «بالي» مع الأراضي التابعة لها و«باليبابا» حين نودّ الإشارة إلى أراضي «بالي» التي في ضاحيتها دون حسبانها. أنا مثلاً لو دقّقتُ لبدا لي أنّي أعيش دائماً في «شيت» المدينة الرّئيسة لـ «شيتبا». في المساء عندما أرغب في الانتعاش بالهواء خارج «شيت» فإنّ هواء «شيتبا» هو الذي أملأ به رئتَيَّ ولا شيء آخر.

ورغم صغرها فإنّ «باليبا» لم تكن قاصرة عن إظهار بعض التنوّع. مَراعٍ، لنقل. القليل من المستنقعات، بعض الأجمات ومظاهر غزيرة كصوف

الخرفان وأخرى ضاحكة كأنّ «باليبا» مسرورة لأنّها تبتعد أكثر. لكنّ الجمال الأعظم في تلك المنطقة هو نوع من الجداول المختنقة التي يملؤها ويُفرغها المدّ والجزر. يملؤها ويفرغها. والناس الأقلّ قدرة على الخيال يخرجون حشوداً ليتمتّعوا بالعرض. بعضهم يقول، لا شيء أجمل من رمل مبتلّ بالكاد. وآخرون يهتفون، إنّه خلال المدّ العالي علينا الخروج لمشاهدة جدول «باليبا». يا لهذا الجمال وهذا الماء الرّصاصي الميّت إذن شرط أن نكون منذَرين سَلَفاً! آخرون يؤكّدون أنّ المشهد يشبه بحيرة تحت الأرض. لكن في المجمل كلّهم متّفقون، تماماً كسكّان مدينتهم المُشرفة على البحر. وكانوا يستهلّون الرّسائل في الأعلى بكلمة، «بالي» على البحر.

صراحة، قلّة سكّان «بالي» تمنحني الرّاحة. لم تكن الأراضي مستغلّة بشكل جيّد. فبمجرّد أن تمتدّ زراعة أو أن يُهتَمَّ بمرج على نطاق فسيح، حتّى يُكسَرُ أنفُه على الأسيجة الدرويديّة[36] والسّباخ حيث لا يمكن أن يُجنى غير القليل من التُّربة السيّئة ومخلّفات البلوط التي لم تعد تصلح سوى لصنع التّمائم والتعويذات وحلقات المناديل وفاتحات الرّسائل. السيّدة العذراء التي لدى «مارتا» مثلاً آتية من «باليبا». ورغم الأمطار الغزيرة فإنّ المراعي فقيرة وصخريّة. جنّة طفيليّات وحشائش عجيبة، زرقاء ومُرّة لا تصلح للمواشي وإن كانت الحمير والماعز والخرفان السود قد تأقلمت معها. من أين يأتي ترف «باليبا» إذن؟ سأخبركم. لا لن أقول. لن أقول شيئاً. هذا إذا ما اعتقدتُ أنّي أعرفه عن «باليبا» وأنا أغادر البيت. أتساءل ما إذا كنتُ أخلط بينها وبين مكان آخر. على مسافة عشرين قدماً من البوّابة يحاذي الزّقاقُ سورَ المقبرة. الطّريق ينخفض والجدار يعلو أكثر فأكثر. عند نقطة ما نكون قد وصلنا إلى مستوى أدنى من الأموات. هناك قدّمتُ تنازل المكوث مدى الحياة. سيظلّ هذا المكان لي ما دامت الأرض. صليب لاتينيّ أبيض بسيط، كنتُ قد رغبتُ في كتابة «هنا يرقد فلان» وأضع عليه اسمي تاريخ ميلادي.

---

36- الدرويديّة: منصب ريفيّ سامٍ في الحضارة السلتيّة القديمة، مهمّته الشّفاء وتقديم النّصح للملك.

لم يكن هناك ما يمكن إضافته سوى وتاريخ وفاتي. لم يسمحوا لي بذلك. أحياناً أبتسم كأنّي ميّت فعلاً.

سرنا على الأقدام بضعة أيّام مُتّخذين مسالك سرّيّة. لم أشأ استعمال الطّريق الكبيرة حتّى لا أُشاهَدَ.

خلال اليوم الأوّل عثرتُ على عقب سيجار الأب «أمبرواز». لم أكن قد رميتُ به في المنفضة أو في سلّة مهملات الأوراق. بل اكتفيتُ فقط بوضعه في جيبي وأنا أغيّر البذلة. حدث ذلك دون وعي منّي.

نظرتُ إليه بتعجّب. أشعلته. سحبتُ منه أنفاساً ورميتُه. كانت تلك هي الحادثة الأبرز في يومي الأوّل.

علّمتُ ابني كيفيّة استخدام بوصلة الجيب. استمتع بذلك كثيراً. أبدى تصرّفاً سليماً أفضل ممّا أَمِلْتُ. وفي اليوم الثّالث أعدتُ إليه سكّينه.

الوقتُ لصالحنا. كنّا نقطع بسهولة عشرة أميال في اليوم وننام في العراء. الحذر ينصحنا بذلك. علّمتُ ابني كيفيّة صنع مأوى من الأغصان. كان في الكشّافة لكنّه لا يجيد فعل شيء على الإطلاق. بلى كان يحسن إضرام نار التخييم. أثناء كلّ استراحة كان يتوسّل إلَيَّ كي أسمح له بممارسة تلك الموهبة. لا أرى جدوى من ذلك. نأكل أطعمة باردة في علب مصبّرة، أرسله إلى القرى لاقتنائها. كان نافعاً من هذا الجانب. كنّا نشرب ماء السّواقي. كلّ تلك الاحتياطات كانت عديمة الجدوى بلا شكّ. صادفت يوماً في أحد الحقول مُزارعاً أعرفه. أتى في اتّجاهنا أمسكت ابني من ذراعه وقفلتُ عائداً من ناحية الاتّجاه المعاكس للوجهة الصّحيحة. اعترض سبيلنا كما توقّعتُ تماماً. ألقى التحيّة وسألني عن المكان الذي أقصده. مؤكّد أنّه مالك الحقل. أجبتُ بأنّنا عائدون إلى البيت. لحسن الحظّ أنّنا لم نكن بعيدين عنه كثيراً. عندها سألني أين كنّا. ثمّة احتمال أن نكون قد سرقنا منه عجلاً أو خنزيراً. نقوم بجولة، أجبت. يمكنني أن أقلّكما بسيّارتي، لا يُعَدّ هذا شيئاً يُذكر، قال. إن انتظرتني فهذه طيبة منك لأنّي لن أغادر قبل حلول المساء. شكرتُه. لم يكن منتصف النّهار قد أتى بعد، لحسن الحظّ. أن لا ينتظر المرء قدوم اللّيل

لم يكن أمراً مُستَراباً. حظّاً سعيداً، قال. اتّخذنا طريق الشّمال. لعلّي بالغتُ في أخذ تدابير الحيطة. الطّريقة الأمثل هي السّفر أثناء اللّيل والاختباء في النّهار. خلال الفترة الأولى على الأقلّ. لكن الطّقس كان أجمل من أن أُوَفّق في تنفيذ هذا الحلّ. لم أكن أفكّر سوى في ما سأجنيه من متعة. كنتُ حقّاً أفكّر في ذلك! لم يحدث معي هذا أبداً من قبل وأنا أباشر عملي. وهذا البطء الذي نتقدّم به! لا يجدرُ بي أن أكون متعجّلاً للوصول. كنتُ من حين إلى آخر، مُستسلماً لعذوبة الصّيف الموشك على الانتهاء، أفكّر في تعليمات «چابر». لم أنجح. لم أنجح في ترتيبها بالشّكل الذي يرضيني تماماً. أثناء اللّيل تحت الأغصان، متماهياً كلّيّاً مع الطّبيعة، كرّستُ نفسي لتلك المعضلة. الضجيج الذي يصدره ابني خلال نومه يزعجني بشكل كبير. كنتُ أحياناً أخرج من المأوى لأتنزّه في الظلام طولاً وعرضاً. أجلس مسنداً ظهري إلى جذع شجرة. أضمّ ساقَيَّ إلى صدري، أحيطهما بذراعيَّ وأجعل ذقني فوق رُكبَتَيَّ. حتّى في تلك الوضعيّة لا أفلح في تبصّر الأمور كما يجب. ما الذي أصابني؟ عمَّ أبحث تحديداً؟ يصعب قول ذلك؟ أبحث عن الحلقة النّاقصة التي تجعل من تقرير «چابر» مكتملاً. كان من واجبه إحاطتي بما ينبغي القيام به حالما أعثر على مولوي. عملي لا يقتضي منّي فقط تحديد المكان. ليته كان كذلك. إنّما علَيَّ التعامل مع المعنيّ بطريقة أو بأخرى وفقاً لما أتلقّاه من تعليمات. قد تأخذ تلك التدخّلات أشكالاً مختلفة جدّاً من الصّاخب حتّى السرّي للغاية. قضيّة «يارك» أخذت منّي ثلاثة أشهر نجحت إثرها في القيام بما يلزم. لقد تولّيتُ بنفسي كسر دبّوس ربطة عنقه. اللّقاء وجهاً لوجه ليس سوى جزء بسيط من عملي. عثرتُ على «يارك» في اليوم الثّالث. لا أحد يطلب منّي برهاناً على أنّي أنجزت مهمّتي بنجاح. يصدّقون ما أرويه. ينبغي أن يكون لـ «يودي» وسائله الخاصّة ليتأكّد. في مناسبات معيّنة طلبوا منّي تقريراً. مرّة أخرى أُكلّف بنقل شخص ما إلى مكان ما في ساعة ما. عمل حسّاس لأنّي لن أنقل امرأة في النهاية. لم أُكلّف بامرأة قطّ. يؤسفني ذلك. لا أعتقد أنّ «يودي» يولي اهتماماً كبيراً للنّساء. أتذكّر في هذا السّياق نكتة على أرواح النّساء. سؤال، هل للنّساء أرواح؟ إجابة، نعم. سؤال، لماذا؟ إجابة،

حتّى تتسنّى لعنتها. أمر مسلٍّ للغاية. لحسن الحظّ أنّهم منحوني حرّية اختيار اليوم. ما يهمّهم كان ساعة التّنفيذ وليس التّاريخ. حالما يحين الموعد أتركه وأرحل متعلّلاً بأيّ عذر. كان «يارك» فتى لطيفاً صموتاً وحزيناً. أذكر أنّي اخترعتُ له حكاية امرأة. مهلاً، ذاكرتي تسعفني. نعم. قلت له إنّها مغرمة به منذ ما يقارب الستّة أشهر وترجو لقاءه بشوق في مكان معزول. أذكر أنّي سمّيتُ المكان. كانت ممثّلة مشهورة. حين وصلنا إلى المكان الذي اختارته كان عليَّ الانسحاب برقّة. ما زلتُ أستحضره وهو يراقبني أبتعد. ودَّ لو صرنا أصدقاء. حالما أُتمّ مهمّتي، لا أعود أكترث للحالة التي اشتغلتُ عليها. بل لم أرَ أيّاً منهم ثانية. أقول هذا بشكل عاديّ. أوه يمكنني أن أروي لكم بعض الحكايات لو كان مزاجي يسمح. أيّ إعصار في رأسي. أيّ رواق للهالكين هي جمجمتي. «مرفي»، «وات»، «يارك»، «مرسيي»[37] وآخرون. لم يخطر لي يوماً ــــــــــ. بلى أعتقد أنّي ما زلتُ قادراً على تصوّر ذلك. حكايات. حكايات. لم أحسن قصّها أبداً. لا أظنّ أنّي أروي هذه أيضاً بشكل جيّد. لم أعرف إذن أيّ طريقة أتوخّى في تعاملي مع مولوي لو أنّي عثرتُ عليه. التّوصيات التي لم يفت «چابر» أن يزوّدني بها في هذا الشّأن، تبخّرت من رأسي كلّيّاً. إنّها نتيجة قضاء يوم أحد بأكمله منغمساً في الحماقات. لا فائدة من الكلام، لِنَرَ ماذا كانوا يطلبون منّي عادة. التعليمات التي أتلقّاها خارجة عن العادة دائماً. ثمّة عمليّة تتكرّر باستمرار ليس إلى حدّ كبير يجعلني واثقاً من أنّها ما أبحث عنه. لكنّهم أبداً لم يطلبوا منّي القيام بالشّيء إلّا مرّة واحدة وهذه المرّة هي دائماً كافية لتجعلني مشحوناً بالهوس والتعطّش للإنجاز. قلتُ لنفسي إنّه حريّ بي التوقّف عن التفكير في الأمر في الوقت الحاليّ وإنّ عليَّ أوّلاً إيجاد مولوي ثمّ بعد ذلك سأرى ما سيترتّب. سيكون لديَّ متّسع من الوقت وإنّ الأشياء تتحقّق أكثر كلّما صرفنا عنها النّظر وحتّى لو فرضنا بأنّي وجدتُ مولوي في وقت أكون فيه لا أزال أجهل ما يجب فعله، فربّما تصرّفتُ كي ألتقي «چابر» دون علم «يودي»، وكما أنّ لديه عنواني

37 – مرفي، وات، يارك، مرسيي: أبطال روايات أخرى لصامويل بيكيت.

فإنّ لديَّ عنوانه. سأبعث له برسالة أسأله فيها، ماذا في شأن «م»؟ مؤكّد أنّه سيجد طريقة ليجيبني بعبارات صريحة ومُشفّرة في آنٍ. لكن هل ثمّة تلغراف في «باليبا»؟ ثمّ بالطّريقة نفسها التي كان سيتصرّف بها أيّ إنسان، بما أنّي إنسان، هي أن أؤخّر عثوري على مولوي قدر المستطاع مانحاً نفسي حظوظاً أوفر لمعرفة ما يتوجّب علَيَّ فعله. وكنّا سنواصل مسيرنا في أمان لولا وقوع الحادث التالي:

ذات ليلة كنتُ فيها نائماً بجانب ابني كالعادة، استيقظتُ مذعوراً ولديَّ انطباع بأنّ أحدهم يهمّ بضربي بعنف. لا تقلقوا إذ لا يمكنني أن أرويَ حُلُماً بمعنى الكلمة. ظلام دامس يخيّم على المأوى. أصختُ السّمع بانتباه دون حركة. لم أسمع شيئاً عدا شخير ابني ولهاثه. كنتُ سأقول كالعادة إنّه حُلم. لكنّ آلاماً رهيبة اخترقت ركبتي. هكذا بدا لي الأمر عندما استفقت وهكذا فسّرتُ حلمي. إنّها شبيهة بضربة تلقّيتها من حافر حصان، كما أتخيّل. انتظرتُ عودته بقلق. جامداً وبالكاد أتنفّس مُبلّلاً بالعرق. كنتُ أتصرّف كما أعتقد أنّهم يتصرّفون في ظرف مماثل. بعد دقائق عاد الألم أقلّ حدّة من المرّة الأولى. من الثانية عفواً. أو إنّها بدت لي أقلّ حدّة لأنّي فقط هيّأت نفسي لذلك. أو لأنّي بدأتُ فعلاً أعتاد الأمر؟ لا أظن، لأنّ الضّربات تكرّرت عدّة مرّات وكانت أضعف في كلّ مرّة. ثمّ هدأت في الأخير. حتّى إنّي تمكّنتُ من النّوم بسلام نسبيّ. لكن قبل العودة إلى النّوم، لاح لي أنّ الآلام التي أحسستُ بها لم تكن غير مألوفة. لأنّي شعرتُ بها من قبل في الحمّام وأنا أغسل ابني. لكن حينها وخزتني مرّة واحدة ولم تعاود الظّهور ثانية.عدتُ إلى النوم وأنا أتساءل كأنّي أهدهد نفسي، هل كانت الركبة نفسها التي آلمتني للتوّ أم الأخرى. لم أهتدِ إلى إجابة أبداً. ابني أيضاً ليس أكثر دراية منّي، لن يتمكّن من إجابتي لو سألته أيّ ركبة ضممتَ ودلّكتَ بالإيودكس في تلك اللّيلة التي غادرنا فيها. خلدت إلى النوم مُطمَئِناً نفسي بأنّه مجرّد توتّر عصبيّ تسبّب لي فيه المشي مسافات طويلة واللّيالي الباردة الرّطبة. وقطعتُ أمام نفسي وعداً بأن أقتني في أوّل فرصة علبة قطن طبّي

من تلك المرسوم أعلاها شيطان جميل. هكذا يفكّر المرء فوراً. لم يكن ذلك هو كلّ شيء. لأنّي عندما استيقظت لقضاء حاجتي البشريّة عند الفجر منتصب القضيب قليلاً، لأضفي مزيداً من المصداقيّة على القصّة، لم أستطع النّهوض. أعني أنّي نهضتُ أخيراً لكن لكم أن تتصوّروا حجم الجهد الذي بذلتُه! نقولها بيسر ونكتبها بيسر وبسرعة لكن انظروا ما الذي تكلّفه في الواقع كلمة نهضتُ بصعوبة. إنّه الإحساس الأكثر فظاعة. تمكّنتُ بفضل الإرادة، بلا شكّ. إنّ ذرّة مقاومة يمكنها على ما يبدو أن تطلق لك العنان. اعتقدتُ في البداية أنّي لم أنجح في طيّ ساقي. لكن مع الإصرار والغضب أمكنني طيّها قليلاً. مفصلي لم يكن على ما يُرام. لكن هل كان هو ذاته الذي أيقظني في عمق اللّيل؟ لم أكن لأقسم على ذلك. لا تؤلمني. تقاوم وتأبى أن تنثنيَ، هذا كلّ شيء. حاول الألم لفت انتباهي مرّات عديدة ولمّا لم أكترث له صمتَ. هكذا أحلّل الأمور. كان من المستحيل علَيَّ أن أقرفص مثلاً. لأنّ المرء إذا أراد اتّخاذ وضعيّة القرفصاء عليه أن يثني كلتا ركبتيه، إلّا إذا خطر له أن يجرّب نمطاً آخر سخيفاً ويستحيل الحفاظ عليه أكثر من ثوانٍ قليلة وهو أن يثني ركبته ويمدّ السّاق الأخرى كراقص قوقازيّ. رحتُ أحدّق في ركبتي المريضة على ضوء مصباح كهربائيّ. لم تكن محمرّة أو متورّمة. حرّكت الرّضفة. بدت لي كبظر. أثناء ذلك كان ابني ينفخ كفقمة. لديه ثقة في الحياة، إنّه لا يدرك قدراتها. كنتُ ساذجاً مثله. لكن كنتُ أعرف ذلك.

سطع ذلك الضوء المقزّز الذي يسبق طلوع الشّمس. عادت الأشياء إلى محلّها مؤدّية التواءاتها النهاريّة ثمّ انتصبت متظاهرة بالموت. جلستُ بحذر على الأرض بل ربّما بفضول ما. غيري كان سيفضّل الجلوس باندفاع كالعادة. ليس أنا. هذا الصّليب الجديد، أعتقد أنّي وجدتُ الطّريقة الأمثل لأسخر منه. لكن حين أجلس، فإنّ علَيَّ القيام بذلك كخيّاط أو في وضعيّة جنين. إنّهما الوضعيّتان الوحيدتان المتاحتان في الواقع بالنسبة إلى مبتدئ. لم أتأخّر طويلاً قبل التمدّد على ظهري، لم أتأخّر طويلاً أيضاً في إضافة هذه المهارة إلى لائحة مهاراتي. فبين كلّ الوضعيّات التي يتّخذها المرء دون

تفكير لم يبقَ لي غير اثنتين قابلتين للجدل. هذا يعني أنّي أثريتُ معارفي في شأنهما. في ظروف أخرى كنتُ سأراهن على العكس وأعضّ بشدة[38] أم إنّي لم أُصب بما أُصبتُ به الآن. أجل، عدم القدرة على الوقوف ولا على الجلوس يستدعي فوراً اتّخاذ وضعيّات أفقيّة يلجأ إليها المرء كطفل في أحضان أمّه. نكتشفها كما لم نفعل من قبل، بل ونجد فيها لذّة لا تخطر على البال أبداً. باختصار تصير الوضعيّات لانهائيّة فجأة. ولو حدث أن سئمنا مع مرور الوقت فكلّ ما علينا فعله هو الوقوف لبعض الوقت أو أكثر من ذلك أن تستقيم على مقعدك ببساطة. إنّها مزايا الشّلل التام غير الموجع. لا أستغرب أن تمنح أنواع الشّلل الكبيرة الكلاسيكيّة الأخرى متعة مماثلة أيضاً بل ربّما كانت أكثر إثارة. أخيراً، أن لا تقدر على الحركة تماماً، يجب أن يكون هذا شيئاً ما! روحي تغوص عميقاً كلّما فكّرتُ في الأمر. ترافق ذلك بهتة كاملة! وربّما صمم تامّ! ومن يدري ربّما أضيفَ إليها شللُ الشبكيّة! احتمال كبير أن أفقد الذّاكرة! القليل من العقل فقط يبقى كي يشمت المرء! وليخشى الموت كأنّه بعث من جديد.

يشغلني كثيراً ما عساي أتصرّف لو أنّ ركبتي لم تتحسّن أو ماذا لو تعكّر وضعها. عبر الأغصان أرى السّماء تدنو. السّماء تدنو في الصّباح. لا أحد شرح الظّاهرة، تقترب كأنّها تحاول إمعان النّظر، إلّا إذا كانت الأرض هي التي نهضت كي تثبت نفسها قبل أن ترحل. لن أروي تحليلي هذا رغم أنّه من اليسير علَيَّ القيام بذلك. إنّه يفضي إلى القرار الذي سيسمح بتأليف المقطع الموالي. هل نمت جيّداً؟ سألتُ ابني حالما فتح عينيه. كان في إمكاني أن أوقظه لكن. لا لم أشأ. تركته يستفيق بصورة طبيعيّة. انتهى به المطاف إلى إجابتي بأنّه ليس على ما يرام. أين نحن؟ قلت، وما هي القرية الأقرب من هنا؟ سمّى لي القرية. أعرفها. إنّها مدينة كبيرة مررتُ بها يوماً. يبدو أنّ الحظّ يعمل لصالحنا. بل لقد عرفتُ أناساً يقطنون فيها. في أيّ يوم نحن؟ قلت. حدّد لي اليوم دون لحظة تردّد رغم أنّه استعاد وعيه للتوّ! قلتُ

38 – أعضّ بشدّة: وردَت العبارة باللّاتينيّة.

لكم إنّه الأول في التاريخ والجغرافيا. منه تعلّمتُ أنّ نهر «البيز»[39] يصبّ في «كندوم»[40]. حسناً، قلت. عليك الذّهاب إلى «هول» حالًا، أمامك (أَحسبُ) ثلاث ساعات على أقصى تقدير. نظر إليَّ باندهاش. من هناك يمكنك شراء درّاجة تناسب طولك. اعمل على أن تكون مستعملة. يمكنك أن تصل إلى خمسة جنيهات. أعطيتُه خمسة جنيهات من فئة العشرة شلن. يجب أن تكون مجهّزة بحقيبة للأمتعة، إن لم تكن كذلك فاستبدلها فوراً بواحدة مجهّزة بحقيبة أمتعة، قلت. حاولتُ أن أكون واضحاً في كلامي. لم يبدُ أنّه كان سعيداً. كرّرت الأوامر على مسامعه وسألته مرّة أخرى إن كان مسروراً. كان على العكس مصدوماً. بسبب السّعادة التي تغمره، لعلّه لم يصدّق أذنيه. هل فهمت على الأقلّ؟ قلت. أمر رائع من حين إلى آخر أن يخوض المرء نقاشاً حقيقيّاً مع أحدهم. ما الذي تنوي القيام به؟ قلت. إنّها الوسيلة الوحيدة التي ستجعلني أتأكّد إن كان فهمني أم لا. علَيَّ الذّهاب إلى «هول»، قال، على بعد خمسة عشر ميلاً من هنا. خمسة عشر ميلاً؟ قلت. نعم، قال. حسناً تابع، قلت. لأشتريَ درّاجة، قال. انتظرتُ، لا شيء على الإطلاق. درّاجة، صرخت، هناك ملايين الدرّاجات في «هول»! أيّ نوع من الدرّاجات؟ يفكّر. مستعملة، نطق عشوائيّاً. وإن لم تجد ضالتك في المستعمل؟ قلت. لقد قلتَ إنّ الدرّاجة يجب أن تكون مستعملة، قال. صمتُّ طويلاً. ماذا لو لم تجد درّاجة مستعملة، ماذا كنتَ ستفعل؟ لم تقل لي شيئاً في هذا الشّأن. كم هو مريح أن يندمج المرء في ندوة من وقت إلى آخر. كم أعطيتك؟ قلت. عدّ القطع. أربعة جنيهات وعشرة شلن، قال. عُدّها ثانية، قلت. عدَّها مجدّداً. أربعة جنيهات وعشرة شلن، قال. أعطاني القطع وعددتها. أربعة جنيهات وعشرة وأنا أعطيتك خمسة جنيهات. لم يجب بل آثر ترك الأرقام تتحدّث. أيعقل أن يكون قد أخفى عنّي عشرة شلن؟ أفرغ جيوبك، قلت. فوراً شرع يفرغها. لا ننسى بأنّي كنتُ ممدّداً. لم يكن يعلم أنّي مريض. أساساً لستُ

39- البيز: نهر في جنوب فرنسا ينبع من أعالي جبال البيريني.
40- كندوم: بلدة فرنسيّة تقع في الجنوب.

مريضاً. جستُ في الأشياء التي نشرها أمامي. أخرجها من جيبه قطعةً قطعة. كان يمسك بأغراضه بين الإبهام والسبّابة بعناية في الهواء حريصاً على أن يريني إيّاها من كلّ اتّجاه. ثمّ وضعها على الأرض بجانبي. ومع كلّ جيب يفرغ كان يقلبه وينفضه. نشأت سحابة غبار صغيرة. السّخف الذي في عمليّة التثبّت تلك سرعان ما كبّلني. طلبتُ منه أن يتوقّف. ربّما أخفى العشرة شلن في كمّه أو في فمه من يدري. كان علَيَّ إذن أن أنهض وأفتّشه من رأسه حتّى أخمص إصبعه. لكن عندئذٍ سيكتشف بأنّي مريض، غير أنّي لستُ مريضاً تماماً. ولماذا لا أرغب في أن يراني مريضاً؟ لا أدري. كان في وسعي عدّ النقود التي بقيت في حوزتي. لكن ما جدوى ذلك؟ وهل لديَّ فكرة عن قيمة المبلغ الذي جلبتُه؟ لا. حتّى مع نفسي أطبّق المنهج السّقراطي. هل أعرف كم أنفقت؟ لا. عادة أضبط حساباتي بصرامة خلال أسفاري. أبرّر نفقاتي حتّى آخر قرش من مصاريف التنقّل. هذه المرة لا. يجب أن تكون رحلة ترفيهيّة كي أبذّر الأموال في الهواء متحرّراً من كلّ نظام. لنفرض أنّي مخطئ وأنّي لم أمدّك سوى بأربعة جنيهات وعشرة شلن، قلت. بكسل جمع أشياءه المبعثرة على الأرض وأعادها إلى جيوبه. كيف أجعله يفهم؟ اترك هذا وأصغ إليّ، قلت. أعدتُ إليه القطع النقديّة. عُدَّها قلت. عدّها. كم؟ قلت. عشرة شلن، قال. معك أربعة جنيهات وعشرة شلن، قلت. نعم، قال. أعطيتك أربعة جنيهات وعشرة شلن، قلتُ. نعم، قال. لم يكن ذلك صحيحاً فقد أعطيتُه خمسة جنيهات. موافق؟ قلت. نعم، قال. لِمَ في رأيك أعطيتك هذا المبلغ من المال؟ قلت. لمَ هذا المقدار؟ قال. أشرق وجهه. لأقتني درّاجة، قال. أيّ نوع من الدرّاجات؟ قلت. مستعملة، قال، من الخردة. أوَتعتقد أنّ درّاجة مستعملة قد يساوي ثمنها أربعة جنيهات وعشرة شلن؟ قلت. لا أدري، قال. أنا أيضاً ليست لديَّ أدنى فكرة. لكن هذا هو الإشكال. ماذا قلتُ لك بالضّبط؟ قلت. ساد بيننا الصّمت. مستعملة قدر الإمكان، هذا ما قلتُه لك. آه، قال. أذكر ما جاء في الحوار بأكمله[41]. عرّجتُ فقط على

41- وردت العبارة باللّاتينيّة.

النقاط الهامّة. لم أقل مستعملة قلت، بل مستعملة قدر المستطاع. انهمك يجمع أغراضه. اترك هذا، قلت، انتبه فقط لما سأقوله لك. بتَباهٍ أسقط من يده كرة خيوط متشابكة. ربّما كان في داخلها العشرة شلن. ألا تفرّق بين مستعملة وبين مستعملة قدر المُستطاع؟ قلت. نظرتُ إلى ساعتي. كانت العاشرة. لا أفعل شيئاً سوى القيام بالمزيد من التّشويش على أفكارنا. لا تحاول أن تفهم، قلت. فقط اسمع ما سأقوله لك لأنّي لن أكرّره. اقترب منّي وجثا على ركبته كما لو أنّي أُحتَضر. هل تعلم ماذا يعني دراجة جديدة؟ قلت. نعم أبي، قال. حسناً إذا لم تجد درّاجة مستعملة فيمكنك شراء درّاجة جديدة، قلت. أعدتُ كلامي. أبعد وجهك، فرائحة فمك كريهة، أضفت، لا تغسل أسنانك وتشكو الدمّل. إلّا أنّي أحجمتُ في آخر لحظة. ليس هذا الوقت المناسب لاختلاق المبرّرات، أعدت. ماذا كنتَ ستفعل؟ قلت. بدأ يستجمع مداركه. أذهب إلى «هول» على مسافة خمسة عشر ميلاً _____ . لا تكترث للأميال، قلت، أنت في «هول» لماذا؟ لم أعد أستطيع. فهمَ أخيراً. لمن هي الدرّاجة، قلت. لـ «چونينچ»؟ لم يكن قد فهِم بعدُ أنّ الدرّاجة له. لم يكن أصغر منّي في تلك الفترة. أمّا بالنسبة إلى حقيبة الأمتعة فكأنّي لم أقل شيئاً في شأنها. في النّهاية ثاب إلى رشده إلى درجة أنّه سألني عمّا يجدر به أن يصنع لو أنّ المال الذي في حوزته لا يكفي. تعود إلى هنا وستتدبّر الأمر سويّاً، قلت. طبعاً خطر لي مسبقاً وأنا أفكّر في كلّ هذه الأسئلة أثناء نوم ابني أنّه ربّما تعرّض إلى صعوبات هناك، فمن الوارد جدّاً أن يسألوه عن مصدر الأموال التي في حوزته. أعرف كيف كان سيتصرّف، إمّا أن يبحث بنفسه عن الشرطيّ «پول» أو أن يطلب دعوته، سيعرّف بنفسه قائلاً، إنّ (موران جاك) هو الذي كلّفني باقتناء درّاجة من «هول» موحياً لهم بأنّي خلال ذلك الوقت بقيتُ أنتظره في «شيت». هنا بالتّأكيد نحن إزاء عمليّتين مختلفتين، أولى تتمثّل في التكهّن (قبل استيقاظ ابني) والأخرى بنَت مجدها من الخبر القائل إنّ «هول» هي أقرب تجمّع سكنيّ من هنا. لكنّي تراجعتُ عند إعطائه تعليمات بهذا المكر. لا تخف، قلت، لديك ما يكفي لاقتناء درّاجة جميلة تأتي بها إلى هنا دون إضاعة للوقت. التّفكير في جميع الاحتمالات حتميّ

مع ابني. لم يكن ليخمّن ما الذي عليه أن يفعل بالدرّاجة في حال حصل عليها، ليس مستبعداً أن يظلّ في «هول»، الله وحده يعلم في أيّ ظرف سيظلّ هناك منتظراً حتّى تأتيه منّي تعليمات أخرى. سألني ماذا بي. تغيّرت ملامحي. مللتُ رؤيتَك، قلت. وسألته ما الذي ينتظره. لستُ على ما يُرام، قال. يسألني ماذا بي فلا أجيب بشيء وهو الذي لا أحد يسأله عن أحواله يقول إنّه ليس على ما يُرام. لستَ سعيداً! قلت، رغم أنّك ستحصل على درّاجة جديدة باهرة، لك، لك وحدك؟ كم كان بودّي أن أسمعه يعبّر لي عن سعادته. غير أنّي لستُ نادماً على جملتي الأخيرة التي أزّمت الأمور أكثر وهذا يكفي بالنّسبة إلى اجتماع عائليّ. غادر المأوى، وحين تأكّدتُ أنّه ابتعد خرجتُ بعناء بدوري. سار عشرين خطوة تقريباً. رسمتُ سحنة صفو على ملامحي. ظهري مُسنَد بخمول إلى جذع شجرة وساقي السّليمة مثنيّة باتّساع قبالة الأخرى. ناديتُه فالتفت. لوّحتُ بيدي. حدّق فِيَّ لحظة ثمّ أشاح بظهره وواصل طريقه. ناديتُه باسمه فالتفت من جديد. فانوس! صرخت. فانوساً جيّداً! لم يفهم، كيف تريدونه أن يفهم من على بعد أكثر من عشرين خطوة هو الذي لا يفهم على بعد خطوة واحدة؟ عاد نحوي. أشرتُ إليه حالاً بالابتعاد، صارخاً، ارحل! ارحل! توقّف وراح يحملق فيَّ برأس مائل كبيغاء. حائراً تماماً على ما يبدو. بطيش مِلتُ لألتقط حجراً أو قطعة خشب أو طوبة، أيَّ قذيفة، لكنّي كدتُ أسقط. كسّرتُ على رأسي غصناً غضّاً ورميتُه بعنف في اتّجاهه. استدار وهرب ركضاً. أحياناً لا أفهم شيئاً من تصرّفاته. يُفترض أنّ لديه علماً بعجزي عن ملاحقته حتّى بحجر جيّد. رغم ذلك يجري وساقاه أعلى من رأسه. لعلّه يخشى أن أجريَ وراءه. في الواقع هناك ما يخيف في طريقة ركضي ورأسي مُلقى إلى الوراء. أسناني مصرورة، المرفقان مثنيان إلى الحدّ الأقصى والرّكبتان تكادان ترتطمان بوجهي. أمسكتُ بمن هم أسرع منّي بفضل هذه الطّريقة. عادة يقفون في انتظار وصولي بَدَل أن يزيدوا على أنفسهم هيجاناً رهيباً لا قبل لهم به.

أمّا الفانوس، فلسنا في حاجة إلى فانوس. لاحقاً عندما تفسح الدرّاجة

لنفسها حيّزاً في حياة ابني، حياة الواجب واللّعب البريء، عندها فقط يكون الفانوس ضروريّاً ليضيء جولاته اللّيليّة. وإنّه في إطار الاستباق بلا شكّ أن أفكّر في الفانوس لأجل مستقبل سعيد لابني، وأصرخ في وجهه قائلاً إنّ عليه العثور على فانوس جديد. هكذا يكون ذهابه وإيّابه في النّور دون خطر. كان في إمكاني أيضاً أن أوصيه بالانتباه إلى الفانوس، أن يفتح الغطاء الصّغير ويُلقي نظرة ليتأكّد ممّا إذا كان النّاقوس حقيقيّاً وفي حالة جيّدة قبل عقد الصّفقة، وأن يُجرّبه لتكون لديه فكرة عن الصّوت الذي يصدره. لكن لا بأس سيكون لنا فيما بعد متّسع من الوقت للاهتمام بهذه الأشياء. وبسرور كبير عندما يحين الأوان سأساعد ابني على تجهيز درّاجته بأفضل أضواء. الأماميّ منها والخلفيّ وبأفضل جرس ومكابح يمكن أن تُزوّد بها درّاجة على الإطلاق.

بدا لي اليوم طويلاً. أشتاق إلى ابني. أكلتُ مرّات عديدة. انتهزتُ فرصة وجودي وحيداً دون شاهد غير الله كي أستمني. لا بُدَّ أنّ ابني خطرت له الفكرة نفسها فتوقّف يستمني هو أيضاً. أتمنّى له لذّة أكبر من لذّتي. قمتُ بعدّة أشواط حول المأوى آملاً أن ينفع ذلك ركبتي. أسير بخطى حثيثة دون ألم لكنّي أتعب بسرعة. بعد عشرات الخطوات إعياء كبير أصاب ركبتي. بالأحرى هو ألم. لقد أجبرني على التوقّف. تعاطيتُ المُرفين.

طرحتُ على نفسي أسئلة كثيرة، لِمَ لمْ أطلب من ابني أن يحضر لي ما أعالج به نفسي؟ لِمَ أخفيتُ عنه مرضي؟ هل كنتُ سعيداً بما يحدث لي إلى درجة لا أريد معها أن أتعافى؟ أسلمتُ نفسي طويلاً لجمال المكان من حولي، الحقول، السّماء، الطّيور. وأصغيتُ بانتباه شديد إلى الأصوات الآتية إليّ من قريب ومن بعيد. لحظةً أعتقد بأنّي أنصتُّ إلى الصّمت الذي كنتُ قد تطرّقت إليه. أظنّ، نعم. ممَدّداً في المأوى كنتُ أفكّر في المؤسّسة التي أُلحقتُ بها . حاولتُ من جديد أن أتذكّر ما الذي يتوجّب عليَّ صنعه بمولوي عندما ألتقيه. خرجتُ في نزهة حتّى وصلتُ إلى السّاقية. ممدّداً، حدّقتُ في صورتي المنعكسة على الماء قبل أن أغسل وجهي ويديَّ. انتظرتُ حتّى

يتكوّن وجهي من جديد على سطح الماء. كنتُ أراقبه يتموّج ويأخذ رويداً بالاقتراب من ملامحي. تسقط من حين إلى آخر قطرة ماء فتعكّر الصّورة وتجعلها ترتعش من جديد. لم أرَ أحداً طوال اليوم. لكن متأخّراً سمعتُ صوت خطوات تطوف بالمأوى. لم أتحرّك. ابتعدتُ خطوات. لكن بعد ذلك لدى خروجي لا أدري لأيّ هدف، رأيتُ رجلًا على مسافة أقدام منّي واقفاً بلا حركة. أشاح عنّي بظهره. يرتدي معطفاً ثقيلاً لا يُناسب الفصل الذي نحن فيه. يستند على عصاً غليظة جدّاً، أسفلها أكبر من أعلاها كبندقيّة قديمة. استدار والتقت نظراتنا في صمت. بالنّسبة إليَّ كنتُ أحدّق فيه على طريقتي كما أفعل دائماً لأحمل على الظنّ أنّي لستُ خائفاً. فيما كان هو يرمقني بنظرات خاطفة من حين إلى آخر، يرفع بصره ناحيتي ثمّ يخفضه ليس بدافع الحياء، بل كأنّه يفسح المجال لنفسه كي يُفكّر بهدوء فيما يرى قبل أن يضيف صوراً أخرى. لأنّ النّظرة كانت قويّة وباردة بشكل مهول. وجهه شاحب وجميل. خمّنتُ أنّه في الخامسة والخمسين. رفع قبّعته. ظلّ يمسك بها بعض الوقت ثمّ أعادها إلى رأسه. لم يكن ذلك شبيهاً بتحيّة. غير أنّي وجدتُ مناسباً أن أنحني. القبّعة كانت رائعة شكلاً ولوناً. لن أحاول وصفه لأنّه لا يشبه أيّ هيئة مألوفة لديَّ. شعره الذي لا يَخفى اتّساخُ بياضه، كان مُهملاً وأشعث. قبل أن يعيد وضع القبّعة، سمح لي الوقت بأن أرى شعره ينهض ببطء فوق جمجمته. وجهه قذر ومكسوّ بالشّعر، نعم كان وجهه شاحباً وجميلاً وقذراً ومكسوّاً بالشّعر. ندّت عنه حركة غريبة كدجاجة نفخت ريشها ثمّ بعد ذلك ضمرت مُتّخذة حجماً أصغر من حجمها. ظننتُ أنّه سيرحل دون أن يوجّه إليَّ كلمة واحدة. لكنّه فجأة طلب منّي قطعة خبز. أرسل طلبه المهين مع نظرات متلألئة. كانت لديه لهجة غريبة. لهجة شخص فقد عادة الكلام.

قلتُ بارتياح مُعوّلاً فقط على منظر ظهره، إنّه غريب. هل تريد علبة سردين؟ قلت. طلب منّي الخبز فاقترحتُ عليه السّمك. إنّه طبعي. خبز، قال. دخلتُ إلى المأوى وأخذتُ قطعة خبز أحتفظ بها لابني الذي لا بُدَّ أنّه سيعود جائعاً. قدمتها إليه. توقّعتُ أن يلتهمها فوراً قبل أن يبرح المكان.

لكنّه شطر القطعة نصفين، وضع كلّ واحد في جيب من جيوب معطفه. هل تسمح لي بإلقاء نظرة على العصا؟ قلت. مددتُ يدي. لم يتحرّك. وضعتُ يدي على العصا، فوق يده. أحسستُ بأصابعه ترتخي وتنسحب. أنا من يمسك بالعصا الآن. خفّة وزنها أذهلتني. أعدتها إليه في يده. ألقى عليَّ نظرة أخيرة قبل أن يرحل. كان الوقتُ ليلاً تقريباً. كان يمشي بسرعة غير واثق من خطواته، كان يغيّر الاتّجاهات في كلّ مرّة. تبعتُه بعينيَّ إلى أن أصبح نقطة في المدى. مكثتُ في الخارج مدّة لا بأس بها، كنتُ من حين إلى آخر أصيخ السّمع. لكن ابني لم يعد، ولأنّي بدأتُ أشعر بالبرد فقد دخلتُ إلى المأوى وتمدّدتُ وتدثّرتُ بمعطفه. بيد أنّي أحسستُ بالنّعاس بدأ يغلبني فخرجتُ ثانية وأشعلتُ نار حطب كبيرة لأرشد ابني إلى مكاني، ولمّا اتّقدت جيّداً قلتُ في نفسي، هيّا يمكنني أن أتدفّأ الآن! رحتُ أتدفّأ إذن وأنا أفرك يداً بيد بعد تقريبها من النّار وقبل أن أقرّبها ثانية موليا إليها ظهري. أرفع ياقة معطفي وأقلّب يديّ كما لو أنّي أشويها. أخيراً لمّا لم أعد أطيق الحرارة والتّعب، تمدّدتُ على الأرض بالقرب من النّار ونمتُ وأنا أقول، ربّما أصابت ملابسي شرارة فلا أستفيق إلّا وقد تحوّلتُ إلى شعلة حيّة. كنتُ أقول أيضاً أشياء أخرى مختلفة تنتمي إلى سلاسل متباينة لا صلة بينها في الظّاهر، لكن عندما استيقظت كان قد جاء الصّباح، والنّار انطفأت. كان الجمر ساخناً بعدُ وركبتي ليست أفضل حالاً، لكنّها ليست أسوأ على أيّ حال. أعني ربّما تعكّرت قليلاً دون أن أشعر. ربّما بسبب الرحمة التي بدأت تكتسح طبعي شيئاً فشيئاً. لكنّي لا أظنّ. لأنّي وأنا أصغي إلى ركبتي ثمّ وأنا أخضعها إلى الاختبار ارتبتُ من هذه العادة وحاولتُ التّشكيك فيها. لم أكن أقبل دخول أحد على أحاسيسي إلّا واحداً فقط سريّاً يقول، لا شيء تغيّر «موران» ، لا شيء تغيّر. قد يبدو هذا مستحيلاً. رحتُ إلى الأجمة كي أصقل لنفسي عصا. وحين وجدتُ غصناً يستجيب لرغبتي تذكّرتُ أنّي لا أحمل سكّيناً. عدتُ إلى المأوى آملاً أن أعثر على سكّين بين الأغراض التي نشرها ابني على الأرض وزهد في جمعها. لم أجده، لكنّ عينيَّ وقعتا على المطريّة. فقلتُ، لن أقصّ عصا وأنا أملك مطريّة. ورحتُ أتمرّن على المشي معتمداً على

المطريّة، وإن كنتُ بهذه الطّريقة لا أتقدّم بشكل أسرع أو أقلّ ألماً، إلّا أنّي لا أتعب بسرعة على الأقلّ. وبدل التوقّف كلّ عشر خطوات فإنّي أنجز خمس عشرة بيسر قبل أن أضطرّ قسراً إلى التوقّف. فقد لاحظت أنّي عندما أستند إلى المطريّة فإنّ ثقل ساقي النّاجم بلا شكّ عن خلل في الدّورة الدمويّة يتبدّد بصورة أسرع ممّا لو اعتمدتُ على عضلاتي وحدها أو بفضل شجرة الحياة. مجهّزاً على هذا النّحو، لم أعد أكتفي أبداً بالطّواف حول المأوى بل رحتُ أتمشّى في كلّ الاتّجاهات. بل لقد بلغت ربوة أشرف منها على امتداد كبير حيث يمكن لابني أن يظهر في أيّ لحظة. أراه من حين إلى آخر في مخيّلتي مائلاً على المقود أو منتصباً فوق الدوّاستين، يقترب رويداً وأسمعه يلهث وقد ارتسمت فرحة العودة على وجهه الطفوليّ. كنتُ في الآن نفسه أحرس المأوى الذي صار يجذبني بصورة غريبة إلى درجة أنّ الانتقال من زاوية إلى أخرى بعيدة، الأمر الذي يناسبني، بات أمراً مستحيلاً في نظري. إنّما كان علَيَّ دائماً كلّما خرجتُ العودة في الاتّجاه المعاكس نحو المأوى لأتأكّد من أنّ كل شيء في مكانه قبل أن أتّخذ سبيلاً آخر. ولقد قضيتُ جلّ الوقت من اليوم الثاني في هذا الذّهاب والإيّاب العابث والمراقبة والتصوّر لكن أبداً كامل النّهار. لأنّي كنتُ بين الفينة والأخرى أتمدّد في المأوى الذي أصبح بيتي الصّغير لأفكّر بهدوء في بعض الأشياء، من بينها مؤونتي من الغذاء التي بدأت تنفد، حتّى إنّي عند الخامسة وبعدما أكون قد ازدردتُ طبقي لن يعود لديَّ سوى عُلبَتَيْ سردين وحفنة بسكويت وتفاحات معدودة. لكنّي أحاول أيضاً تذكّر ما الذي يتوجّب علَيَّ فعلُه بمولوي حالما أعثر عليه. فكّرتُ أيضاً في نفسي، في ما تغيّر خلال الفترة القصيرة الماضية. وبدا لي أنّي أهرم بسرعة جنونيّة. لكن فكرة الشّيخوخة ليست هي تحديداً ما يلوح لي. في المقابل ما لاحظته حقّاً هو نوع من التّقطيع، الانهيار السّاحق لكلّ ما اعتاد حمايتي، لكلّ ما تورّطتُ في أن أكونه. أو أنّي كنتُ شاهداً على نوع من الحفر العميق المتسارع نحو لا أعرف أيّ وجه معروف ونكرة في آنٍ. كيف أصف هذا الشّعور الثّقيل الغامض المتحجّر الزاعق الذي بدأ يسيل. ورأيتُ إذن كرة تُرمى في أعماقي عبر مياه لطيفة. مُتّحدة في البداية ولا تكاد تظهر

وسط الاضطراب الذي يحملها. ثمّ تدريجيّاً يتّضح الوجه. العينان والفم والملامح الأخرى دون أن نتمكّن من معرفة ما إذا كان وجه رجل أو امرأة أو شابّاً أو شيخاً أو ما إذا كان هدوؤه نتيجة الماء الذي يفصله عن النّهار. لكن تجدر الإشارة إلى أنّي لا أعير اهتماماً ماجناً إلى هذه الاستعارات حيث الإحساس بالتحلّل يبحث له عن حيّز في داخلي. وكوني لا أشتغل عليه أكثر فهذا يدلّ بقوّة على التغيّر الذي طرأ علَيَّ وكم أصبحتُ غير مبالٍ بسيطرته علَيَّ. كنتُ بلا شكّ سأحقّق الاكتشاف تلو الآخر في شأني الخاص لو أصررتُ على ذلك. لكن كان يكفي أن أشرع في توضيح الأمور، أعني في قلب هذا الاضطراب الملغز الذي يجتاحني مُتوسّلاً استعارة أو قراراً كفيلاً بقذفي نحو هموم أخرى. لاحقاً سيكون علَيَّ البدء من الصّفر. وحتّى مع هذا الاختيار سيشقّ علَيَّ التعرّف على نفسي، لأنّه ليس من الطبيعيّ، أقصد ليس من عاداتي، أن أقوم بحساباتي التي في الواجهة. بل أفضّل الواحد منها على البقيّة من ثمّ أدفع به إلى أقصى ما يحتمل. وهكذا الواحد تلو الآخر. حتّى المؤشّرات التي تنقصني في موضوع مولوي، فإنّي أصرف عنها النّظر لصالح مجاهل أخرى حالما أشعر بأنّها غاصت في أعماق ذاكرتي، أنا الذي كنتُ حتّى عهد قريب قادراً على حساب الوقت الذي لن تنفد قبله مؤونتي المتبقّية. وأنا أطرح على نفسي مسألة الفيتامينات والكالوريّات وأجري في رأسي جدولاً قريباً من العدم الغذائيّ، اكتفيتُ في ذلك اليوم بخمول تامّ بالتوصّل إلى أنّي سأموت جوعاً لو لم أجدّد مدّخراتي. هكذا مرّ النصف الثاني من اليوم. لكن بقيت هناك حادثة من واجبي التنويه إليها قبل المرور إلى اليوم الموالي.

كنت بالكاد قد انتهيتُ من إشعال النّار ومراقبتها تشتدّ حين سمعتُ صوتاً يناديني. كان الصّوتُ قريباً جدّاً إلى درجة أنّي اهتززت. كان صوت رجل، ثمّ سرعان ما عدتُ بعد اهتزازي إلى الانشغال بالنّار ثانية كأنّ شيئاً لم يكن. رحتُ أقلّبها بواسطة غصن كنتُ قد قطعته للغرض ونزعتُ عنه الأوراق والسيقان وجزءاً من اللّحاء بأظفاري المجرّدة. أجد متعة كبيرة في

سلخ الأغصان وتعرية الشّاهدة النّاعمة، لكنّ شعوراً بالحبّ والشّفقة يغمرني تجاه الشّجرة غالباً. أحبّ الأشجار إلى قلبي هي شجرة التّين الأحمر[42] التي لا تموت قبل سن الخمسة آلاف سنة بسبب صاعقة. إنّها مثال عن التّعمير. كان إذن غصناً كبيراً ممتلئاً بالصّمغ لا يشتعل إذا حرّكتُ به النّار. أمسكه من طرفه. الفرقعة التي أحدثتها النّار، لا بل الحطب الآخذ بالتقوّس، لأنّ النار تصدر صوتاً آخر. الفرقعة هي التي سمحت للرّجل بالاقتراب في غفلة منّي. إن كان هناك ما يثيرني فهو بالتّأكيد أخذي على حين غرّة. رغم حركة الهلع التي ندّت عنّي إلّا أنّها لم تلفت الانتباه وواصلتُ طعن النّار كما لو كنتُ وحدي. لكن بمجرّد ملامسة يده لكتفي اضطررتُ إلى القيام بما كان سيقوم به أيّ شخص مكاني، التفاتة غضب وخوف مؤدّاة بشكل جيّد. هأنذا وجهاً لوجه أمام رجل يتعذّر عليَّ تمييز بنيته الجسديّة وملامح وجهه بسبب الظّلام. تحيّة أيّها الصّديق، قال. تدريجيّاً كوّنتُ فكرة عن أيّ صنف من النّاس أمامي. والحقّ أنّ هناك انسجاماً وتناسقاً كبيرين في أجزائه. ويجوز القول إنّ له جِسْمَ وجهه والعكس صحيح. ولو أمكنني أن أرى دبره فدون شكّ سأجده غير أهل لما تبقّى. لم أتوقّع أن أصادف أحداً في هذه البلاد، قال، إنّها وريد. وأنا أبتعد عن النّار التي بدأت تضطرم والتي لم أعد أواجه نورها بل أضاءت الدّخيل، عندها أيقنت أنّي لم أكن مخطئاً، إنّه المزعج الذي صادفته. هلّا قلتَ لي، قال. أنا عند ضرورة وصفه باختصار وإن كان هذا يتعارض مع مبادئي. كان قصيراً ربعاً، يرتدي بذلة سميكة زرقاء بحريّة وسترة ثنائيّة الصّدر بقصّة فظيعة وزوج أحذية أسود عريضاً جدّاً، طرفه الخلفي أعلى من المقدّمة. يبدو أنّ هذا الشّكل القبيح هو الذي يحتكر موضة الأحذية السّوداء. أنت لا تعرف، قال. خصلات لِفاعِه الداكن الذي يبلغ من الطّول سبع أقدام على الأقلّ ويلتفّ حول رقبته لفّات عديدة ويتدلّى على ظهره. كان يحمل لبادة شتويّة زرقاء داكنة بحافّة قصيرة، في شريطها رُشق خطاف صنارة عُلّقت عليه ذبابة (ماي)

42- شجرة التين الأحمر: شجرة معمّرة تشبه الشمسيّة العملاقة وتعيش في أرخبيل جزر الكناري.

اصطناعيّة ، ما يجعله أبعد ما يكون عن شخص رياضيّ. هل تسمعني؟ قال. لكن هذا لا شيء مقارنة بوجهه الذي كان - بأسف أقول هذا - يشبه وجهي، الشاربان التافهان نفساهما، عينا النمس نفساهما، ثُقبا الأنف نفساهما، والشفتان الرقيقتان الحمراوان كأنّهما محتقنتان لكثرة ما حاول أن يخرأ لسانه. إذن، قال. استدرتُ إلى ناري. كانت متماسكة، ألقيتُ عليها الحطب. أكلّمك منذ خمس دقائق، قال. سرتُ نحو المأوى فسدَّ الطّريق أمامي. لاحظ أنّي أعرج فتجاسر. أنصحك بالردّ فوراً، قال. لا أعرفك، قلت. وضحكتُ حقيقة. هل يرغب السيّد في إلقاء نظرة على خريطتي؟ قال. لن تنفعني في شيء، قلت. اقترب منّي أكثر. تنحَّ! قلت. هو الذي ضحك هذه المرّة. ترفض إجابتي؟ قال. بذلتُ مجهوداً جبّاراً. ماذا تريد أن تعرف؟ قلت. لا بُدَّ أنّه اعتقد بأنّ عاطفتي قد لانت. أُفضّل ذلك، قال. استنجدتُ بطيف ابني الذي قد يعود في أيّ لحظة. أخبرتك بذلك من قبل، قال. ارتعشت. هل لك أن تعيد، قلت. لنختصر. سألني إن كنت رأيتُ شيخاً يتوكّأ على عصا. وصفه بشكل رديء. صوته بدا لي قادماً من بعيد. لا، قلت. كيف لا؟ قال. لم أرَ أحداً، قلت. مع أنّه مرّ من هنا، قال. لزمتُ الصمت. منذ متى وأنت هنا؟ قال. جسمه أصبح باهتاً كأنّه ينقسم. ماذا تفعل هنا؟ قال. أنت حارس في هذه المنطقة؟ قلت. مدّ يداً صوبي. أظنّ أنّي طلبت منه أن يرحل عن هذا المكان. أذكر اليد، مُبيضّة، تُفتح وتُغلق. كأنّها تنقبض وحدها. لا أدري ما الذي يحصل، لكن لاحقاً بعد فترة ليست قصيرة وجدتُه ملقى على الأرض برأس مفروم. آسف لأنّي لا أستطيع على وجه الدقّة شرح الظروف التي حفّت بذلك وأدّت إلى نتيجة مماثلة. كم كان ذلك سيشكّل فقرة رائعة. لكنّي لم أبلغ ما بلغته في روايتي كي أنخرط في الأدب. شخصياً لم يكن لديَّ شيء، بلى، بعض الخدوش التي لن أكتشفها إلّا في الغد. مِلتُ عليه، وأنا أفعل أدركتُ أنّ ركبي تتثني من جديد. لم يعد يشبهني، أمسكتُ به من كاحله ورحتُ أجرّه إلى المأوى مشياً إلى الخلف. حذاؤه يأتلق بطبقة سميكة من المُلمّع الدّهني. كانت على جوربيه رسوم مُشفّرة. بنطلونه المرفوع يُغطّي لحمه الأبيض وشعر الفخذ. كاحله كان نحيفاً وناتئ العظم مثلي تماماً. كان في وسع أصابعي أن تحيط

به. كان يحمل حمالتي جوارب إحداهما انكسرت وتدلّت. هذا التفصيل أثار شفقتي. حاذيتُ النار ثانية. وتصلّبت ركبتي مرّة أخرى. لم تعد بي حاجة إلى المرونة. عدتُ إلى المأوى وأخذتُ معطف ابني. ثمّ عدتُ إلى النار وتمددت متدثّراً بالمعطف. لم أنم أبداً. بيد أنّي غفوتُ قليلاً. كنتُ أسمع بومة. لا لم تكن بومة لأنّ الصّوت كان أقرب إلى صياح كصفير القطار. أسمع بلبلاً وخشخشة بعيدة. لو علمتُ أنّ هناك طيوراً أخرى تشدو في اللّيل لكنتُ سمعتها. أرى النار تحتضر. وجهي بين كفّيّ أنتظر قدوم الفجر، بالكاد جاء نهضتُ ودخلتُ المأوى. هو أيضاً لديه ركبتان متصلّبتان قليلاً. أمّا مفاصله القطنيّة فما زالت قادرة على اللّعب لحسن الحظّ. جرجرته إلى الدّغل. كنتُ بين الحين والحين أتوقّف للرّاحة، لكن دون أن أفلت الساقين كي لا أضطر لأنحني للإمساك بهما مرّة أخرى. ثمّ هدمت المأوى وغطيتُ الجسم بالأغصان التي كنتُ التقطتها. جهزت كلتا الحقيبتين وأخذت المعطف والمطريّة. كنتُ أرفع المخيّم بعبارة أخرى. لكن بدل أن أرحل حظيت ببعض الوقت لأتثبّت من أنّي لم أنسَ شيئاً. غيرَ مُعوِّلٍ على عقلي وحده، لأنّي فتّشت جيوبي وألقيتُ نظرة حولي. وأنا أفتّش جيوبي انتبهتُ إلى غياب مفاتيحي. غياباً لم يكن عقلي المجرّد ليخبرني به. انتهى بي الأمر بإيجادها ملقاة على الأرض. كانت الحلقة مكسورة. في الواقع وجدتُ السلسلة ثمّ المفاتيح ثمّ الحلقة مكسورة. وبما أنّي لم أكن قادراً حتّى بواسطة المطريّة على الانحناء لالتقاط مفتاح في كلّ مرّة فقد وضعتُ المعطف والمطريّة والحقائب على الأرض وتمددت على بطني وسط المفاتيح. على هذا النحو كان من السّهل علَيَّ جمعها. المفتاح الذي لم يكن في متناول يدي، أزحف نحوه وأنا أسحب نفسي معتمداً على العشب. كنتُ أمسح كلّ مفتاح ألتقطه قبل أن أضعه في جيبي كان ذلك ضروريّاً أم لا. ومن حين إلى آخر كنتُ أنتصب قليلاً على يديّ لأشرف على المشهد بصورة أفضل. بعض المفاتيح انتبهتُ إلى وجودها بتلك الطريقة، كنتُ أتدحرج كأسطوانة لألتقطها. لمّا لم أعد أجد المزيد منها قلتُ لنفسي، لا فائدة من عدّها فأنا لا أعرف كم كانت. ورحتُ أبحث بعينيَّ. لكن أخيراً قلت، لا بأس سأكتفي بالمفاتيح التي

جمعتها. وأنا أفتش المكان بحثاً عن المفاتيح عثرتُ على أذن، سرعان ما رميتُ بها في الدّغل. الأمر الأغرب هو أنّي وقعتُ على غطاء رأسي الذي ظننتُ أنّي أحمله! أحد الثقوب الذي يمرّ من خلاله المطاط اتّسع إلى أن بلغ حافّة الحافّة إن جاز التعبير. فلم يعد ثقباً بل فتحة. أمّا الثقب الآخر فلم يستسلم إذ ما زال طرف المطاط الآخر في مكانه. في النهاية، قلت، علَيَّ الآن أن أنهض وبنظرة فاحصة سأتفقّد المكان للمرة الأخيرة. هذا ما قمتُ به فعلاً، عندها وقعتُ على الحلقة. النّصف أوّلاً ثمّ النّصف الآخر. لمّا لم أجد شيئاً يخصني أو يخص ابني حملت الحقائب، ثبّتُّ قبّعة القشّ جيّداً فوق جمجمتي، طويتُ معطف ابني على ذراعي، أخذتُ المطريّة ورحلت. غير أنّي لم أبتعد فسرعان ما توقّفت في قمّة تلّة حيث تسهل المراقبة دون جهد يُذكر. لاح لي مكان التخييم والريف المجاور. وخطر لي أنّ الأرض في هذه المنطقة وحتّى غيوم السّماء قد اختارت موضعها على نحو يقود البصر بعذوبة إلى مكان التخييم كما لو أنّها لوحة محترف كبير. اتّخذتُ وضعية مريحة قدر الإمكان. تخلّصتُ من أحمالي وأكلتُ علبة سردين كاملة وتفاحة. تمدّدت على بطني مفترشاً معطف ابني. كنتُ تارة أستند إلى مرفقي في الأرض جاعلاً فكيَّ بين يديَّ، الأمر الذي يمنحني فرصة أفضل لأشرف على الأفق، وتارة أتوسّد يديَّ على الأرض مباشرة. خمس دقائق للأولى وخمس دقائق للثانية. دائماً ممدّداً على بطني. كان في وسعي استخدام الحقائب كوسادة لكنّي لم أفعل. لم يخطر لي ذلك. انقضى اليوم هادئاً دون مفاجآت، ولا واحدة. كلب قطع علَيَّ رتابة ذلك اليوم الثالث عندما حوّم حول بقايا النار أوّلاً ثمّ وهو يدخل الدغل. لكنّي لم أره يخرج منه. إمّا أنّي لم أنتبه أو أنّه قد خرج من الجهة الأخرى، أي إنّه في الحقيقة لم يفعل شيئاً سوى عبور الدّغل من الجانب إلى الجانب. انهمكتُ أصلح قبّعتي بإحداث ثقب محاذ للقديم بواسطة مفتاح علبة السردين، وأدخلتُ فيه المطاط مجدّداً. أصلحتُ الحلقة أيضاً بدمج النصفين، أحدهما داخل الآخر. أعدتُ إليها المفاتيح وربطتُ السلسلة الطويلة ثانية. وكي لا أشعر بثقل الوقت رحتُ أطرح على نفسي الأسئلة وأُرغمها على الإجابة. إليكم بعضها.

سؤال. ترى ما الذي أصبح عليه القلم المائي الأزرق؟

إجابة.

سؤال. الهِرم صاحب العصا، ألا يكون قد شكّ في شيء؟

إجابة. احتمال كبير.

سؤال. ماهي حظوظ براءته؟

مكتبة
t.me/t_pdf

إجابة. ضعيفة.

سؤال. هل علَيَّ إخبار ابني بما حدث؟

إجابة. لا، لأنّه عندها سيكون من واجبه أن يخبر عنّي.

سؤال. هل سيخبر عنّي؟

إجابة.

سؤال. بمَ أشعر؟

إجابة. كالعادة تقريباً.

سؤال. أَرَغْمَ أنّي تغيّرتُ وأتغيّر دائماً؟

إجابة. نعم.

سؤال. مع ذلك أحسّ بأنّي كالعادة؟

إجابة. نعم.

سؤال. كيف يمكن لذلك أن يحدث؟

إجابة.

تلك الأسئلة وأخرى كانت تفصل بينها فترات زمنيّة طويلة نسبيّاً ليس فقط أحدها على الآخر. لكن بينها وبين أجوبتها أيضاً. والأجوبة لم تكن دائماً تجري حسب ترتيب الأسئلة. بل وأنا أبحث عن إجابة أو أجوبة عن سؤال معيّن، أجد إجابة أو أجوبة عن سؤال طرحته على نفسي وعجزت عن الإجابة عنه. بمعنى أنّي لم أعرف إجابته. أو أجد سؤالاً أو أسئلة أخرى تطالبني بدورها بأجوبة فوريّة.

الآن لو نقلتُ اهتمامي للحظة الحاضرة يمكنني الجزم بأنّي كتبت هذه

الفقرة بيد واثقة وبضمير مطمئن كما لم أفعل منذ زمن طويل. لأنّي، عندما تصبح هذه الأسطر متاحة للقراءة ، أكون قد ابتعدتُ ولا أحد يفكّر باللحاق بي ولن يسمح بمعاقبتي لأجل خطأ ارتكبته أثناء أدائي لعملي. ابني لن يُؤخذ بذنبي، لكنّهم سيشكونه لأنّ له أباً مثلي وستتهافت عليه شركات التأمين والإرشاد المرموقة من كل جانب.

هكذا انقضى يومي الثالث، ومع حوالي الخامسة أكلتُ آخر علبة سردين في حوزتي وبعض البسكويت بشهية كبيرة، حتّى إنّي لم أعد أملك سوى حبّات تفّاح والقليل من البسكويت. مع حوالي السابعة لمّا أوشكت الشّمس على المغيب جاء ابني. كنتُ سأغفو إذ لم أرَ له أثراً في الأفق، ثمّ راح يكبر بمرور اللّحظات كما توقّعتُ تماماً. في البداية كان بيني وبين المخيّم متّجهاً نحو هذا الأخير لمّا انتبهتُ إليه. انتابني هيجان كبير ونهضتُ بحيويّة وأنا أصرخ وألوّح بالمطريّة. استدار وأشرتُ إليه بالاقتراب وأنا أحرّك المطريّة كأنّي أحاول تعليق شيء على مقبضها. لوهلة ظننتُ أنّه سيتحدّاني ويواصل طريقه نحو المخيّم، نحو مكان التخييم بالأحرى. إذ لم يعد هناك مخيّم. لكنّه اتّجه نحوي، كان يدفع درّاجة ولمّا وصل إليَّ أفلتها من يده بحركة توحي بأنّه لم يعد يحتمل. ارفعها كي أراها، قلت. في الواقع لا بُدَّ أنّها درّاجة جيّدة. أصفها بكلّ سرور. بكلّ سرور يمكنني أن أكتب في شأنها أربعة آلاف كلمة. هذه هي دراجتك؟ قلت. وبما أنّي أملك فقط نصف يقين بأنّه سيحميني فقد استغرقت أقلبها. كان في صمته لا أدري أيّ شيء عادي جعلني أرفع بصري ناحيته. عيناي تخترقانه. ماذا حلّ بك؟ قلت. سحّاب بنطلوني مفتوح؟ أفلت الدرّاجة ثانية. ارفعها، قلت. رفعها. ماذا فعلتَ بنفسك؟ قال. لقد سقطتُ، قلت. سقطت؟ قال. نعم سقطتُ، صرخت، ألم تسقط يوماً؟ حاولت استحضار النبتة التي تولد من قذف المشنوقين والتي تبكي لو حاول أحدهم قطفها. كم دفعتَ فيها؟ قلت. أربعة جنيهات، قال. أربعة جنيهات، صرخت. حتّى لو قال لي جنيهين أو ثلاثين شلن لكانت لديَّ ردّة الفعل نفسها. طُلب منّي أربعة جنيهات وخمسة شلن، قال. هل لديك

الوصل؟ قلت. لم يكن يعرف ماذا يعني الوصل، بيد أنّي أظنّه يعرفه مثلي تماماً. لأنّي لو طلبتُ منه أن يشرح لي ما معنى وصل لتفانى في الإجابة. في أعماقي كان سيّان بالنسبة إليّ أن يكونوا قد باعوه الدرّاجة بأضعاف ثمنها أو أن يكون قد استولى على قسم كبير من المال المخصّص للصفقة. لستُ ممن يطمعون في جيوبهم. هات العشرة شلن ، قلت. أنفقتها، قال. كفى. كفى. راح يُفسّر لي أنّ المحلّات كانت مغلقة خلال اليوم الأوّل وأنّه في اليوم الثاني ـــــــــ كفى. كفى، قلت له. تأمّلتُ حقيبة الأمتعة. كانت أفضل ما في الدرّاجة. إضافة إلى منفاخ. يعمل على الأقلّ؟ قلت. نال منّي الإعياء على بعد ميلين من «هول»، قال. وواصلتُ بقيّة الطريق مشياً. نظرت إلى حذائه. انفخ هذه، قلت. أمسكت بالدرّاجة. لا أدري تحديداً أيّ عجلة يجب نفخها. ما إن يظهر لي شيئان متشابهان أضيع تماماً. غشّني. ضاع الهواء بين الأنبوب والصمام الذي تعمد عدم إحكامه جيّداً. أمسك الدراجة وهات المنفاخ، قلت. سرعان ما تصلّب إطار العجلة. رمقت ابني بنظرة. احتجّ. أخرسته. بعد دقائق جسستُ الإطار. لم يفقد من صلابته شيئاً. أنت بائس، قلت. قدّم لي من جيبه علبة شكلاطة. أخذتها من يده. لكن بدل أن آكلها مع اشتهائي لها ورغم أنّي أكره التبذير، فقد رميتها بعيداً بعد تردّد وجيز. لكن لحظة التردّد تلك، تمنّيت لو أنّ ابني لم يتفطّن إليها. كفى. نزلنا إلى الطريق. كان بالأحرى مسلكاً ضيقاً. حاولتُ الجلوس على حقيبة الأمتعة. قدم ساقي القاسية ترغب في أن تُدفن في قبر تحت الأرض. افترشتُ حقيبة الظهر. أمسكها جيّداً، قلت. لم تكن كافية فأضفت الجراب. نتوءاته تخزني في مؤخرتي، كلّما قاومتُ الأشياء ثابرتْ. مع مرور الوقت فقط بأسناني وأظفاري سأخرج من أحشاء الأرض حتّى أصل إلى قشرتها رغم علمي بأنّي لن أستفيد شيئاً. وعندما أفقد كلّ أظفاري وأسناني سأستمرّ في الخربشة بعظامي. في كلمات هذا هو الحلّ الذي خلصتُ إليه. الجراب أوّلاً ثمّ حقيبة الظهر ثمّ معطف ابني المطويّ على أربع، الكلّ مربوط بعناية بطرف الخيط المتدلّي من ابني حتّى حقيبة الأمتعة وحتّى دعامة المقعد. المطريّة علّقتها على عنقي، لأحرّر كلتا يديَّ اللتين سأمسك بهما ابني من

خصره، لا تحت إبطه لأنّي أخيراً صرتُ معلّقاً أعلى منه. هيّا دوّس! قلت. قام بمجهود يائس. كم وددتُ أن أصدّقه. سقطنا. أحسستُ بألم حادّ في قصبتي. اشتبكتُ كليّاً بالعجلة الخلفيّة. ساعدني! صرخت. ساعدني ابني على النهوض. تمزّق جوربي ونزف فخذي. لحسن الحظّ كانت السّاق المريضة. ماذا كنتُ سأفعل لو تعطبت كلتا ساقيَّ؟ كنتُ حتماً سأتصرّف. بل ربّما تحوّلت الضارة إلى نافعة. فكّرت بالطبع في الفصد. هل أُصبتَ؟ قلت. لا، قال. هذا بديهي. وجهتُ له ضربة عنيفة بالمطرية على عرقوبه. حيث التمع لحمه العاري بين الكيلوت والسروال الداخلي. صاح. تريد أن تقتلنا؟ قلت. لم تكن لي القوة، قال، لم تكن لي القوّة. لم يطرأ شيء على الدرّاجة، ربّما كانت العجلة الخلفيّة قد دُهست قليلاً. فوراً أدركتُ خطئي. لم يكن. لم يكن صائباً أن أجلس رافعاً ساقي قبل أن تنطلق الدرّاجة. فكّرت. سنحاول ثانية، قلت. لا أقدر، قال. لا تدفع بأعصابي إلى الذروة، قلت. تخطّى الإطار بساقيه. ننطلق بهدوء حالما أعطيك الإشارة، قلت. اتّخذت مكاني في الخلف. جلستُ، ساقاي لا تلامسان الأرض. هكذا يجب. انتظر الإشارة، قلت. تزحزحتُ ناحية اليمين إلى أن أحسستُ بقدم ساقي السليمة تلامس الأرض. لا أثقل على عجلة الدفع سوى بساقي المريضة التي أمكنني بعناء رفعها وإفراجها قليلاً. ضغطتُ بإصبعي على سترة ابني. تقدّم بلطف، قلت. دارت العجلات. أراقب الوضع نصف منساق، نصف قافز. خفتُ كثيراً على خصيتيَّ المتدلّيتين. أسرَعَ! صرخت. ضغط على الدوّاسة بقوّة. في إحدى الوثبات استويتُ جالساً باستقامة واتّزان في مكاني. ترنّحت الدرّاجة واستعادت توازنها. ازدادت سرعتها. أحسنت! صرخت بسعادة جنونيّة. مرحى! صرخ ابني. كم أكره هذا النوع من التعجّب. كدتُ أن لا أكتبها. كان مسروراً مثلي، أظنّ. أحسّ نبض قلبه تحت راحة يدي رغم أنّها كانت بعيدة عن قلبه. لحسن الحظّ انحدر المسلك. ولحسن الحظّ كنتُ قد أصلحتُ قبّعتي وإلّا حملتها الرّيح. ولحسن الحظّ أنّ الطقس كان جميلاً، وأنّي لستُ وحدي، لحسن الحظّ، لحسن الحظّ. وهكذا وصلنا إلى «باليبا». لن أُعرّج على العراقيل التي اعترضت سبيلنا والتي كان علينا تخطّيها،

والأشرار الذين احتلنا عليهم وزوغان الابن أثناء القيادة وانهيار الأب. كانت لديَّ النيّة والرغبة في رواية كلّ هذا. أنتشي لمجرّد أنّي سأكون قادراً على القيام بذلك في وقت لاحق. لم تعد لديَّ نيّة القيام بذلك في الوقت الحالي، وإن كان الأوان قد حضر فإنّ الرغبة قد غادرتني. ركبتاي ليست على ما يرام. اندمل جرح قصبتي. لم أكن لأصل وحدي أبداً، أنا مدين لابني. ماذا؟ كوني وصلتُ. كان يشكو من مشاكل صحيّة في بطنه وأسنانه. كنتُ أعطيه المرفين. سحنته تبدّلت نحو الأسوأ. عندما أسأله ما الذي يحدث له فإنّه غالباً لا يجد بِما يردّ. كانت الدرّاجة تتسبّب لنا في الإزعاج. لم يكن الوضع محتملاً. لقد سئمت. لم أكن لأصل لولا ابني. دامت الرحلة وقتاً طويلاً. أسابيع. لكثرة ما أوغلنا في طرقات خاطئة وبسبب تباطئنا. لم نكن على عجلة من أمرنا. ما زلتُ لا أعلم ما الذي يتوجّب عليَّ فعله بمولوي لو صادفتُه. لم أعد أفكّر في الموضوع. صرتُ أفكّر في نفسي كثيراً وأنا راكب خلف ابني رأسي أعلى من رأسه، أفكّر في التخييم أيضاً، في مشاغله وأثناء غيابه. فقد كان يتغيّب من حين إلى آخر كي يسترشد أو يشتري لنا مؤونتنا. خلاصة القول لم أكن أفعل شيئاً. يجب أن أعترف بأنّه يعتني بي جيّداً. كان صفيقاً، أحمقَ، بطيئاً، قذراً، كذّاباً، مُبذّراً، خبيثاً، قاسياً قليلاً لكنّه لا يتخلّى عنّي أبداً. أفكّر في نفسي كثيراً.

كنتُ فقط ألقي النظرات من حين إلى آخر. أُغمض عينيَّ، أنسى وأستأنف. قضينا وقتاً طويلاً في الرحلة قبل الوصول إلى «باليبا»، ووصلنا دون أن نشعر بذلك. توقّف! أمرتُ ابني ذات يوم. كنتُ قد لمحتُ راعياً أعجبتني هيئته. كان جالساً على الأرض يداعب كلبه. حولهما كانت تهيم غير خائفة خراف سوداء قليلة الصّوف. إلهي أيّ بلاد رعويّة هذه!

تركت ابني على حافّة الطريق والتحقت بهم عبر المرج. كنت أرتاح بين الفينة والفينة متكئاً على المطرية. لم يتحرك الراعي لدى مجيئي. الكلب أيضاً لم ينبح. الخراف أيضاً. شيئاً فشيئاً عندما صرت على بعد خطوات التفتوا إليَّ الواحد تلو الآخر. تراجعٌ قليلٌ إلى الوراء وضربات خفيفة على

الأرض هي الأشياء الوحيدة التي وشت بارتباك ضئيل بالنسبة إلى خراف لم تكن حذرة. ابني طبعاً كان يراقبني أبتعد، أحسست بنظراته على ظهري. كان الصمت رهيباً. أعني عميقاً. ومع دمج اعتبارات لغويّة كثيرة يمكن القول بأنّها كانت آونة رسميّة.

الطّقس كان عذباً، إنّه المساء. كنتُ كلّما توقّفت. جُلتُ ببصري في المكان، الراعي، الكلب، الخراف وحتّى السّماء. وأنا أمشي لم أكن معنيّاً سوى بالأرض وبلعبة ساقَيَّ، السليمة وهي تتقدّم إلى الأمام، تنثني، ترتكز على الأرض، تنتظر لحاق الأخرى بها. أخيراً توقّفت على بعد عشر خطوات من الرّاعي. لم يكن هناك داع للاقتراب أكثر. كم كان رائعاً أن أستلقي فوقه. كلبه يحبّه، أمّا الخراف فهي لا تخافه، لاحقاً عندما يشعر بالرطوبة سينهض. كان المرعى بعيداً، بعيداً. من بعيد كان يلمح ضوء بيته. أنا الآن أقف وسط الخرفان، تحلّقت حولي، وصوّبت أنظارها نحوي. ربّما كنتُ في ظنّها الجزّار الذي سيختار من بينها عمّا قريب. رفعتُ قبّعتي، بعينيه تبع الكلب حركة يدي. نظرت حولي دون أن أنبس بكلمة. لم أكن قادراً. لم تكن لديَّ فكرة عن الطريقة التي سأكسر بها الصمت. كدتُ أعود أدراجي دون سؤال. أخيراً نطقتُ، «باليبا» بنبرة أتمنّى أن تكون استفهاماً. انتزع الغليون من فمه وبأنبوبه أشار إلى الأرض. كانت لديَّ رغبة جامحة في أن أقول له خذني معك وسأصبح خادمك المخلص مقابل الكوخ والأكل فقط. فهمتُ قصده لكن بدا علَيَّ العكس فأعاد الحركة موجّهاً أنبوب الغليون إلى الأرض مرّات عديدة. «بالي»، قلت. رفع يده، تردّدت اليد لحظة كأنّها فوق خريطة، ثمّ تسمّرت. دخان الغليون لوّن الهواء بالأزرق ثمّ تلاشى. نظرت إلى الاتجاه الذي أشار إليه. الكلبُ أيضاً. استدرنا ثلاثتنا ناحية الشمال. قلّ اهتمام الخراف بي. ربّما فهمت. أسمعها تستأنف الاجترار والمشي. لمحت في الأفق عند نهاية السهل توهّجاً مشوّشاً كأنّه ألف شعاع واضح وضبابيّ في آن بفعل المسافة. إنّها مجرة، يبدو ذلك كتصدّع في الخط المستقيم المظلم للأفق. أشكر المساء لأنّه يمنحنا الفرصة لنرى النجوم في السماء وأضواء

الأشياء الجسورة على الأرض. خلال النهار ربما كان الراعي سيرفع غليونه عبثاً صوب الصواري الواضحة بين السّماء والأرض. لكنّي أشعر بهما الآن، الرّجل والكلب وهما يستديران نحوي. كان الرّجل يسحب أنفاساً من غليونه آملاً أن لا ينطفئ. لم أعرف غيري تأمّل هذا الألق البعيد الذي يومض، يتأجّج، يتأجّج ثمّ فجأة ينطفئ. يزعجني أن أكون وحدي مع ابني ربّما، لا، وحيداً في اندهاشي أيضاً. وتساءلتُ كيف يمكنني أن أنسحب دون شعور بالتقزّز، دون شعور بالشفقة. فجأة شيء ما كزفرة ارتياح كبيرة حفّت بي وطمأنتني بأنّي لستُ من عليه أن يرحل بل القطيع. رأيته يبتعد على رأسه الرّجل. الخراف متراصة ملتصقة بعضها ببعض. الرؤوس منكسة، تتزاحم، تتدافع من حين إلى آخر مهرولة، مقتلعة من الأرض آخر لقيمات في ذلك اليوم، وأخيراً الكلب الذي راح يتمايل مُحرّكاً ذيله الأسود الريشيَّ كنوّاس، رغم أنّ أحداً لم يكن يلحظ رضاه، إن كان ذلك رضا. وهكذا راحت العشيرة تتقدّم بنظام صارم دون أن يكون على المعلّم الصراخ أو على الكلب التدخّل. في اتّجاه الزريبة أو المحميّة بلا شكّ. هناك سيحيد الراعي قليلاً ليفسح المجال لدوابه وليُرضي ضميره ويُسعدها أثناء مرورها أمامه. ثمّ يذهب إلى البيت. باب المطبخ مفتوح، المصباح يضيء، يدخل ويتّخذ مكاناً إلى الطّاولة دون أن ينزع قبّعته. لكنّ الكلب سيقف حتماً عند العتبة غير واثق مما لو كان سيسمح له بالدخول أو أنّ عليه قضاء الليلة في الخارج.

ليلتها حدثت لي مع ابني واقعة عنيفة. لا أدري حول ماذا. انتظروا فالأمر مهمّ. لا، لا أدري، فكثيرة هي الوقائع التي عشتها مع ابني. حينئذٍ لا بُدَّ أنّه بدا لي مشهداً كغيره. هذا كلّ ما أعرفه. لعلّي تطرّقت فيه إلى تقنية مجرّبة، أن أثبت له بحرفيّة حجم أخطائه. لكن في اليوم الموالي اكتشفت بأنّي لم أكن على صواب. لأنّي عندما استيقظت باكراً وجدت نفسي وحيداً في المأوى، أنا الذي لا أحد يسبقني. بل وحيداً مدّة طويلة. حدسي أخبرني بذلك. مضى وقت طويل لم تمتزج فيه أنفاسي مع أنفاس ابني في المأوى الضيّق الذي شيّده تحت إشرافي. لا بُدَّ أنّه غادر مع أوّل خيوط الفجر. ركب الدرّاجة

ورحل ليلاً. في حدّ ذاته لا يشكّل هذا مأزقاً يبعث على القلق. كنت سألتمس له الكثير من الأعذار وأعثر على تفاسير عديدة لما قام به فقط لو وقفت الأمور عند هذا الحدّ. للأسف أخذ معه حقيبة الظّهر والمعطف. ولم يبقَ في المأوى وخارجه غرض يخصّه. لا شيء على الإطلاق. ليس هذا فقط بل لقد أخذ معه مبلغاً محترماً من المال، هو الذي لا يحقّ له أن يحمل معه أكثر من بضع بنسات من وقت إلى آخر ليضعها في حصّالته الإيطاليّة. فمنذ أصبح يهتمّ بكلّ شيء تحت إدارتي طبعاً، وخصوصاً الشّراءات، صرت أثق فيه إلى حدّ ما. وكان يُبقي لنفسه مبلغاً أكثر بقليل أو مساوٍ بدقّة لما يحتاج إليه، ولتبدو الأشياء أكثر واقعيّة أضيف التالي.

1. أرغب في أن أعلّمه مسك الحسابات من طرفيها، كنت قد لقّنته مبادئها الأساسيّة.
2. أشعر بأنّي فقدت شجاعة الاهتمام بالتعاسة التي كانت قديماً تصنع بهجتي.
3. قلتُ له بأن ينتبه جيّداً خلال الجولات القادمة لأجل درّاجة ثانية خفيفة يكون ثمنها مناسباً. لأنّي اكتفيتُ من حقيبة الأمتعة، وأرى اليوم الذي لن يتمكّن فيه ابني من إيجاد القوّة ليدوّس ونحن فوقها.

كنتُ أظنّ أنّي قادر، ماذا أقول، كنت أظنّ أنّي قادر مع قليل من التمرين على أن أجيد التدويس بقدم واحدة. وهكذا أحتلّ مرّة أخرى مكانتي التي تليق بي، القيادة. عندها سيتبعني ابني. على هذا النحو لن تحدث تلك الفضيحة تحت تعليماتي وأنا أطلب منه الانعطاف يساراً فيتّخذ اليمين أو الانعطاف يميناً فيتّخذ اليسار أو إلى الأمام حين أطلب منه الانحراف يميناً أو يساراً، خصوصاً أنّ الظاهرة تكرّرت كثيراً خلال الفترة القصيرة الماضية.

هذا كلّ ما أردت أن أضيفه.

لكن وأنا أفتش في حافظة أوراقي، لم أجد سوى خمسة عشر شلن، هذا يعني أنّ ابني لم يكتفِ بالمبلغ الذي بقي في حوزته بل أكثر من ذلك فقد نهب جيوبي أثناء نومي قبل أن يرحل، ردّة فعلي الأولى جاءت غريبة فقد

اعترفت له روحي بالجميل لأنّه ترك هذا المبلغ الصّغير الكافي لأتدبّر أمري إلى حين قدوم النجدة، بل إنّ فيها نوعاً من العطف.

وجدت نفسي إذن وحيداً مع الجراب والمطريّة التي كان في إمكانه أن يحملها معه وبخمسة عشر شلن أيضاً. ووعيت تماماً أنّ ابني أهملني بدم بارد عن قناعة وإضمار في «باليبا»، لو شئتم، إن كنتُ حقّاً فيها، لكنّي ما زلتُ بعيداً عن «بالي». وبقيت أيّاماً عديدة في المكان نفسه الذي أهملني فيه، أقتات على آخر مدّخراتي (لا شيء كان يمنعه من أخذها معه) لا ألتقي كائناً حيّاً واحداً. عاجزاً عن الحركة، أو ربّما جريئاً كفاية كي أفعل شيئاً. كنتُ متعقّلاً، واثقاً تماماً أنّ كلّ شيء سينتهي أو يرتدّ، لا يهمّ، ولا يهمّ بأيّ طريقة. ليس أمامي سوى الانتظار. بل رحتُ أتسلّى من بعيد بفسح المجال لأمل طفوليّ بأن ينمو في داخلي ليسهل سحقه، مثلاً أن يهدأ غضب ابني وتخمد ثورته فأثير شفقته ويعود إليَّ. أو أن يأتي مولوي، ابن البلاد، إليَّ حيث أنا، ما دمتُ لم أقدر على الذهاب إليه لأتّخذ منه صديقاً، أباً، ويعينني على أداء مهمّتي بصورة لا تُغضب «يودي» منّي فلا يعاقبني! نعم الأمل ينمو، يتراكم، يتوهّج ويتجمّل بألف تفصيل ساحر. ثمّ باشمئزاز أكنسه بضربة عنيفة واحدة. أُطهّر نفسي وأتراجع لأتأمّل الفراغ الذي لوّثَهُ.

عند المساء أهتمّ بشغف متزايد بأضواء «بالي»، فلا ألبث أراقبها تسطع ثمّ تنطفئ في آنٍ واحد تقريباً. وميض مقيت وأضواء صغيرة لأناس مرعوبين. وقلت في نفسي، أن أصل ربّما دون هذا الشرّ الذي يحدث لي! وهذا الـ «أوبيديل» الذي كدتُ أدخل معه في حوار والذي كم وددتُ رؤيته من قريب، لم أره لا من قريب ولا من بعيد. لعلّه لم يوجد يوماً فأنا لا أفلح في القبض على لقطة واضحة تنفي ذلك. وبمجرّد التفكير في عقوبة «يودي» انتابتني نوبة ضحك كبيرة خلخلتني بلا أدنى صوت يُسمع أو أن يعبّر وجهي عن أمر غير الشّجن والهدوء. لكنّ جسمي اهتزّ بالكامل حتّى ساقيَّ، إلى درجة أنّي اضطررت إلى الاعتماد على شجرة، أو شجيرة، حين يجتاحني الضحك وأنا واقف فإنّ المطريّة وحدها لا تعود كافية لإبقائي قيد التوازن.

ضحك غريب إن كان حقّاً ضحكاً. وفكّرت أنّي أسمّيه كذلك بداعي الكسل أو الجهل ربّما. أمّا بالنّسبة إليَّ فهي مضيعة للوقت، يجدر القول إنّي لا أفكّر إلّا فيها. ويخطر لي أحياناً أنّي على مسافة بعيدة وأنّي أقترب كموجة تتضخّم وتبيضّ، استعارة رديئة في وضع كوضعي الآن. حيث أشبه خراءً ينتظر أن يطرده الماء. وعلَيَّ أن أذكر الآن الوخزة التي تلقّاها قلبي، كان ذلك في بيتي، عندما طارت ذبابة فوق المنفضة فرفعت القليل من الرّماد بخفق جناحيها. وصرتُ سعيداً أكثر فأكثر. لم آكل شيئاً منذ أيّام، كان في استطاعتي جمع القليل من الفطر وتوت العلّيق، لكنّي لستُ مهتمّاً. أظلّ كامل النّهار مستلقياً داخل المأوى متأسّفاً بشدّة على معطف ابني. في المساء أخرج للضحك قبالة أضواء «بالي». ورغم الألم الذي يسبّبه لي تقلّص معدتي وانتفاخها فإنّي سعيد بشكل كبير، بل متحمّساً ومسروراً بشخصيّتي. وأقول في نفسي، عاجلاً سأفقد وعيي تماماً. إنّها فقط مسألة وقت. لكن مجيء «چابر» وضع حدّاً لكلّ تلك المناوشات.

كان الوقت مساءً. وكنتُ قد خرجتُ في نزهة ضراطٍ بعيداً عن المأوى لأحسّ بضعفي كما ينبغي. كان هنا منذ فترة. كان جالساً على جذع شجرة نصف نائم. أهلا «موران»، قال. هل تعرفني؟ قلت. أخرج مفكّرته وفتحها، بلّل إصبعه وراح يتصفّحها. عثر على الصّفحة المنشودة، قرّبها من عينيه في الوقت نفسه الذي قرّب فيه عينيه من المفكّرة. لا أرى شيئاً، قال. كان يحمل ملابس المرّة السابقة نفسها. لقد ظلمته يومها إذن لمّا اعتقدتُ أنّه يرتدي بذلة الأحد. إلّا إذا كان أحداً هذا أيضاً. في النهاية ألستُ دائماً أراه في هذه الملابس؟ هل معك ثقاب؟ قال. أكاد لا أتعرّف عليه بهذا الصوت البعيد. أو مصباح جيب، قال. لا بُدَّ أنّ شيئاً في وجهي لم يكن مضيئاً. أخرج من جيبه مصباحاً كهربائيّاً وأضاء الصّفحة. قرأ. «موران جاك» يعود إلى بيته مع وقف المهمّة. أطفأ المصباح، أغلق المفكّرة على إصبعه وحدّق فيَّ. لا أقدر على المشي، قلت. كيف؟ قال. أنا مريض ولا أقدر على الحركة، قلت. لا أسمع شيئاً ممّا تقوله، قال. صرختُ في وجهه بأنّي لا أقدر على المشي،

بأنّي مريض، بأنّي أحتاج إلى من يقلّني، بأنّ ابني تركني، بأنّي تعبت. فحصني من رأسي حتّى قدمي. قمت بخطوات مستعيناً بالمطريّة كي أثبت له بأنّي أجد صعوبة في المشي. فتح مفكّرته ثانية، أضاء صفحته، تطلّع فيها طويلاً وقال، «موران» يعود إلى بيته مع قطع المهمّة. أغلق المفكّرة. أعاد إلى جيبه اللّمبة أيضاً. نهض. مرّر يده على صدره وقال بأنّه يموت عطشاً. ولا كلمة واحدة حول وضعي. في ذلك الوقت لم أكن قد حلقت وجهي منذ قدِم ابني من «هول» ومعه الدرّاجة. لم أمشط شعري ولم أغتسل، هذا دون الأشياء الأخرى التي حُرمتُ منها، والتحوّلات الداخليّة الكبرى التي بتُّ أعيشها. هل عرفتني؟ صرختُ. هل عرفتك؟ قال. فكّر. أعرف أنّه يبحث عن الجملة المهينة أكثر من غيرها ليجرحني بها، «موران» العزيز! قال. ترنّحت لشدّة التعب. لو لفظتُ أنفاسي الأخيرة تحت قدميه لقال، آه «موران» العزيز لا يتغيّر أبداً. إنّه يزداد غموضاً يوماً بعد يوم. أتساءل إن كان هذا حقّاً «چابر». هل هو غاضب؟ قلت. ألا أجد لديك علبة؟ قال. سألتك هل هو غاضب منّي؟ صرختُ. غاضب، قال «چابر»، يفرك يديه من الصّباح حتّى المساء، أسمعها من غرفة الجلوس. هذا لا يعني شيئاً، قلت. يضحك وحده طوال النّهار، قال «چابر». لا بُدَّ أنّه غاضب منّي، قلت. هل تدري ماذا قال لي ذات يوم؟ قال. هل تغيّر ؟ قلت. ماذا؟ قال «چابر»، هل تغيّر؟ لِمَ قد يتغيّر، لا لم يتغيّر، هرِم فقط هذا كلّ شيء، كجميع النّاس. لك صوت غريب هذا المساء، قلت. لا أظنّ أنّه سمعني، حسناً، قال وهو يمرر يده على صدره من الأسفل إلى الأعلى. يجب أن أرحل ما دمت لا تملك شيئاً لتقدّمه لي. ابتعد دون كلمة وداع. أمسكتُ به من كمّه رغم التقزّز ورغم ضعفي وساقي المريضة. ماذا قال لك؟ قلت. توقّف «موران»، قال، لقد بدأت تجعلني أتغوّط. أتوسّل إليك أخبرني ماذا قال؟ دفعني. سقطتُ. لم يتعمّد طرحي أرضاً. ليس لديه علم بما وصلتُ إليه. أراد إبعادي فقط. لم أحاول النهوض. أطلقتُ آهة. اقترب ومال عليَّ. كان لديه شاربان كستنائيان على

طريقة الغاليّين[43]، رأيتهما يهتزّان. انفرجت شفتاه وبالكاد سمعته يهمس بكلمات تعاطف. «چابر» ليس فظّاً. أعرفه جيّداً. «چابر» لستُ أطلب منك المستحيل قلت. أتذكّر ذلك جيّداً. أراد أن يساعدني على النهوض. دفعته عنّي. كنتُ حيث أنا. ماذا قال لك؟ قلت. لم أفهم قال «چابر». منذ قليل قلتَ إنّ «يودي» قال شيئاً، هتفتُ، ثمّ قاطعتُك. قاطعتني؟ قال «چابر». هل تدري ماذا قال لي ذات يوم قُلتَ، هاهي جملتك كما نطقت بها. تألّق وجهه، كان حيويّاً مثل ابني تقريباً، ذاك العملاق «چابر». قال لي ـــــــــ، قال «چابر». إيه ـــــــــ. أقوى، صرخت. قال لي، قال «چابر»، «چابر» الحياة شيء رائع، شيء عجيب. قرّب وجهه من وجهي. شيء رائع، قال، شيء جميل ورائع. شيء عجيب. ابتسم. أغمضتُ عيني. الابتسامات شيء رائع وجميل، محفّزة لكن تحتاج إلى التراجع إلى الوراء لأجل تأمّل أفضل. قلتُ، هل كان يتحدّث عن الحياة البشريّة؟ أنصتُّ. من يدري إن كان يتحدّث عن الحياة البشريّة، قلت. فتحتُ عينيَّ. كنتُ وحدي. كانت يداي ممتلئتين بالتراب والعشب اللذين اقتلعتهما دون أن أشعر. ما أنفكّ أقتلعهما. أجتثّ الحشائش من جذورها. لمّا استعدتُ وعيي بالأشياء بدا لي أنّ ما أقوم به بشع للغاية فتوقّفت. فتحتُ يديَّ وسرعان ما أصبحت فارغة. في تلك اللّيلة بالذات اتّخذت طريق العودة. لم أبتعد لكنّها بداية صغيرة. ما يهمّ هي الخطوة الأولى. الخطوة الثانية أقلّ. كلّ يوم ألاحظ بأنّي تقدّمت أكثر. هذه الجملة ليست واضحة، لم تحمل المعنى الذي قصدتُه. في البداية كنتُ فقط أحصي عشرات الخطوات قبل التوقّف قائلاً، أحسنتَ لقد قمت بعشرات الخطوات، أنت تبلي أفضل من الأمس. ثمّ صرت أحصي خطواتي بالخمس عشرة ثمّ بالعشرين فالخمسين. أخيراً بتُّ قادراً على إنجاز خمسين خطوة قبل التوقّف للراحة متّكئاً على مطريتي المخلصة. لعلّي همتُ قليلاً في «باليبا»، إن كنتُ حقّاً فيها، قبل أن أتبع الطريق التي سلكناها لنأتي إلى هنا. لكنّ المسالك تغيّر شكلها، تصبح معكوسة. آكل بحكمة كلّ ما تهبه

43 – الغاليّين: نسبة إلى بلاد الغال.

الطبيعة والخشب والحقول والمياه من طعام صالح للهضم. انتهى مخزوني من المرفين.

تلقّيت تعليمات بالعودة في شهر أوت أو سبتمبر كأقصى أجل. وصلتُ إلى بيتي في الرّبيع. ليست لديَّ الرغبة في أن أكون أكثر دقّة من ذلك. مشيتُ الشّتاء بأكمله. شخص غيري كان سيقرّر عدم النهوض من الثلج أبداً بمجرّد أن يستلقي فوقه بعض الوقت. ليس أنا. فيما مضى اعتقدتُ دائماً أنّ الناس ليسوا في حاجة إليّ، ظننتُ دائماً أنّي أكثر مكراً من كلّ شيء. ثمّة النّاس وثمّة الأشياء. لا تحدّثوني عن الحيوانات، ولا عن الله. الأشياء التي تتحدّاني حتّى لصالحي، لا تلبث تتحدّاني طويلاً. هذا الثّلج مثلاً، وإن كان يدعوني إليه أكثر مما يبدي ناحيتي مقاومة. لكن من جهة ما هو يتحدّاني. هذا يكفي. لقد انتصرتُ عليه وأنا أصرّ أسناني من الفرح. في الإمكان دائماً أن نصرّ القواطع. أفسح المجال أمام ما أسمّيه ضياعي فقط لو تشكّل لديَّ وعي بما سأخسره. لعلّي وعيتُ ذلك دائماً أو لعلّي لم أنفكّ يوماً عن أن أعيَه. الوقت كفيل بجعلنا نصل لكن خلال سفري لم أكن أعي ذلك من أعلى الرّبوة كما اعتدتُ مجابهة خبث الأشياء والناس وخيانة جسمي لي. ركبتاي بفضل تجاهلي لها لم تؤلماني، لا أقلّ ولا أكثر من اليوم الأوّل. الشرّ مهما كان نوعه لا يتطوّر أبداً. هل في وسع أحد تفسير أمر كهذا؟ لكن بالعودة إلى الذّباب أعتقد أنّ هناك بينها من يفقس عند بداية الشّتاء في المنازل، ويموت بعد وقت وجيز. نراها صغيرة جدّاً، تطير في الزّوايا الدّافئة، دون ضجيج أو اندفاع. أي واحدة من وقت إلى آخر. يجب أن تموت صغيرة قبل أن تتمكّن من وضع البيض. نكنسها. ندفع بها بواسطة مكنسة نحو مجرفة دون أن تعلم شيئاً. ها هو أغرب جيل من الذّباب. غير أنّي صرتُ ضحيّة لعواطف أخرى أعمق بكثير، لا ليس هذا هو اللّفظ. معويّة في أغلبها. للأسف ليست لديَّ الرّغبة في ذكرها. كانت ستمنح النصّ مقطعاً إضافيّاً رائعاً. شخص غيري لم يكن ليتغلّب عليها دون مساعدة. إنّما أنا! منكفئاً على نفسي وبيدي الحرّة أمسك ببطني. أتقدّم مطلقاً من حين إلى آخر أنين تضايق ونصر، بعض الطّحالب

التي كنتُ آكلها ليست بريئة ممّا أنا فيه. لو ملأت رأسي بفكرة الوصول في الموعد بَدَل الإصغاء إلى العذاب الذي أعيشه فإنّ التهابيَ النازف لم يكن ليمنعني من شيء. كنتُ سأتقدّم على أربع متغوّطاً أمعائي ومصراني، مدندناً ألحاناً ملعونة. قلتُ لكم من قبل إنّ إخوتي هم الذين سينقذونني.

لكنّي لن أذكر كلّ شيء عن رحلة العودة هذه. عن أهوالها وخياناتها. سأحجب عن الضّوء الرّجال الأشرار والأطياف التي حاولت منعي من العودة إلى بيتي كما أملى عليَّ «يودي»، لكنّي مع ذلك سأكتب بعض الكلمات في هذا الشّأن كي أُشيّد نفسي وأُضفي عليها روحاً قادرة على الاستنتاج . أوّلاً أفكاري النادرة.

هناك بعض الأسئلة من النوع التيولوجي تؤرقني حقّاً. إليكم بعضها.

1. ماذا تساوي النظريّة القائلة إنّ حواء لم تخرج من ضلع آدم، بل من ورم في فخذه (شرجه؟)؟
2. هل يزحف الثعبان، أم إنّه كما أكّد كوميستور[44] يمشي قائماً؟
3. العذراء، هل تلقّت الكلمة في أذنها كما أراد لها ذلك القديس أوغستينو وأدوبار؟
4. المسيح الدجّال، كم من الوقت سيجعلنا ننتظر أكثر من هذا؟
5. هل لليد التي تنظّف المؤخرة أهمّية حقّاً؟
6. ما رأيك في قَسَم الإرلنديين؛ اليد اليمنى فوق مخلّفات القدّيس والأخرى على العَضو الفحل؟
7. هل لدى السبت أيّ اعتبار لدى الطّبيعة؟
8. هل صحيح أنّ الشياطين لا يؤذيها عذاب الجحيم؟
9. نظريّات چريچوار الجبريّة حول اللّاهوت، ما رأيكم فيها؟
10. هل صحيح أنّ القديس «روش» عندما كان طفلاً، كان يرفض الرضاعة أيّام الأربعاء والجمعة؟

---

44- كوميستور: أحد علماء اللّاهوت الفرنسيّين، وُلد سنة 1100 م من أهمّ مؤلّفاته مختصر جامع لكلّ الأناجيل.

11. ماذا عن عقوبة طرد الدّود من الكنيسة في القرن السادس عشر؟
12. هل علينا أن نوافق الإسكافي الإيطالي «لوفات» الذي أخصى نفسه، فصُلِب؟
13. ماذا كان يفعل الله قبل الخلق؟
14. الإبصار غير المكترث ألا يتحوّل إلى مصدر للمشاكل مع مرور الوقت؟
15. هل صحيح أنّ عذاب يهوذا يُعَلَّقُ يوم السّبت؟
16. لِمَ لا يُصلّي الأموات على الأحياء؟

ثمّ تلوتُ على نفسي دعاءً صوفيّاً[45] جميلًا، إلهي الذي في السّماء والأرض والجحيم، لا أريد ولا أرغب في أن يُقَدّس اسمك، أنت تعلم ما يناسبك، إلخ. الوسط والنهاية رائعان.

إنّه إلى هذا العالم التافه والساحر سألجأ عندما يفيض كأسي.

بيد أنّي طرحتُ على نفسي أسئلة أخرى تهمّني من قريب. إليكم بعضها.

1. لِمَ لمْ أقرض «چابر» بضعة شلنات؟
2. لِمَ أطعتُ أمر العودة؟
3. ماذا أصبح مولوي؟
4. السؤال نفسه عنّي.
5. ماذا سأصبح؟
6. السؤال نفسه عن ابني.
7. أمّه، هل هي في السّماء؟
8. السؤال نفسه عن أمّي.
9. هل سأصعد إلى السّماء؟
10. هل سنلتقي في السّماء يوماً، أنا وأمّي وابني وأمّه و«يودي» و«چابر» ومولوي وأمّه و«يارك» و«مرفي» و«وات» و«كاميي» والآخرون؟
11. ما أخبار دجاجي ونحلي؟ دجاجتي الرماديّة، هل ما زالت تعيش؟

---

45- صوفِيّاً: المعنى هنا هو مذهب الانقطاع للعبادة والزهد.

12. «زولو» والأخوات «السنر» أما زالوا على قيد الحياة؟
13. أما زال مكتب «يودي» في العنوان نفسه 8 ساحة الأكاسيا؟ ماذا لو كاتبته؟ ماذا لو زرته؟ سأشرح له، ماذا كنتُ سأشرح له؟ ربّما كنتُ سأطلب منه الصّفح. على ماذا؟
14. ألم يكن الشّتاء قاسياً بصورة استثنائيّة هذه السّنة؟
15. كم مضى من الوقت دون أن أعترف أو أتناول القربان المقدّس؟
16. ماذا كان اسم الشّهيد المصفّد بالأغلال في السّجن، ذاك الذي غطّى الدّود جروحه والذي لم يكن قادراً على الحركة واحتفل بالتسخير[46] على معدته فمُنح الغفران؟
17. ماذا سأفعل حين موتي. أليست هناك طريقة أسرع بها موتي دون السّقوط في الإثم؟

لكن قبل أن أعطي إشارة البدء لجسمي مع كلّ تلك الوحدة المتجمّدة الموحلة، ثمّ مع ذوبان الجليد، كنتُ أفكّر نحلي أكثر من دجاجي، كنتُ أفكّر خاصّة في رقصه. لأنّ النحل يرقص، أوه طبعاً ليس كما يرقص البشر للتسلية لكن على نحو آخر. في فترة ما ظننتُ أنّي الوحيد في العالم الذي يعرف ذلك. قمتُ ببحوث معمّقة في هذا الشّأن. تلك الرّقصات يختصّ بها أكثر النّحل العائد إلى الخليّة مُحمّلاً بالكثير أو بالقليل من الرّحيق، لوحات وإيقاعات كثيرة جدّاً. في نهاية المطاف سجّلتُ قاعدة إشارات بواسطتها يعبّر النّحل العائد للنّحل المغادر عن رضاه أو عن عدم رضاه على محصول الرّحيق ويُرشده إلى المرعى الذي عليه تجنّبه والذي عليه التوجّه إليه. والنّحل المغادر يرقص بدوره. إنّها بالتأكيد طريقته ليقول إنّه فهم، أو، «لا عليك سأتدبّر أمري». لكن بعيداً عن الخليّة أثناء انهماكه في العمل فإنّ النّحل لا يرقص. هنا لا بُدَّ أنّ الشّعار هو، كلّ على حدة، هذا إذا كان النّحل فعلاً قادراً على تطوير مبدأ مماثل. الرّقص عبارة عن لوحات طيران، ولقد دوّنتُ عدداً كبيراً منها مصحوباً بدلالته المحتملة. لكن هناك مسألة الطّنين

46- التّسخير: تقرّب العبد من ربّه بكل ما يملك حتّى نفسه.

واختلاف طابعها عند الاقتراب من الخليّة ولدى الابتعاد عنها. من الصّعب أن يكون ذلك محض صدفة. لاحظتُ في البداية أنّ كلّ لوحة يرافقها طنين خاصّ بها. لكن بعد ذلك صرفتُ النّظر عن هذه الفرضيّة الرائعة. لأنّي كنتُ أرى اللّوحة نفسها أو ما أظنّ بأنّها اللّوحة نفسها. يرافقها طنين مختلف في كلّ مرّة، حتّى إنّي استنتجتُ بأنّ الطنين لا يثبت اللّوحة بل يضفي عليها معنى آخر. جمعتُ الكثير من الملاحظات حول هذا الموضوع، لكن لا نتيجة واحدة. إنّما لا يشمل الأمر اللّوحة والطّنين فحسب، بل حتّى العلوّ الذي تُؤدَّى معه الرّقصة. وباتت لديَّ قناعة أنّ اللّوحة نفسها مصحوبة بالطنين نفسه لا تعني من علوّ اثنتي عشرة قدماً الدّلالة نفسها مما لو أداها النحل من علوّ ستّ فقط. لأنّ النحل لا يرقص من أيّ ارتفاع عشوائيّاً للتسلية. بل هناك ثلاثة أو أربعة مستويات لا تتغيّر، يرقص النحل وفقها. ماذا لو أطلعتكم عن تلك المستويات والعلاقة التي تربط بعضها ببعض لأنّي قستها بدقّة. لا تصدّقونني؟ إلّا أنّه ليس الوقت المناسب لأحيط نفسي بالشّكوك. يُقال أحياناً إنّي أكتب للجمهور، ورغم العمل الجبّار الذي كرّسته لهذا الموضوع غير أنّي لم أشعر بالذّهول أكثر ممّا شعرتُ به أمام التعقيد الذي في هذه الرّقصات، هذا عدا العوامل المتداخلة الأخرى التي ليست لديَّ أدنى فكرة عنها. وأقول في نفسي بنشوة عارمة، ها هو ذا أمر يمكنني دراسته مدى حياتي دون أن أفهمه. وخلال رحلة العودة وأنا أتساءل عن سعادة صغيرة محتملة، فإنّ التفكير في نحلي ورقصاته هو ما وجدتُ فيه المواساة. ذاك أنّي أولي اهتماماً للسعادة من وقت إلى آخر! كنتُ مسروراً أيضاً بشكل خاصّ لأنّ رقص نحلي ليس تافهاً ومفرغاً من المعنى كما هو الشأن بالنسبة إلى الرقص عند الغربيين، أمّا أنا فإنّه أمر رائع دائماً أن أجلس لمراقبة الخليّة وهي تأخذ حمّام شمس، ليس رائعاً للنظر فحسب، بل أكثر من ذلك إنّ ما يمنحني إيّاه لا يمكن أن يلطّخ منهجيّة تحليل الرّجل رغم أنفه الذي كنتُه دائماً. ثمّ إنّي لن أرتكب مع نحلي خطئي في حقّ الربّ الذي علّموني أن أمنحه غضبي وخوفي ورغباته وحتّى جسدي.

تحدّثتُ مع نفسي بنبرة من يسدي الأوامر، النّصائح بالأحرى. سمعتُ صوتي ذاك للمرّة الأولى في رحلة العودة. لم أعره اهتماماً.

من النّاحية الجسديّة بات من الصّعب التعرّف علَيَّ. وعندما أُمرر يديَّ على وجهي بحركة ودّ، مفهومة أكثر من أيّ وقت مضى، فإنّه ليس الوجه نفسه الذي كانت تتحسّسه يدايَ ولا هي اليدان نفساهما اللتان اعتادتا تحسّس ملامسة هذا الوجه. غير أنّ الإحساس ظلّ هو نفسه في العمق، أقصد لا فرق بينه وبين إحساسي به عندما كنتُ أحلق وأتعطّر وأملك يدي مثقّف بيضاوين وبضّتين. وهذا البطن الذي لا أتعرّف عليه، يظلّ بطني في الأخير، بطني القديم، بفضل لا أدري أيّ حدس، ولأحسم استمررتُ في التعرّف على نفسي، بل صار لديَّ إحساس صافٍ وبرّاق عن هويّتي أكثر من ذي قبل رغم عاهاتها الحميمة والجروح التي تضرّجها. من هذا الجانب كنتُ وبشكل واضح أدنى ممّا أعرف. آسف إن كانت الجملة الأخيرة ليست مُصاغة بصورة جيّدة. لعلّها، من يدري، كانت تستحقّ أن لا تبدو ملتبسة. وهناك أيضاً الملابس. فقد كانت دائماً متناسقة مع جسمي. لقد كانا زوجاً متّحداً لا يفترق أحدهما عن الآخر في وقت السّلم. لطالما أبديتُ ضعفاً إزاء الملابس رغم أنّي لم أكن يوماً رجلاً فائق الأناقة. لن أتذمّر من ملابسي فهي قويّة وقصّتها جيّدة. كنتُ، وهذا لا يخفى، رجلاً غير مستور بشكل فعّال. لكن، خطأ من؟ لقد اضطررتُ إلى التخلّي عن قبّعة القشّ غير المجدية في الفصل الميّت وعن جورَبَيَّ( زوجين) اللذين أصبحا عدماً تامّاً بسبب البرد والرطوبة وساعات المشي الطويلة واستحالة غسلهما كما ينبغي. لكنّي خفّضتُ الحمّالة والكيلوت إلى الحدّ الأقصى بفضل انتفاخه كما هو معلوم، لقد بلغتُ به الرّبلتين. ولشدّة استعداد العقل لإقامة العلاقات فكّرتُ وأنا أرى اللّحم الأزرق بين الكيلوت وقصبة حذائي في ابني وفي الضربة التي وجهتها إليه.

تصلّب حذائي بسبب الإهمال. إنّها وسيلة الجلد المدبوغ الميّت ليدافع عن نفسه. الهواء يتجوّل بحرّية مانعاً قدمَيَّ من التجمّد. كنتُ أيضاً عند

ضرورة التخلّص من سراويلي الداخليّة(اثنين) للأسف. لقد فسدا بسبب ملامستهما للحمي الفائض. أمّا الكيلوت فقد احترق من الداخل وأصبح يقطع الخطّ الرابط بين عصعصي وبين فتيل الخصيتين. ماذا كان يتوجّب علَيَّ أن أرمي أيضاً؟ قميصي؟ لكنّي كنتُ ألبسه مقلوباً، الداخل من الخارج. لِنَرَ. كان لديَّ أربع طرق لارتداء القميص، أمام، أمام صحيحة. أمام، أمام مقلوبة. أمام، خلف صحيحة. أمام خلف مقلوبة. وفي اليوم الخامس أستأنف من البداية أفعل ذلك ليعيش القميص أكثر ما يمكن، هل جعلته يدوم؟ لا أدري. ربّما دام.

أن تولي اهتماماً بالتفاصيل الصّغيرة يجعلك تسيطر على الكبيرة منها مع مرور الزمن. لكن ماذا علَيَّ أن أرمي أيضاً؟ ياقتي، رميتُ بها حتّى قبل أن تصبح رثّة. لكنّي حافظتُ على ربطة العنق. بل بقيتُ ألبسها معقودة حول العنق بطيش، أعتقد. كانت مرقّطة لكنّي نسيتُ لونها.

عندما يهطل المطر أو يسقط الثلج أو البَرَد، أجد نفسي في الورطة التالية، إمّا أن أواصل طريقي معتمداً على المطريّة أو أن أفتحها وأحتمي بها واقفاً. ورطة زائفة كما هو الشأن دائماً. فمن قبّة المطريّة لم تبقَ سوى خرق مشدودة إلى الأسلاك وكان في وسعي أن أتابع تقدّمي ببطء شديد مُستخدماً المطريّة لا كعكّاز أتوكأ عليه بل للوقاية.

لكنّي اعتدتُ أن تكون مطريّتي عازلة ومن جهة أخرى عدم القدرة على السير دون سند. وهذا أبقى على الورطة.

كان في إمكاني طبعاً أن أتّخذ عصاً من أحد الأغصان وأواصل التقدّم رغم المطر والثلج والبَرَد معتمداً عليها ومحتمياً بمطريّتي المفتوحة فوق رأسي. لكنّي لسبب أجهله لم أفعل. إنّما حين ينزل المطر والأشياء الأخرى التي تسقط علينا من السّماء فإنّي أحافظ على تقدّمي متكئاً على المطريّة ومبلّلاً تماماً. على الأغلب أتوقّف. أفتح المطريّة فوقي وأرقب حتّى تنتهي. حتّى بهذه الطريقة أتبلّل. لكنّ الإشكال لا يكمن هنا، ولو نزل المنُّ[47] من

47- المَنّ: طعام بني إسرائيل في الصّحراء وقد اقترن بالسّلوى؛ المنّ والسّلوى.

السّماء لانتظرتُ إلى حين يتوقّف دون أن أغنم شيئاً. وبما أنّ ذراعي كانت عاجزة عن الإمساك بالمطريّة فقد كنتُ أمسكها باليد الأخرى، وباليد الحرّة كنتُ أفرك وأضرب أجزاء جسمي التي يمكنها بلوغها حتّى أحافظ على دورة دمويّة فعّالة. أو إنّي أجول بها على وجهي بحركة خاصّة بي. وقمّة المطريّة كانت كإصبع. أفضَلُ أفكاري تخطر لي أثناء الاستراحات. وعندما يبدو لي أنّ المطر إلخ... لن يتوقّف لا في النّهار ولا في اللّيل فإنّي أجعل من ذلك ذريعة لأصنع لنفسي مأوى حقيقيّاً. لكنّي لا أحبّ الملاجئ الحقيقيّة المُشيّدة بالأغصان. إذ بمرور الوقت لن يعود هناك أوراق تحميني عدا إبر الصنوبر. ليس هذا هو السبب الذي أكره لأجله الملاجئ الحقيقيّة. لا بل لأنّي داخل المأوى سأفكّر دون هوادة في معطف ابني. أراه بوضوح (المعطف) لا أرى سواه، إنّه يملأ المكان. في الواقع كان ما يسمّيه أصدقاؤنا الإنجليز (ترنش كُوْتْ)، أشمّ عليه رائحة المطاط وإن كانت (الترنش كُوْتْ) غير مصنوعة من المطاط عادة، لذا كنتُ دائماً أجتنب المأوى الحقيقيّ المُشيّد بالأغصان، بل أفضّل الاحتماء بمطريّتي أو بشجرة أو سياج أو دغل أو أنقاض.

أمّا اتّخاذ الطريق الرئيس لعلّ عربة تقلّني فهذا ما لم يخطر لي أبداً. بالنّسبة إلى طلب المساعدة من إحدى القرى فلا أظنّ أنّ الفكرة كانت ستعجبني لو خطرت لي.

عدتُ إلى بيتي بالخمسة عشر شلن كما هي. لا لقد أنفقتُ اثنين منها في الظروف التالية، كان علَيَّ أن أتحمّل تعرّضي لتعنيف من نوع آخر، أعمالاً وقحة أخرى سُلّطت علَيَّ، لكنّي لن أرويها. لنكتفِ بالنماذج فقط. سيكون علَيَّ أن أتحمّل المزيد منها في المستقبل، لستُ متأكّداً. لا أحد يعلم.

كان ذلك ذات مساءٍ. كنتُ تحت مطريّتي أنتظر بسلام أن يصحو الجوّ حين دفعني أحدهم من الخلف بعنف. لم أسمع شيئاً. كنتُ وحيداً في مكان معزول، يد جعلتني أستدير. كان مزارعاً أرجوانيَّ اللّون. كان يرتدي مُشمّعاً، وقبّعة مستديرة وجزمة. وجنتاه تسيلان وقطرات ماء تنزل من شاربيه الكبيرين. لكن مهلاً، لِمَ قد تصلحُ تفاصيل كهذه. تبادلنا النظرات بحقد.

ربما كان الرّجل نفسه الذي اقترح أن يقلّني وابني في سيّارته. لا أظنّ. بيد أنّ ملامحه كانت مألوفة لديَّ. ليس وجهه فحسب. كان يحمل فانوساً مطفأ في يده يمكنه إضاءته في أيّ لحظة. في يده الأخرى كان يمسك مجرفة. لدفني. أمسك بباطن سترتي. لم يشرع في هزّي مباشرة، بل فعل حين ارتأى أنّ ذلك مناسب. شتمني. تساءلتُ ما الذي اقترفتُه كي أثير لديه هذا الكمّ من النقمة. رفعتُ حاجبَيَّ. لكنّي دائماً أرفع حاجبيَّ فهما ملتصقان بفروة رأسي تقريباً، لأنّ جبهتي عبارة عن خطوط وطيّات متداخلة. فهمتُ أخيراً أنّي لستُ في بيتي. أنا في أرضه. ماذا كنتُ أفعلُ في أرضه؟ إن كان هناك سؤالٌ أخشاه ولا أجد له إجابة أبداً فهو بالتأكيد هذا. فوق أرض الغير! ليلاً! في جوّ لا تخرج فيه الكلاب! إلّا أنّي لم أفقد برودة أعصابي. إنّها أمنية، قلت. أصدر صوتاً مميّزاً لو شئت. لا بُدَّ أنّ صوتي أدهشه. حرّرني. حجّ، قلت ممعناً في هزيمته. سألني، أين؟ لقد انتصرتُ. إلى عذراء «شيت»، قلت. عذراء «شيت؟» قال كما لو أنّه يعرف «شيت» مثل جيبه وأنّ «شيت» ليس فيها نصبٌ للعذراء. لكن هل ثمّة مكان ليس فيه نصب للعذراء؟ نعم، قلت. السّوداء، قال ليؤيدني. لا أعرف عذراء بهذا اللّون القاتم، قلت. أحدٌ غيري كان سيسقط في الفخ، ليس أنا. أعرف نقاط ضعف فئتي. لن تصل، قال. أنا أدين لها بفقدان ابني وحفاظي على أمّي. مشاعر كهذه لا يمكنها إلّا أن تروق لمربّي أبقار. لو درى بالأمر! رويتُ له ما لم يقع للأسف. لا لستُ آسفاً على «نينات»، فربّما هي من يأسف عليَّ. على كلّ ثمّة حسرة. إنّها عذراء النّساء الحوامل، قلت. نساء متزوّجات حوامل، لقد أقسمتُ على أن أشدّ إليها الرّحال ببؤس حتّى أصل إلى كوخها لأعبّر لها عن عرفاني. تلك الواقعة تصلح كي تظهر المهارات التي كنتُ أتمتّع بها في تلك الفترة. لكن لعلّي بالغتُ لأنّ عينيه زاغتا وساءت نظرتهما. أيمكنني أن أطلب منك خدمة؟ قلت، وسيكافئك عليها الربّ، أضفت. أن تطلب معروفاً من شخص يوشك على قتلك، هذا يؤدّي عادة إلى نتائج طيّبة. القليل من الشاي السّاخن، قلتُ متوسّلاً، دون حليب ودون سكّر، لعلّه يعيد إليَّ قوّتي. أن تقدّم خدمة كهذه لحاج معجون كالمربى لا بُدَّ أنّه أمر مغرٍ. حسناً تعالَ معي إلى منزلي لتجفّف نفسك. لا يمكنني، لا

يمكنني، صرخت، لقد أقسمتُ على أن أواصل طريقي إليها في خطّ مستقيم. ولكي أزيل الانطباع السيئ المحتمل الذي قد يراوده عنّي، أدخلتُ يدي إلى جيبي وقدمتُ له فلورانا[48]. لأجل مساكينك، قلت. المسافة بعيدة، قال. سيرافقك الربّ، قلت. فكّرَ. ثمّة ما يدعو. لا أريد طعاماً، أوه، إلّا الطّعام، قلت، لا يجب أن آكل شيئاً. آه، «موران» العجوز الماكر كثعبان. كنتُ طبعاً سأختار القوّة، لكنّي لم أتجرّأ على المخاطرة. ابتعد آملاً أن أبقى في انتظاره. لم تكن لديَّ فكرة عن نواياه. عندما بدا لي أنّه صار بعيداً، أغلقت المطريّة ورحلتُ في الاتجاه المعاكس عبر مسلك متعامد مع الطريق الصحيحة. تحت مطر عنيف. هكذا أنفقتُ فلورانا.

الآن علَيَّ أن أختم.

مشيتُ بمحاذاة المقبرة. كان ليلاً. منتصف اللّيل ربّما. الطّريق صاعدة، كنتُ أمشّط المكان. ريح ضعيفة تدفع السّحب في سماء مُضاءة بالكاد. كم هو رائع أن يتنازل المرء مدى الحياة. أمر جميل حقّاً. طبعاً في صورة ما إذا كان مدى الحياة لا يُكَرَّسَ إلّا لأمر واحد فقط.

وصلتُ أمام البوّابة. كانت موصدة بالمفتاح، عينُ الصّواب. لكنّي لن أتمكّن من فتحه. يدخل المفتاح في الثقب ولا يدور. هل سُحب من تحتي البساط؟ قفل جديد؟ اقتحمته. تراجعت إلى الضفّة الأخرى للطريق واندفعتُ بقوّة نحوه. دخلتُ إلى بيتي كما طلب منّي «يودي». لقد نجحتُ. ما هذه الرائحة الزكيّة؟ اللّيلك؟ أزهار الربيع ربّما. رُحتُ إلى خلايا النّحل. كانت هناك كما خشيت. انتزعت غطاء إحداها ووضعته على الأرض. سقف صغير قمّته حادّة مع انحدار مفاجئ وطافح. أدخلتُ يدي في الخليّة. أجلتها عبر الفراغات والقاع. اعترضتها كرة إسفنجية جافّة. تفتّتت لدى ملامسة أصابعي. لقد اجتمع النّحلُ عنقودياً لدفء أكبر، مُحاولاً الدّخول في سبات. أخرجتُ حفنة. كانت الرؤية أشدّ من أن تسمح بالرؤية فوضعتها في جيبي. لا تزن شيئاً. لقد تُرك في الخارج طوال فصل الشّتاء. جنوا العسل ولم يقدّموا

48- فلوران: قطعة نقديّة نمساويّة، صُكّت من الذّهب واستبدلت سنة 1867 بالكورونه.

للنحل السكّر. نعم، الآن يمكنني أن أختم. لن أذهب إلى الحظيرة، لا بُدَّ أنّ الدجاج ميّت أيضاً. أعرف ذلك. ربّما قتلوا الدّجاج بطريقة مُعيّنة لا تشبه تلك التي ماتت بها الدّجاجة الرمادية. لقد أهملتُ نحلي ودجاجي. اتّجهتُ إلى البيت. كان غارقاً في العتمة. الباب مغلق بالمفتاح. اقتحمتُه. ربّما كان في إمكاني فتحه بأحد مفاتيحي. أدرتُ المُحوّل الكهربائيّ. لا ضوء. ذهبت إلى المطبخ وإلى غرفة «مارتا». لا أحد. فقط حكايات كثيرة، كان البيت مهملاً. الشّركة قطعت الكهرباء. أرادوا منحي إيّاه ثانية لكنّي رفضت. هكذا أصبحت. عدتُ إلى الحديقة. غداً أتملّى حفنة النّحل جيّداً. مسحوق أجنحة وقرون استشعار. وجدتُ مراسلات تحت السلّم في الصّندوق. رسالة من «سافوري». ابني بخير. أمر مفروغ منه. لن نتحدّث عن هذا الشّخص. لقد عاد، وهو نائم الآن. رسالة من «يودي» مكتوبة بضمير الغائب. يطلب تقريراً. سيصله تقريره. إنّه الصّيف مرّة أخرى. مضت سنة على رحيلي. في يوم زارني «چابر». جاء لأجل التقرير. هه. اعتقدتُ أنّ اللّقاءات والخطابات قد انتهت. عد يوماً آخر، قلت. وزارني الأب «أمبرواز» أيضاً. أيُعقَل! قال وهو يراني. لطالما وثقتُ في أنّه يحبّني على طريقته. قلتُ له بأن لا يعوّل علَيَّ مستقبلاً. بدأ يخطب. كان مُحقّاً. هل ثمّة من هو غير محقّ؟ افترقنا. رحلتُ. ربما التقيتُ مولوي يوماً. ركبتي ليست على ما يُرام. حالتها ليست أسوأ. صار لي عكّازان الآن. بتُّ أتقدّم بشكل أنجع. علمتُ أنّ الطّقس سيتحسّن. بعتُ كلّ ما يمكن بيعه. كانت لديَّ ديون متراكمة. لن أتحمّل فكرة أنّي إنسان ولن أحاول تحمّل ذلك. لن أضيء هذه اللّمبة. سأنفخ فيها وسأذهب إلى الحديقة. استحضرتُ أيّام ماي وجوان الطويلة التي أعيشها في الحديقة. يوماً ما سأتحدّث مع «حنّا»، ستخبرني بأحوال «زولو» والأخوات «السنر». تعرفني ولا تخاف منّي. لا تخرج أبداً، فهي تكره الخروج. تحدّثني من خلال نافذتها. الأنباء كانت سيّئة. ليست كلّها. كان هناك الجيّد. أيّام جميلة. كان شتاءً قاسياً بشكل استثنائيّ. الجميع يتحدّث عن ذلك. صيف رائع مُستحَقّ. لا أدري إن كنّا نستحقّه فعلاً. لم يقتلوا طيوري لأنّها بريّة ووائقة من نفسها! تعرّفتُ عليها وعرفتني. لكن من يدري لعلّ هناك من فُقد ومن

ازداد. حاولتُ فهم لغتها على نحو أفضل دون اللّجوء إلى لغتي. إنّها الأيّام الأطول والأجمل في السّنة. عشتُ خلالها في الحديقة وكنتُ أتكلّم بصوت يقول لي كذا وكذا. في تلك الفترة كنتُ قد بدأتُ أنسجم معها وأفهم ما تريد قوله. لم تكن تستخدم الكلمات التي لقّنوها إلى الصّغير «موران» الذي علّمها بدوره لصغيره. في البداية لم أعرف القصد منها. ثمّ انتهى بي الأمر إلى فهم تلك اللّغة. فهمتها وأستمرّ في فهمها. معكوسة ربّما. ليس هذا هو الإشكال. الصّوت هو الذي طلب منّي التقرير. هل يعني هذا أنّي حرٌّ الآن؟ لا أدري. سأعرف ذلك. لذا دخلتُ البيت وكتبتُ، إنّه منتصف اللّيل. حبّات المطر تجلد زجاج النّافذة.

لم يكن منتصف اللّيل ولم تكن تُمطر.

مكتبة
t.me/t_pdf

مولوي هو بطل رواية ساخرة أريد له أن يكون سهما مُوجّها نحو المهزلة البشريّة، وأداء لا ترحم للهزئ من نتائج التّراكم الإنسانيّ وحتّى اللّغويّ. مُعرّضا بذلك الكلمات لنقيض القيمة التي تدّعيها. ما يهمّ فقط بالنّسبة إليه هو أن يراقب نفسه وأن يصفها ببراءة في كلّ ما يمرّ بها من أحوال وأهوال، براءة مرتبطة بحتميّة إقصائه، والتي تُسائل خلف هذا المفهوم النّظام الاجتماعيّ برمّته. مولوي هو المنبوذ الكامل الذي لا تترك طريقة تصويره العبقريّة المجال لفرضيّة أن لا ينتبه القارئ إلى ذلك. لكنّ الأشياء لا تقف عند هذا الحدّ، فبتأمّله من الدّاخل سيبدو معين إلهام من الصّعب أن ينضب أو تُمسك به كلمة واحدة. نراه محكوما بتحلّل تدريجيّ مُطّرد فلا نملك إلّا أن يلوح لنا بأنّنا إزاء كاريكاتير صارخ للمصير المحتوم لكلّ إنسان.

*** (جون جاك مايو: ناقد أدبي وأستاذ درّس بجامعة السوربون)**

مولوي هو المفترق حيث يلتقي؛ شكسبير «نكون أو لا نكون هذا هو الإشكال»، شارل جوليات «لا يسعنا الجزم في شيء، ليس أمامنا سوى الانتقال من سؤال إلى آخر»، سيوران « ما لا يكتمل هو مهمّة المتردّدين»، وإلياد «على المنفيّ أن يكون قادرا على ولوج المعاني الخفيّة للتجوال وفهمها بوصفها التّجارب الأولى التي تقود إلى المركز».

*** (جون سيريل چودفري: ناشر وناقد الفرنسي ورئيس تحرير الأسبوعيّة La Grosse Bertha)**

مكتبة نوبل